عبد القادر الإدريسي

أبو بكر القادري

الجهاد بطعم الوطنية



عبد القادر الإدريسي

أبو بكر القادري

الجهاد بطعم الوطنية

الكتاب : أبو بكر القادري الجهاد بطعم الوطنية
المؤلف : عبد القادر الإدريسي
خطوط العنوان : للخطاط الفنان محمد المعلمين
الناشر : المؤلف
الطبعة : الأولى 1434هـ -2013 م

المطبعة : النجاح الجديدة - الدار البيضاء
الإيداع : القانوني رقم 1081 MO 2013
ردمك : 978-9954-32-115-7

إهـــداء

إلـــى

حفيدي محمد عليّ لطفي عبادي،

فلــذة كبــد ابنتــي زلفــى..

بسمة الأمل وإشراقة المستقبل.



المجاهد أبو بكر القادري مع المؤلف عند مدخل المكتبة الوطنية
في الرباط لحضور إحدى الندوات

الحمد لله وحده

محل الابن الأستاذ الكاتب الشريف سيدي
عبد القادر الادريسي حفظه الله

لعلك كنت من الأولين الحريصين كل الحرص على
صدور هذا الكتاب الذي يسجل أحداثا ربما
أغفلها بعض المؤرخين للحركة الوطنية المغربية
ولعل حرصك على صدوره كان الدافع الأساسي
لإصداره في هذه الحلة القشيبة التي تجلب
لك الارتياح.

إنه ليس بالتاريخ الكامل لفترة ما بين
1930 و 1960 ولكنه مساهمة تكميلية
لما سجله السابقون. كما أنه يسجل أحداثا
عاشها المؤلف بنفسه وساهم فيها بما
كان يستطيعه في عنفوان شبابه.

فهل لك أن تتقبله هدية مما محل والدك
تعبيرا عن اعترافه باخلاصك ووفائك
وصدق شعورك.

أتمنى لك حياة سعيدة مقرونة بالصحة
والعافية والتوفيق والسلام.

السبت: 12 رمضان 1414
6 ~~فبراير~~ مارس 1993

الداعي لك: أبو بكر القادري

مذكراتي
في
الحركة الوطنية المغربية

كلمات الإهداء بخط المجاهد أبي بكر القادري
للجزء الأول من مذكراته إلى المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لما أخبرني أخي فريد أن الأستاذ عبد القادر الإدريسي بصدد الانتهاء من إعداد مؤلف عن والدي أبي بكر القادري، رحمه الله، وأنه يودّ أن أقوم بتقديم الكتاب، كان ردّ فعلي الأول أن أكبرت في هذا الرجل تعلقه وإخلاصه لوالدي حتى بعد وفاته دون أن ينتظر جزاء ولا شكورًا. ثم إنه بادر إلى تهييء وإخراج هذا العمل بضعة أشهر فقط بعد رحيله، ليذكرنا بمحطات مهمة في حياته حرص قلم السيد الإدريسي على تدوينها.

والواقع أن الأستاذ الإدريسي من القلائل الذين يمكنهم أن يدلوا بشهاداتهم في حق والدي، حيث إنه كان يواظب على زيارته على الأقل مرة كل أسبوع، وقد تتعدد هذه الزيارات إن كانا مقبلين على تهييء مشروع أو تنفيذه.

وكانت جلساتهما الصباحية يوم السبت بمكتبة الوالد في بيته بسلا، مناسبة لهما لاستعراض ما يجدّ على الساحة الفكرية، الإسلامية على الخصوص، وكانت كذلك مناسبة يُطلع فيها الأستاذ الإدريسي الوالدَ على مشهاداته ولقاءاته وقراءاته لَمَّا يعود من مهمة قام بها إلى الخارج، كما لو أنه كان مكلفًا بإعداد تقارير صحافية عن أسفاره.

وكان أبي رحمه الله، يرتاح كثيرًا لهذه الجلسات مع شخص يُقدر فيه إخلاصه ودماثة خلقه وحسن اطلاعه، وينوه باستعداده الدائم وعدم تلكئه عن مساعدته في كل مهمة طلب منه القيام بها.

لذلك، فالكتاب الذي يضعه الأستاذ الإدريسي بين أيدينا والذي جمع فيه، إضافة إلى تحليلاته، مجملَ المقالات والأحاديث التي نشرها في الصحف والمجلات وغيرهما، والتي كتبها في مناسبات مختلفة، يمكن أن يُعدَّ بحكم صلته الوثيقة الموصولة ومشاركته الشخصية في عدد من المشاريع التي أطلقها الوالد وملازمته له في بعض الأسفار، سجّلا حافلا لحقبة مهمة من حياة أبي بكر القادري اتسمت بابتعاده شيئًا فشيئًا عن العمل السياسي اليومي - مع تتبعه عن قرب الملفات الوطنية الكبرى وحرصه على الحضور في المحطات الحاسمة - موجّهًا اهتمامه إلى النشاط الثقافي، الإسلامي على الخصوص.

فمن خلال هذه الكتابات يمكن اعتبار المؤلف شاهدًا على مسيرة حياة لأربعة عقود من الزمن، حيث إن الأستاذ الإدريسي، زيادة على مشاركته في إنجاز أعداد كثيرة من مجلة (**الإيمان**) ورئاسته لتحرير جريدة «**الرسالة**»، اللتين أصدرهما أبو بكر القادري، كان من الأوائل الذين يبادرون إلى الكتابة والتعليق لما يصدر الوالد مؤلفًا جديدًا. فالمتتبع إذن لمقالاته يسهل عليه التعرف على حياة أبي بكر القادري وأفكاره ومؤلفاته على مدى ثمانين سنة من النضال والعطاء، فسواء تعلق الأمر مثلا بمقاله «**الجهاد بطعم الوطنية**»، أو «**شاهد على مرحلة حرجة**»، يذكرنا الكاتب بالعمل السياسي والتربوي والديني لأبي بكر القادري من خلال كتابه «**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**».

وبصفته شاهدًا على أن السياسة كانت دومًا مرتبطة بالأخلاق عند والدي، ينبهنا إلى ثلاث مذكرات كتبها أبو بكر القادري ووجّهها إلى الأمين العام لحزب الاستقلال في هذا الصدد. وباعتباره وطنيًا حريصًا على الوحدة الوطنية مناهضًا للفكر الهدّام لوحدة الصف الممزق للنسيج الوطني، يذكرنا أن والدي كان يقول دومًا : «**إني قادري مريني صنهاجي**».

وينتقل بنا الكاتب كذلك إلى فلسطين، القضية الراسخة في ضمير أبي بكر القادري التي منحها من جهده ومن وقته الشيء الكثير.

وخلاصة القول، إن هذا الكتاب (**أبو بكر القادري : الجهاد بطعم الوطنية**)، هو كتابٌ جامع، يجعل القارئ يُـلِـمُّ بشخصية أبي بكر القادري من كل جوانبها، ويتعرف على أفكاره وآرائه في بعض القضايا المبدئية التي شغلت باله إلى أن لقي ربه، رحمه الله.

فهو لهذا، يُـعَـدُّ مرجعًا جديرًا بالقراءة، تفوّق فيه الأستاذ الإدريسي الذي قدم من خلال المترجَم له، صورة أمينة عن حقبة مهمة من تاريخ المغرب المعاصر، سوف تحث الباحثين لا شك، على تسليط الأضواء عليها وتحليل مختلف جوانبها بمهنية وتجرّد.

الرباط في : 4 فبراير 2013 م.

خالد القادري
رئيس مؤسسة أبو بكر القادري
للفكر والثقافة

المقدمة

الأوطان بالرجال، والرجال بالعقيدة الصحيحة وبالتضحية الواجبة وبالقدرة اللامتناهية على البذل والعطاء. والدول تقوم على جهود القادة الرواد والبناة الشجعان الأوفياء المخلصين الذين يفرطون في أنفسهم ولا يفرطون في حقوق أوطانهم وحقوق شعوبهم، والذين يفنون ذواتَهم في شعوبهم ويتجاوزون أشخاصهم إلى الوطن وما يمثله من قيم ومبادئ وخصوصيات وهوية وثوابت ومقدسات وثقافة وحضارة وتاريخ ورموز دالة على الشخصية الوطنية التي يتقمصونها. ولذلك كان تاريخ الأوطان هو تاريخ الرجال الذين صنعوا التاريخ، وكان تسجيل صفحات من هذا التاريخ إسهامًا وافر الحظ في الحفاظ على الجذوة المشتعلة للذاكرة الوطنية، أيًّا كانت الزاوية التي ينظر منها إلى التاريخ الوطني، ومهما يكن المنهج الذي يُعتمد في كتابة التاريخ، مادام القصد هو إحياء الذكرى، لا بالمعنى التلقائي المباشر للإحياء، وإنما بمعنى جعلها ذكرى دائمة قائمة مشعة ومنيرة وباعثة على الأمل وحاضّة على العمل ونافخة الروح في الجسم الوطني ليظل طافحًا بالحياة فوارًا بالحركة يقاوم عوادي الدهر.

لقد بُني المغربُ على قواعد من العقيدة والتضحية والبذل والعطاء. وحينما نقول بني المغرب، فنحن نقصد قيام الدولة المغربية منذ العقد السابع من القرن الهجري الثاني وحتى اليوم. وهي سلسلة ذهبية ممتدة، تشكل التاريخَ المغربيَّ الذي صنعه الرجال الأبطال الذين حافظوا على نصاعة الكيان الوطني، وصفاء معدن الشخصية المغربية، ووهج الفكر الوطني المغربي. فأولائك هم البناة الماهدون الرواد الذين تحملوا الأعباء، وأدوا الأمانة، ونهضوا بالمسؤولية،

والذين لولا جهودهم وجهادهم واجتهادهم، لما كان المغرب الذي يسكننا قبل أن نسكنه. فتاريخ المغرب هو تاريخ هؤلاء القادة الكبار الذين حملوا على عاتقهم بناء الدولة المغربية وحمايتها والذود عن كيانها وصون استقلالها والنهوض بها، وهو إلى ذلك تاريخ الرواد العظام الذين ناضلوا وكافحوا وواجهوا أعداء الوطن لما وقعت الواقعة ونفذت المؤامرة الأوروبية، فاحتل المغرب تحت غطاء الحماية الفرنسية التي عقدت معاهدتها المزورة في 30 مايو سنة 1912، ثم الحماية الإسبانية التي عقدت اتفاقيتها المدبرة بين الدولتين المستعمرتين في 28 نوفمبر من السنة نفسها. وهي ملاحم مترابطة تختلف من مرحلة إلى أخرى شكلاً لا مضموناً، أبلى فيها المغاربة البلاء الحسن، فلم يقصروا في أداء الواجب الوطني، ولم يضعفوا أمام جبروت قوى الشر، ولكنهم صمدوا ورابطوا وثبتوا ثباتاً عظيماً، فكانوا رموزاً للدفاع عن حق الوطن في أن يحيا حراً، وعن حق المواطنين في أن يعيشوا أحراراً. وفي الطليعة من هذه الصفوة الطيبة والنخبة المباركة المجاهد الصادق الصدوق الوفيّ المخلص الصبور الأستاذ أبو بكر القادري.

لقد درست تاريخ بلادي، وأطلت التأمل في مساراته وتياراته وانتصاراته وإخفاقاته. بدأت الدراسة في الكتب والمراجع التي أقبلت عليها حباً وشغفاً، فالتهمتها واستوعبتها وهضمتها وتشربت رحيقها. ثم انكببت على دراسة تاريخ المغرب من خلال الاحتكاك والارتباط والاقتراب من أفذاذ من رجالاته كان لي الحظ السعيد بالتعرف إليهم، وبالاطلاع على أحوالهم، وبقراءة آثارهم، وبمتابعة نشاطهم حتى تعمقت صلتي بهم، فرأيت فيهم جميعاً شعاعاً من الأجيال الأولى الرائدة، ولمست فيهم امتدادًا للنضال الطويل الذي خاضه الرجال الذين صنعوا تاريخ هذا الوطن. وكان من جملة هؤلاء الأفذاذ الماهدين النابغين النابهين، المجاهد أبو بكر القادري، الذي كنت أقرأ في صفحة وجهه سطوراً مضيئةً من تاريخ بلادي، وأرى في سيرة حياته نموذجاً رفيعاً لما كان عليه

ذلك الرهط الكريم، وألمس في مواقفه الشجاعة وآرائه النيّرة وأفكاره البنّاءة وخط سيره في الحياة الوطنية، الصدقَ كلَّه، والوفاء كلَّه، والإخلاص كلَّه.

ومن فضل الله على الكاتب أن اقترب اقترابًا مباشرًا من المجاهد أبي بكر القادري ردحًا من الزمن الجميل يزيد عن ثلاثة عقود، وقبل ذلك كان على صلة روحية وفكرية به من بعيد، يقرأ له ما ينشره من مقالات وكتب، ويلتقي به لقاءات عابرة في مناسبات وطنية، أو في جريدة «**العلم**» لما كان يعمل فيها في أول عهده بالصحافة، ويتراسل معه أحيانًا، سواء لما كان ملحقًا بالإذاعة المغربية في طرفاية والعيون، أو عندما كان ملحقًا بالأمانة العامة لرابطة علماء المغرب في طنجة لمدة عام. ويعدّ الكاتبُ أن من نعم الله التي أسبغها عليه جلت قدرته، أن أصبح تلميذاً لهذا المجاهد الكبير ومساعدًا له في أمور كثيرة، في مجلة (**الإيمان**) خصوصًا في مرحلتها الأخيرة، وفي جريدة (**الرسالة**) الأسبوعية التي اختاره رئيساً لتحريرها، وفي جمعية (شباب النهضة الإسلامية) في طورها الأخير حينما أصبح كاتبًا عامًا لها. فكان اختياره هذا مبعث اعتزاز للكاتب زاد من ارتباطه الروحي والفكري والإنساني به. وفي جميع هذه الأحوال، توثقت الصلة بين الأستاذ والتلميذ، وتعمقت، وتشعبت، فأثمرت قطوفًا يانعة هي غذاء للروح وزاد للفكر.

لقد وجدت في شخصية الأستاذ أبي بكر القادري مثالاً رفيع المستوى للمناضل الوطني المثابر الدؤوب على العمل، وللمفكر المستنير الواعي برسالة الفكر الواقعي الباني للإنسان وللوطن، وللمثقف المشغوف (لا الشغوف التي هي من الخطأ الشائع) بالتوسع في القراءة، وبالحرص على تنوع مصادرها وبالتعمق في مضامينها، حيث كان دائم القراءة، وكان يسألني كلما التقيت به، عن الجديد في المكتبات، ولما أعود من أسفاري للخارج، يترقب ما أحمله له من كتب، بعضها كان يوصيني باقتنائها له، ولما أحضرها يسألني عن ثمنها، فأستنكف عن أن أخبره بثمنها، ولكنه كان يصر، فلا أملك سوى النزول إلى

رغبته. وقلت له ذات يوم : (هل يحمل الإبن لأبيه الكتب ويستلم منه ثمنها؟). فكان ردّه المقنع الذي استسلمت له : (اقبلها مني، وإلا لن أوصيك بشراء الكتب لي بعد اليوم). كما وجدت فيه صورة مشرقة الملامح مبهجة للنفوس للعالم المتبحر في العلوم الشرعية، الذي تلقى العلم عن العلماء الفطاحل في مدينته سلا الذين كانوا مشاعل نور، نهلوا من ينابيع القرويين في عصر ازدهارها وتألق أعلامها. فكان حافظًا لكتاب الله، يداوم على تلاوته صباحًا ومساء، ولم ينقطع عن قراءة القرآن من حفظه حتى في مرضه. وفي كثير من الأحيان كان يتلو القرآن أثناء المشي الذي كان يحرص عليه في المنطقة المجاورة لبيته، ولما تضطره الظروف في مرات كثيرة للمشـي في حديقة البيت، لا يكف عن التلاوة. وكان يستيقظ قبل صلاة الصبح بنحو ساعة ليصلي ما تيسر، ثم يجلس لتـلاوة القـرآن، ثم تـلاوة بعض الصلوات والأذكـار، وكان من بينها أحـزاب أبي الحسن الشاذلي وأذكـار لجـده عبد القادر الجيلاني، ثم يواصل تهجـده وقـراءاته ساعة بعد صلاة الصبح قبل أن يأوي إلى فـراشه. وفي المرحلة الأخيـرة من حياته، اكتشف الـمفكرَ المجدد التـركي بديع الزمان سعيد النورسي، فكان يقـرأ من أذكاره في الفجـر. ولحبه للنورسي ألف عنه كتابًا نشره سنة 2004.

لم يتحدث إليّ قط بصورة مباشرة، عن هذه الأحوال الخاصة به، ولكنه أحياناً كان يشير إشارات خفيفة دون قصد منه إلى قيامه الليل، خصوصًا لما أزوره في الصباح فأجده متعبًا وأسأله عن الصحة، فيذكر بصورة تلقائية، أنه أطال القيام في الليل، أو أنه لم يقرأ أوراده بقدر كاف بسبب وعكة صحية عارضة ألمت به. وفي بعض المرات يتطرق الحديث بيننا إلى عبد القادر الجيلاني أو أبي الحسن الشاذلي أو عبد السلام بن مشيش أو أبي مدين الغوث، أو سواهم من أرباب الرقائق وأصحاب المقامات الرفيعة في الطاعة والتقرب إلى الله، فيشير إلى أنه يقرأ لهذا أو ذاك كل فجر. ثم يطيل الحديث عن كل واحد منهم حسب مقتضى سياق الكلام.

في الفترات التي كان يعكف خلالها على كتابة مؤلفه : (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**)، كان يبهرني بما أراه فيه من عزيمة قوية وحماسة كبيرة في الانكباب على تحرير الفصول فصلاً إثـر فصل بهمة حازمة. وكان يستعين بي في مرات قليلة، لأبحث في المكتبة الوطنية بالرباط، عن معلومة يطلبها في الدوريات القديمة. وأحيانـًا كان يطلب مني عندما أسافر إلى تطوان، أن أبحث في المكتبة العامة هناك، عن مقال أو خبر أو صورة أو تغطية لحدث ما. فلما أعود إليه بما طلبه مني، تنبسط أساريره وكأنه وقع على شيء نفيس، فيواصل الكتابة في الموضوع الذي ينشغل به. وفي إحدى المرات، وأثناء مرضه، طلب مني أن أراجع التصحيح الذي جاءه من المطبعة وترتيب الصور في أحد الأجزاء من المذكرات، وأشار إليّ أن أجلس إلى مكتبه في غرفة المكتبة، فوجدت حرجًا في أن أعمل وسط الجو العائلي حيث كان بعض من أبنائه مع أولادهم في البيت يترددون على المكتبة للسلام عليه. ولكنه كان يلح على أن أواصل العمل حيث كان حريصًا على إتمام المراجعة والتعجيل بتسليم الكتاب إلى المطبعة. وكنت أتوجس خيفة من هذا الحرص، إذ بدا لي كأنه كان يشعر بدنو الأجل خلال اشتداد المرض عليه في تلك الفترة. ولكن الله لطف، فعاش سنوات طويلة مباركة بعد ذلك متمتعًا بالصحة والعافية والعزيمة القوية، نشر خلالها ستة أجزاء من المذكرات وكتبًا أخرى عديدة.

كان حريصًا على الكتابة عن جده القطب الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني. وكان يتحدث إليّ عن الاقتراح الذي طرحه عليه القاضي الكاتب الباحث الأستاذ عبد القادر القادري بتأليف كتاب عن الجد. وكان يكرر هذا الطلب إليه دومًا كلما التقى به أو كتب إليه رسالة في مناسبة ما. وحينما قـرَّ عزمه علـى تـأليـف هذا الـكتـاب، أخبرني بسرور بالغ أنه بدأ يجمع المادة التاريخية. في تلك الفترة (مطالع التسعينيات من القرن الماضي) كنت عزمت على السفر إلى العاصمة الأردنية عمان، فطلب مني أن أبحث في المكتبات

العمومية والتجارية عن التفسير المنسوب إلى عبد القادر الجيلاني الذي كان يحرص على الاطلاع عليه. ولكنني لم أعثر على هذا التفسير، بل أخبرني الباحث العراقي المحقق الدكتور بشار عواد معروف، الذي كان يعمل في قسم الفهارس والمخطوطات في مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي، أن هذا التفسير غير موجود.

لقد بدا سعيدًا عند انتهائه من تأليف كتابه عن الجد (**الشيخ عبد القادر الجيلاني ودوره في الدعوة الإسلامية في أنحاء العالمين الآسيوي والإفريقي**). ولما صدر الكتاب رأيت أمارات السرور والحبور على محيّاه، لدرجة أنني لم ألحظ ذلك فيه بذلك القدر من الوضوح عند صدور أي كتاب جديد له. وكأن كتابه هذا الذي صدر في سنة 1999، كان أملاً راوده أمـدًا، فشعر بالارتياح حين وفقه الله إلى تحقيقه.

وكنت أساعده في ترتيب مواد الكتاب الذي أصدره بعنوان (**رسائل أبوية من والد إلى أولاده**) في سنة 2004. وكان مترددًا في تسليم الكتاب إلى المطبعة بعد الفراغ من إعداده، لاعتبارات رأى أنها مقنعة. ولكنه ما لبث أن عزم فأرسل الكتاب إلى المطبعة. وهذا الكتاب فريد من نوعه، يمكن اعتباره تكملة لسيرته الـذاتيـة الموزعـة في كـل مـن (**مذكـراتي في الحركة الوطنية المغربية**) و(**قصة النهضة**). ومما يمتاز به هذا الكتاب أنه يضم رسائل كتبها الأستاذ أبو بكر القادري من السجن المدني بالرباط سنة 1944، إلى ابنه البكر الأستاذ خالد القادري، وكان يومئذ هو ولده الوحيد الذي لم يبلغ السنتين، إلى جانب رسائل عديدة كتبها إلى ولده خالد من السجن المدني بمدينة الدار البيضاء سنة 1953، وأخرى كتبها إلى أولاده من رحلاته المتعددة إلى بلدان كثيرة. وهي رسائل مؤثرة وبالغة الأهمية تلقي الضوء على جانب مهمّ من حياته النضالية من جهة، وعلى مراحل من سيرته. ولا أعرف في المكتبة العربية كتابًا في موضوعه. وأحسبني لا أبالغ إذا

قلت إن هذا الكتاب هو جزء لا يتجزأ مما كتبه المؤلف عن تاريخ الحركة الوطنية المغربية. وهو إلى ذلك مرجعٌ أساسٌ عن حياة المجاهد أبي بكر القادري.

ولم يكن راضيًا تمامًا عن الآثار الفكرية التي خلفها والمبثوثة في الكتب التي ألفها، لأنه كان شديد الطموح إلى الأحسن ومشبوبَ الرغبة في كتابة المزيد من المؤلفات والبحث في الكثير من الموضوعات التي كانت تشغله. فعلى سبيل المثال، كان يرغب في مواصلة تسجيل ذكرياته عن مرحلة الطفولة، وعن البيت الذي نشأ فيه، وعن الأسرة التي ترعرع في كنفها، وعن البيئة التي كانت تحيط به، وعن طلبه العلم وحفظه القرآن الكريم في صغره، وعن امتهانه للتجارة لوقت قصير في دكان صغير بالمدينة العتيقة، إلى أن جاءه ذات يوم أحد معارف والده الذي كان قد توفي وهو في الثامنة من عمره، وواجهه بكلام كان من شأنه أن يغير مجرى حياته. فقد قال له السيد أحمد زنيبر، وكان من أعيان سلا، ومن الشخصيات النافذة في المدينة : (اخرج من الدكان، ليس هذا محلك، وأنت لم تخلق للتجارة، ولكنك خلقت للعلم وللعمل من أجل بلدك). وإلى حدود تلك السن، لم يكن أحد يتوقع أن الفتى القادري سيكون من قادة الحركة الوطنية، فقد حدث ذلك في خريف سنة 1929 أو سنة 1930. ولكن صديق الوالد الناصح كان ذا فراسة ثاقبة عرف من خلالها أن هذا الفتى الذي تظهر عليه سمات الذكاء والفطنة، سيكون له مستقبل في خدمة وطنه، وأن السبيل إلى ذلك هو سبيل العلم والمعرفة.

وكان يطمع في أن يكتب كتابًا عن الزعيم علال الفاسي، على الرغم من أنه كتب عنه فصولاً في سلسلة **(رجال عرفتهم)** أكثر من مرة. ولكنه كان يرغب في إفراد هذه الشخصية الفذة بتأليف خاص، على غرار ما فعله مع إخوانه الوطنيين مثل اليزيدي وبنعبد الجليل وبلافريج والزهيري والفاسي، كما ألف كتابًا ذا أهمية خاصة عن جلالة الملك محمد الخامس. وكان قد شرع فعلاً في

تسجيل ذكرياته عن الطفولة في دفتر من خمسين صفحة، قرأ عليٌّ ذات يوم الصفحات الأولى منه، كما كان يفعل كلما فرغ من كتابة فصل من كتاب له أو مقدمة لأحد كتبه. ولكنه لم يكمل هذه المذكرات.

وكان لا يكف عن القراءة في فروع متعددة من المعارف والعلوم والآداب. وكانت قراءاته الدينية تجمع بين القديم والحديث. وكذلك كانت قراءته الثقافية والسياسية. وكان يحرص على القراءة في كتب المذكرات لرجال السياسة والعلم والفكر. كما كان يحتفي بالقراءة في الموسوعات ودوائر المعارف. وتلك خاصية يتميز بها العظماء النبغاء النبهاء الذين يغترفون المعرفة من المنابع الثرة وليس من الفروع. وكان يبهرني بسعة اطلاعه على الأمهات من كتب التراث في مختلف فروع العلوم العربية الإسلامية، وعلى المجلات القديمة مثل (**المقتطف**) و(**الرسالة**) و(**الفتح**) و(**الهلال**) في عهدها الأول التي ظل يحتفظ في مكتبة البيت بمجموعات منها. وكنت أحسب أنني متابع جيّد للجديد في المكتبة العربية، ولكنني كنت أجده في أحايين كثيرة، أكثر متابعة مني، إذ كان كثيرًا ما يطوف على المكتبات في الرباط أو في الدار البيضاء لما يزورها، للوقوف على العناوين الجديدة. وكانت تصله الكتب المهداة إليه، فيحتفي بها ويحرص على كتابة رسائل شكر لمؤلفيها، ويضعها أمامه على المكتب ليرجع إليها وينظر فيها ويقلب صفحاتها ويقرأ منها ما يجذبه منها.

وكان يشكو من ضيق الوقت ومن قلة ساعات الفراغ ليخلو إلى القراءة التي كانت متعته. وقد كان حريصًا على شراء الكتب منذ شبابه الباكر على قلتها في ذلك الحين مع شح المورد. وقد حدثني ذات يوم أنه كان في يفاعته، وهو دون الخامسة عشرة من عمره، يتقاضى مبلغا زهيدًا كل شهر من نظارة الأوقاف في سلا مقابل قراءة حزب من القرآن الكريم مع الجماعة في المسجد بعد صلاة المغرب وصلاة الصبح، وكيف أنه كان يخصص ذلك المبلغ البسيط لشراء المجلات والكتب التي كانت ترد من الشرق.

ولـذلك تـوفـرت لـلأستاذ أبي بكـر القـادري الظروف المساعدة والشـروط اللازمة للتحصيل العلمي الواسع بالانكباب على القراءة برغبة شديدة في الاطلاع، إلى جانب تلقيه العلم من الفقهاء العلماء في المساجد والزوايا في مدينته سلا، وجلهم كانوا من الفطاحل. وهذا الضرب من التحصيل العلمي النادر لا أعرف له مثيلاً إلا عند الأستاذ عبد الله كنون، فكلاهما لم يترددا على القرويين، ولم يحصلا على شهادة من تعليم نظامي. ولكنه النبوغ المغربي الذي تفجرت ينابيعه الثـرة عند أبي بكر القادري وعبد الله كنون. ومما أعتزّ به غاية الاعتزاز، أن كتب الله لي الاقتراب من الرجلين الكبيرين، والأخذ عنهما دروسًا ثمينة في الفكر والعلم والوطنية والحياة.

ومن مظاهر العظمة الإنسانية في شخصية الأستاذ أبي بكر القادري، أنه كان سـمحـاً إلى أقصـى حـدود السـمـاحـة، ومتسامحاً بالمعنى الأخلاقي الراقي للتسامح. فلم يكن يؤذ أحداً بلسانه، حتى الخصوم السياسيين كان يعاملهم بروح الأخوة والزمالة في النضال الوطني. وطيلة معرفتي به لم أسمعه قط ينال من أحد، ولما يبلغه أن فلاناً من حزب ما يقول فيه كذا وكذا، كان يكتفي بالقول (حسبي الله ونعم الوكيل، غفر الله له). ولذلك كان موضع تقدير عميق من جميع الأطراف السياسية.

وتلك سجية رفيعة من سجايا هذا المناضل الذي كان يرتفع فوق الصغائر ولا يأبه بالتوافه ويتطلع دائماً إلى معالي الأمور وينظر إلى بعيد ويجعل مصلحة الوطن، وقبلها كرامة الإسلام وعزته، فوق كل مصلحة.

ولقد اجتهدت أن أقدم ملامح من صورة المجاهد الأستاذ أبي بكر القادري في هذا الكتاب الذي كان جزءٌ من فصوله مقالاتٍ نشرت لي في الصحافة، حرصت على جمعها وإعادة قراءتها وترتيبها وضمها إلى فصول جديدة كتبتها حتى تكون نافـذة يطل منها القارئ على عالم رحب من الفكر الوطني الباني،

ومن الجهاد الوطني الاستقلالي، ومن الأخلاق الوطنية السامية. ولعلني أن أكون بنشري هذا الكتاب، قد أديت قسطاً من الدين الذي في عنقي للمجاهد أبي بكر القادري، ووفيته بعضاً من حقه عليّ، وهو كثير أشهد أني لا أقدر على الوفاء به كاملاً، وقدمت للقراء شهادة على رجل كبير فـذ عزيز النظير، كان هو نفسه شهادة ناطقة على عصره.

والحمد لله في البدء والختـام.

عبد القادر الإدريسي

سلا في فاتح يناير 2013م.

الخيوط الأولى من شعاع لم ينطفئ

بدأت صلتي بأبي بكر القادري في عام 1967، حين زرته في بيته المجاور لثانوية النهضة بسلا أسعى إلى حديث صحافي أجريه معه لجريدة **(العلم)**. وكان في هذه الفترة يتردد على مطبعة **(الرسالة)** لمتابعة طبع مجلة **(الايمان)**، فكنت ألتقي به بين الحين والآخر، وأتبادل معه واقفًا عند مدخل المطبعة، أطرافَ الحديث العابر. ولما توقفت مجلة **(الإيمان)** عن الصدور للمرة الأولى في عام 1971، نشرت مقالاً في **(العلم)** عبّرت فيه عن شعوري بالألم لعجز مجلة راقية جَادَّة عن مواصلة الصدور بسبب قلة الموارد. وكان لهذا المقال الأثر الطيب في نفس الرجل الذي أكبرتُ فيه علوَّ همته وقوة إرادته وخلوص نيته وإصراره المحبَّب إلى النفس، على العمل لما فيه خير شعبه ووطنه وأمته.

ثم انتقلت لمدة سنة إلى طنجة، لأعمل سكرتيرًا لتحرير جريدة **(الميثاق)** لسان رابطة علماء المغرب (أكتوبر 1972 - أكتوبر 1973) التي كان يديرها الأستاذ عبد الله كنون ويرأس تحريرها. ولكن صلتي بأبي بكر القادري لم تنقطع، ولكنها زادت ونمت، فكنت أكتب له في المناسبات، ونشرت في **(العلم)** مقالاً عن كتابه الأول الذي صدر في تلك الفترة، الذي كنت قد تلقيته منه وأنا في طنجة، وعنوانه **(في سبيل وعي إسلامي)**، وهو الكتاب الذي كنت قد تركته مجموعًا في المطبعة بعد أن صححته بالكامل، وفوجئت بحديث صحافي كنت قد أجريته معه فيما أجريت من أحاديث صحافية معه، ونشرته في الصفحة الإسلامية الأسبوعية لجريدة **(العلم)**، التي كانت تصدر تحت عنوان (700 مليون مسلم) ـ فوجئت بهذا الحديث منشورًا ضمن فصول الكتاب الأول لأبي بكر القادري، مع الإشارة في الهامش إلى إسمي.

وكانت صلتي الفكرية بأبي بكر القادري، قد بدأت في وقت مبكر من حياتي قبل أن أغادر تطوان. وأذكر أنني في شتاء عام 1963، ظللت طوال اليوم أترقب بلهفة وشوق، وصول العدد الأول من مجلة **(الإيمان)** إلى مكتبة الناصر في شارع محمد الخامس، بعد أن قرأت في **(العلم)** خبراً عن صدورها، وعلمت من صاحب المكتبة أنها ستصله مساء ذلك اليوم. ولست أنسى شدة فرحي بالعدد الأول من هذه المجلة واحتفائي بها واحتضاني لها وأنا أغذّ السير إلى منزلنا بحيّ الطوابل، في ذلك المساء الشتوي الجميل، لأقضي شطرًا من الليل مستمتعًا بقراءتها.

ثم توالت قراءاتي لأبي خالد ـ وهو الإسم الذي كان يوقع به أبو بكر القادري مقالاته اليومية التي ينشرها في **(العلم)** في شهر رمضان من تلك الفترة ـ. وأستغرب الآن كيف اهتديت في ذلك الوقت، وقبل انتقالي إلى الرباط ودخولي بلاط صاحبة الجلالة، إلى أن أبا بكر القادري هو صاحب تلك السلسلة الراقية من المقالات الممهورة بتوقيع مستعار. ثم كنت أحرص على متابعته في **(الإيمان)** و**(العلم)** ؛ أقرأ مقالاته وأحاديثه وملخصات خطبه وكلماته في المناسبات الوطنية، وأتابع في الصحافة أخبار تنقلاته وأسفاره، حتى ارتبطت صورتُه في ذهني بصورة الزعيم علال الفاسي، ولم يُفَك هذا الارتباط إلى اليوم. ومن تداعيات هذا الارتباط، أذكر أنني تلقيت رسالة وصلتني من أبي بكر القادري أثناء إقامتي بطنجة، يخبرني فيها بمسعاه الذي بذله لإعادتي إلى موقعي الأصلي في **(العلم)**، ويبلغني بأنه تحدث مع الزعيم علال الفاسي في هذا الموضوع. وكنت قد قدمت استقالتي باختياري الشخصي من جريدة **(العلم)** في أكتوبر عام 1972، استجابةً لدعوة كريمة تلقيتها من الأستاذ عبد الله كنون لمساعدته في إصدار جريدة **(الميثاق)** والنهوض بأعباء سكرتارية الأمانة العامة لرابطة علماء المغرب. ومع ذلك ما كنت أحسبني قد غادرت **(العلم)** أو انقطعت صلتي بها، لتشابه الموقعين والصحيفتين غايةً وهدفًا، وإنما ظللت على صلة بمدرستي الصحافية الأولى التي أعتز دائماً بأني من خريجيها. وما أعظمها من مدرسة، هذه التي تعلم الأجيال الثقافة والوطنية ممزوجين ومقترنين.

وقد منحتني (**العلم**) ثقة بنفسي، فصرت أرسل مقالاتي إلى (**الإيمان**)، وألقى ترحيبًا حارًا من صاحبها يزيدني اقترابًا منه وارتباطًا فكريًا به. وكنت بعد التحاقي مرة ثانية بالرباط لأعمل في مجلة (**دعوة الحق**) نائبًا لرئيس التحرير أولاً، ثم مسؤولاً عن النشاط الثقافي بمديرية الشؤون الإسلامية في مرحلة ثانية من عملي بوزارة الأوقاف، فرئيسًا لتحرير المجلة، أواصل الكتابة في (**الإيمان**) و(**العلم**)، وأغطي بين الفينة والأخرى، النشاط الثقافي والفكري لأبي بكر القادري في البرامج الثقافية والإسلامية الإخبارية التي كنت أعدها لإذاعة الرباط. وكانت هذه المرحلة حافلة بالنشاط الفكري والثقافي لأبي بكر القادري. واستمر هذا النشاط متدفقًا بلا انقطاع طوال السبعينيات، حيث كان يجمع في وقت واحد بين المسؤولية الكاملة للمجلة، ولجمعية شباب النهضة الإسلامية، وللجمعية المغربية لمساندة كفاح الشعب الفلسطيني، وبين نشاطه في أكاديمية المملكة المغربية، والنشاط في الجبهة العربية المشاركة للثورة الفلسطينية، وبين مؤتمر العالم الإسلامي، ورابطة العالم الإسلامي، والمؤتمر الأفريقي الإسلامي، وبين مسؤوليته عن ثانوية النهضة، بالإضافة إلى القيام بالواجب الوطني من موقعه المتميز في اللجنة التنفيذية للحزب.

لقد تعاظمت مسؤوليات أبي بكر القادري في تلك المرحلة، وفي المرحلة التي أعقبتها، وتضاعفت أعباؤه، وزاد نشاطه تدفقًا وغزارة. وأعتقد أن حجم الحركة التي قام بها أبو بكر القادري، ومستوى النشاط الذي مارسه، ومبلغ الجهد الذي بذله في السبعينيات والثمانينيات، يفوق ذلك كلّه - في رأيي - جميع ما قام به من أعمال ونشاطات طوال المراحل السابقة من حياته. ففي هذه المرحلة التي دامت قرابة العقدين، صدرت كتبه الواحد تلو الآخر، وقام بزيارات إلى مناطق عديدة من العالم، موفدًا في مهمات سياسية وعلمية، أو مشاركًا في مؤتمرات عربية وإسلامية، من الصين واليابان وأندونيسيا وسنغافورة وسيرلانكا شرقًا، إلى الولايات المتحدة الأمريكية غربًا، ومن الاتحاد السوفياتي السابق شمالاً، إلى إرتيريا جنوبًا، وترأس الندوات واللقاءات الثقافية والعلمية

والـفـكـريـة. وقـد ازدهـرت في هـذه المرحـلـة مجلـة (**الإيمان**)، وتـعـزز حضـورها الصحافي بإصدار (**الرسالة**)، وهي جريدة إسلامية أسبوعية جديدة، كان من حظي أن اختارني للتعاون معه في إصدارها رئيسًا للتحرير.

في تلك المرحلة تعمقت معرفتي بأبي بكر القادري إنسانًـا، وزعيمًا، ومفكرًا، وداعية، وكاتبًا، ومؤرخًا، وأبًا روحيًا بارًا رؤوفًـا.

في سبتمبر عام 1980، اختارني المجاهد أبو بكر القادري، ضمن وفد مغربي من رجال الفكر والثقافة والصحافة، توجه إلى أندونيسيا بدعوة من رابطة العالم الإسلامي، لحضور المؤتمر العالمي الأول للإعلام الإسلامي الذي عقد في جاكارتا، وشارك فيه ما يزيد عن أربعمائة صحافي وإعلامي وناشر ومفكر إسلامي من مختلف أنحاء العالم.

كان الوفد يضم أبا بكر القادري، عبد الكريم غلاب، د. المهدي بن عبود، قـاسـم الـزهيري، محمـد الـعـبـدلاوي، إسـمـاعيـل الخطيب، محمـد المنتصر الريسوني، محمد الخضر الريسوني، عبد الرحيم بن سلامة. وكانت هذه أول مرة أسافر فيها مع أبي بكر القادري وأحضر معه مؤتمرًا عالميًا. ولقد وضحت لي جوانبٌ من حياة هذا الرجل الفذ الكبير أثناء تلك الزيارة بالغة الثراء، شديدة التميـز، زادت من اقترابي منه. ورأيت فيه رجل الفكر وصاحب الدعوة ذا المكانة الرفيعة والمنزلة السامية والسمعة الطيبة بين أقرانه وزمـلائـه مـن قـادة الـفـكـر الإسـلامـي والإعـلام والصـحـافـة الإسـلامـيـة من مختلف أنحاء العالم، من أستراليا شرقًـا، إلى الولايات المتحدة الأمريكية غربًـا. وتطابقت في ذهني صورة أبي بكر القادري على المستوى الوطني، وصورته على الصعيد الإسلامي والدولي، فامتلأت نفسي إعجابًـا وإكبارًا لهذه الشخصية المغربية التي يشعر الإنسان بالفخر والاعتزاز بالعمل معها في إطار مؤتمر إسلامي عالمي في حجم مؤتمر جاكارتا الذي كان فريدًا من نوعه، والذي لم يتكرر شبيه له إلى اليوم.

وقد ظهر لي أن أبا بكر القادري قد تعرَّف عليَّ هو بدوره بكيفية عميقة، أثناء تلك الرحلة الطويلة، فما أن عدنا إلى أرض الوطن حتى استدعاني إلى بيته في بطانة/سلا، ليطلعني على تخطيطه لإصدار جريدة أسبوعية تعزز الدور الإعلامي الذي تقوم به شقيقتها مجلة (**الإيمان**) الإسلامية الشهرية. وخلال هذا اللقاء، الذي أحسبه ثاني لقاء لي به في بيته، عرض عليَّ أن أعمل إلى جانبه في الجريدة الجديدة التي شرعنا نعدّ العدّة لصدورها، ونرسم على الورق خطتها، بما في ذلك اختيار إسم الجريدة وانتقاء الأبواب، وتحديد أمهات المسائل والموضوعات والقضايا التي ستعالجها، وضبط معالم سياستها وتوجّهاتها. وكان الإسم المقترح أولاً هو (**الفتح**)، ربما تأثـرًا بما لمجلة (**الفتح**) لمحبّ الدين الخطيب من صدى طيب في نفوسنا. ثم مررنا بعدة أسماء، إلى أن وقع الاختيار على (**الرسالة**)، وفي الذهن صورة من رسالة أحمد حسن الزيات التي ظلت تصدر في القاهرة عشرين سنة من 1933 إلى 1953.

ولقد استغرقنا العملُ في الإعداد لإصدار العدد الأول من (**الرسالة**)، فكنت أتردد على بيت أبي بكر القادري يوميـًا، وأحيانـًا مرتين في اليوم الواحد. وخططنا لها أن تصدر من مطبعة (الرسالة) التي تطبع جريدتي (**العلم**) و(**الرأي**) (**L'Opinion**) لساني حزب الاستقلال باللغتين العربية والفرنسية. ولم تكد تمضي فترة وجيزة حتى صدر العدد الأول، وحرص أبو بكر القادري على أن يقيم حفل استقبال في بيته احتفالاً بهذه المناسبة، وكان ذلك تقليدًا جديدًا في الصحافة المغربية، اغتبط به رجال الصحافة والفكر والثقافة وقادة العمل الوطني الذين دعوا إلى الحفل.

في تلك المرحلة التي امتدت من عام 1980 إلى عام 1986 التي صدرت فيها (**الرسالة**)، عشت مع أبي بكر القادري في محيطه قريباً منه بصفة دائمة مستمرة، فعرفته فيها معرفة أستطيع أن أقول إنها عميقة وشاملة ومحيطة بالجوانب المتعددة من شخصيته الفذة. وأنا أقدر هذه الصفة لشخصيته تقديرًا

دقيقـًا. ويمكنني أن أقول، إذا جاز لي أن أستخدم لغة الأكاديميين، إنني خلال تلك المرحلة، انتقلت في حياتي الخاصة، وفيما يتعلّق منها بالنواحي التكوينية، بالمعنى الواسع للتكوين والتثقيف، من طور الدراسات المعمقة، إلى طور الدراسات العليا، لما كان لهذه المرحلة في حياتي من أثر شديد لا يزال يعمل عمله في أعماق نفسي إلى اليوم؛ يقود خطواتي، ويوجّه تفكيري، ويحدّد معالم ذاتي. والفضل في ذلك كله، بعد فضل الله سبحانه وتعالى، يعود إلى هذه الشخصية الغنية التي تتمثل فيها عصارة الفكر الوطني المغربي، والتي تعكس أصالة الإسلام وعراقة العروبة، وصورة المغرب ذي الحضارة الباذخة.

وعلى المستوى السياسي العام، كانت المرحلة الممتدة من أواسط السبعينيات إلى منتصف الثمانينيات، مطبوعة بطابع التوتر العميق في المناحي والجوانب كافة، سواء على الصعيد الوطني المغربي، أو على المستوى العربي الإسلامي والدولي. ففي أواخر السبعينيات كان العالم يتطلع إلى بزوغ القرن الخامس عشر الهجري، وظهرت في تلك الفترة الدقيقة، بوادر وإرهاصات لأحداث ضخام قلبت كثيرًا من موازين القوى في العالم بأسره، وأحدثت هزات عنيفة في الفكر والوجدان، وفي الواقع، وفي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في جميع أنحاء المعمور. وقد تعاظم دور رجل الفكر والقلم وسط تلك الأجواء، وزادت مسؤولياته بتفاقم الأخطار التي تتهدد الأمم والشعوب، والأفراد والجماعات، كما تهدد الأفكار الأصيلة والقيم المثلى. ولقد كان أبو بكر القادري خلال تلك الفترة، ومن مواقع عمل عديدة، ومسؤوليات جسيمة متنوعة اضطلع بها، الرجلَ القويَّ الرشيدَ الذي يعمل لما فيه الخير لبلاده وشعبه وأمته، من المكان المناسب، بل أقول من الأمكنة المناسبة حتى أكون دقيقًا في التعبير. فلقد كان أبو بكر القادري خلال تلك الفترة الدقيقة التي تعمقت فيها معرفتي به، يملأ الساحة بنشاطاته، وتحركاته، ومواقفه، وجولاته وصولاته في مجال الفكر والصحافة والدعوة الإسلامية والعمل الوطني العام. وكان قد

تفرغ تمامًا للعمل العام في ساحاته الممتدة، وعبر الحزب والمجلة والجريدة والأكاديمية، والجمعيتين الإسلامية والفلسطينية، وعشرات المواقع الأخرى التي كان يعمل منها من أجل المبادئ التي نشأ عليها ونذر حياته للدفاع عنها.

كان المغرب خلال تلك المرحلة، يخوض أشرس معاركه الوطنية دفاعًا عن وحدته الترابية، بعد أن دخلت قضية المطالبة باسترجاع الصحراء المغربية منعطفًا خطيرًا، تجند الشعب المغربي كله وراء قائده جلالة الملك الحسن الثاني، من أجل الخروج منه في أمن وأمان. ولقد كان لأبي بكر القادري في تلك الفترة مواقف وطنية في غاية الشجاعة، على المستويين الوطني المغربي، والعربي الإسلامي، فما من مؤتمر أو لقاء أو تجمّع أو ندوة حضرها خارج المغرب، إلا وحرص فيها على أن يدافع عن القضية الوطنية الأولى. وقد كنت رأيته في المؤتمر العالمي الأول للإعلام الإسلامي في جاكارتا، يقف في قوة وحرص وشموخ، ليواجه خصوم القضية المغربية، وليدحض الافتراءات، وليصحح المفاهيم، وليرد الحق إلى نصابه، وليعلن أمام الملأ تشبث المغاربة بوحدتهم الترابية.

وشارك أبو بكر القادري في الحملة الديبلوماسية التي قام بها المغرب في منتصف السبعينيات، لشرح الموقف الوطني من قضية الصحراء، وقد اختاره جلالة الملك في إطار تلك الحملة، على رأس وفد زار بعض البلاد العربية والأفريقية. ولم يترك أبو بكر القادري مناسبة طوال هذه الفترة الحاسمة من تاريخ المغرب، إلا واستغلها للدفاع عن حقوق المغرب التاريخية والقانونية. وكنت أتابع تحركاته السياسية والثقافية والإسلامية في الداخل والخارج من خلال **(العلم)**، قبل أن أقترب منه بالقدر الذي يسمح لي بمعرفة واسعة بأحواله. حتى إذا صدرت **(الرسالة)**، علمت من هذه الأحوال، وعن قرب، ما ملأ النفس والقلب والعقل إكبارًا وإعجابًا بالجهود المتواصلة التي كان يبذلها بذلاً سخياً في سبيل الوطن.

يقوم الفكر السياسي عند أبي بكر القادري على دعائم ثلاث ؛ **أولاها** الإسلام، فهو عقيدة المغرب، ودين هذا الشعب، ولحمته وسداه، ومصدر قوته في الماضي والحاضر والمستقبل، **وثانيتها** اللسان العربي، لغة القرآن الكريم، والآصرة التي تربط بين أبناء الشعب المغربي، والوسيلة والأداة لفهم مقاصد الدين وإدراك مكارمه وغاياته، **وثالثتها** العرش الذي هو رمز الوحدة الوطنية، وهو السياج الواقي ضد الفتن والزلازل الاجتماعية والسياسية، وهو مصدر القوة والمنعة والقدرة في كل الأحوال وفي جميع الظروف.

ولذلك فإن تجنيد أبي بكر القادري نفسه في معركة الوحدة الترابية التي أخذت اتجاهًا جديدًا، ابتداءاً من صيف عام 1974، كان يتطابق وينسجم مع ما يؤمن به ويعتقده ويرى أنه الحق الذي لا مراء فيه.

ولقد رأيت أبا بكر القادري في مدينة طرفاية أثناء المسيرة الخضراء وهو في مقدمة صفوف المتطوعين جنديًا مقدامًا ذا قلب جسور ورباطة جأش وسكينة نفس. وتابعت نشاطه في الصحراء في تلك الأيام القليلة الحاسمة، من موقعي في إذاعة طرفاية التي انتدبت للعمل فيها ابتداءاً من أبريل عام 1975، شهورًا قبل الإعلان عن المسيرة في 16 أكتوبر من السنة نفسها. وكنت أربط، وأنا أتأمل المشهد من موقعي في الإذاعة التي كانت في تلك الأيام خلية تعجّ بالحركة الدائبة والنشاط الإعلامي الذي لا يفتر ليلاً ونهارًا، بين صورة أبي بكر القادري المفكر والداعية والمناضل السياسي المحنك، وبين صورته وهو في موقع المعركة التي لم يكن يعلم مصيرها يومئذ إلا الله، يتقدم الصفوفَ مع إخوانه في قيادة الحزب.

وأشهد أن صورة المجاهد تمثلت أمامي عهدئذ مجسمةً أوضح ما يكون في أبي بكر القادري.

لقد دخل أبو بكر القادري معترك الحياة السياسية وانخرط في العمل الوطني العام في سن مبكرة من حياته. فلقد ولد بمدينة سلا في عام 1913، وما

أن حلت سنة 1930، التي صدر فيها ما يعرف في تاريخ المغرب المعاصر بالظهير البربري، حتى نجده فتى يافعًا يتقد حماسة ، وهو يتابع بعقله الواعي، الذي حباه الله تعالى بفطنة وذكاء نادرين، ما يجري من حواليه، ليقف، وهو بعدُ في السابعة عشرة من عمره، على حقيقة ما كان يدبّر للوطن عهدئذ من مكائد ومؤامرات.

وقد اكتملت شروط النضج السياسي لدى أبي بكر القادري في مرحلة مبكرة من حياته، وتزامن هذا الاكتمال مع دخول المغرب أصعب مراحل تطوره السياسي في مواجهة قوى البغي والعدوان، حيث عرف في الفترة الفاصلة بين سنة 1930 وسنة 1937، تحولات خطيرة كان لأبي بكر القادري فيها قدم راسخة في الكفاح والمواجهة والتصدي. ففي تلك المرحلة تشكلت الخلايا الوطنية الأولى، ونضج الوعيُ السياسيّ، وبلغ التحدي الوطني للوجود الاستعماري درجة من الاكتمال والاستواء جعلت الطلائع الأولى من رجال الحركة الوطنية في الصفوف المتصدية لسلطات الحماية، سواء في الشمال أو في الجنوب.

لقد كان أبو بكر القادري حاضرًا ومشاركًا وفاعلاً في تلك الأحداث الحاسمة جميعها، بل كان صانعًا لبعض هذه الأحداث، ورائدًا في التعامل معها في الساحة السياسية الوطنية، وزعيمًا ليس على مستوى مدينة سلا فحسب، ولكن على المستوى الوطني باعتباره أحد قادة العمل الوطني الأفذاذ المشهود لهم بالتفرد والتميز وبالريادة والزعامة.

ففي تقديم مطالب الشعب المغربي عام 1934، وتقديم المطالب المستعجلة في عام 1936، وفي تأسيس كتلة العمل الوطني في عام 1934، وإنشاء الحزب الوطني في عام 1937، وفي الأحداث العاصفة التي شهدها المغرب في شهر أكتوبر عام 1937، وفي أحداث يناير عام 1944، في كل هذه الأحداث الحاسمة الفاصلة، كان أبو بكر القادري حاضراً ومشاركاً وفاعلاً ومؤثراً في حركة العمل النضالي.

وفي المجلس الأعلى لحزب الاستقلال، وفي المفتشية العامة للحزب، وفي اللجنة التنفيذية للحزب، وفي مجلس الرئاسة للحزب، في جميع هذه المواقع القيادية داخل الحزب، كان أبو بكر القادري مناضلاً قوي الشكيمة، رابط الجأش، ثابت الجنان، مؤمناً بالقيم والمبادئ التي قام عليها الكيان الوطني المغربي.

وفي المجلس الوطني الاستشاري في عام 1956، الذي كان بمثابة البرلمان المغربي الأول، وفي مجلس الدستور في عام 1960، وفي المجلس الأعلى للتربية الوطنية في عام 1959، والمجلس الأعلى الوطني للتخطيط الاقتصادي في عام 1964، كان أبو بكر القادري الوطني المدافع في شجاعة واستماتة عن المقدسات الوطنية، وعن الاستقلال الفكري والثقافي والحضاري للمغرب، وعن سيادة المغرب. فهو الوطني ذو النظرة الشمولية إلى العمل السياسي، وصاحب الفكر الوطني النابع من الوسط المغربي، والهادف إلى خدمة المصالح العليا للشعب المغربي.

ولقد عشت ـ ولا أزال أعيش ـ مع هذه القيم والمبادئ والمثل، ومع هذا الجهاد الوطني العربي الإسلامي الواعي والرشيد ممثلاً في أبي بكر القادري، وحيًّا نابضًا بالحياة في سلوكه وفعله وحركته الدائبة التي كانت لا تفتر.

لقد رأيت فيه المناضل صلبَ الإرادة الذي لا يلين ولا يضعف أمام الأزمات والصعاب، يعمل في الحقل السياسي من منطلق الإيمان بالرسالة، والوطنية عنده إيمانٌ وصدق وإخلاصٌ، والسياسة في اعتقاده جهادٌ من أجل الوطن والأمة، ودفاعٌ عن السيادة في مدلولها العام، ونضالٌ في سبيل الحق والعدل والحرية والعزة والكرامة. فهو الوطني المسلم، والسياسي المؤمن، وهو المجاهد ـ بحق ـ من أجل إقرار المبادئ والقيم والمثل العليا التي تستمد جذورها من الإسلام، ومن العروبة، ومن الأصالة المغربية. العمل السياسي عنده عقيدة وجهاد، وصدق وإخلاص، وإيمان ويقين، يضبط ذلك كلَّه ميزانٌ يضع المصالح العليا للوطن فوق كل اعتبار، وهي المصالح العليا للإسلام وللعروبة، فلا فرق بين الوطنية وبين الإسلام، ولا وطنية عنده إلا بالإسلام.

ولذلك نجد الوصف الغالب على أبي بكر القادري، هو المجاهد، فهو بحق مجاهد، مخلص النية، تشده إلى الحق والعدل والحرية روابط لا تنفصم عراها أبدًا.

وهذا الضرب من الجهاد يرقى بصاحبه إلى ذروة الصدق، فهو دائم التعلق بالقيم الخالدة، وهو شديد الارتباط بالمبادئ السامية، وهو مع هذا وذاك، صاحب قضية نذر لها حياته كلها، حتى صارت هي شغله الشاغل.

ولقد وضحت لي مزايا هذه الشخصية الفذة في مناسبات عديدة، فقد استمعت إليه طويلاً يحدثني عن المعارك السياسية الشاقة التي خاضها في عهد الحماية، وروى لي قصص البطولة والصبر والصمود التي عاشها في السجون، فلقد دخل السجن في الثلاثينيات من القرن الماضي ثلاث مرات، ودخل السجن في الأربعينيات لمدة سنتين اثنتين، ثم دخل السجن في الخمسينيات في الفترة التي تمتد من شهر ديسمبر عام 1952 إلى عام 1955، وكانت هذه المرحلة الأخيرة، أصعب المراحل على الإطلاق، لأنه كان يقف فيها وجهًا لوجه أمام أخطر ما يمكن أن يواجه السجين، وهو الحكم بالإعدام، لولا أن الله لطف بعبده، فتيسرت الأسباب أمام الانفراج، بالتمهيد لعودة ملك البلاد من المنفى إلى أرض الوطن.

ولقد روى أبو بكر القادري طرفًا من هذه القصص البطولية في مذكراته المنشورة، وظلت ذاكرته تختزن ملاحم بالغة الروعة خرج منها قويًا عاليَ الرأس مصممًا على مواصلة الكفاح لتحقيق الأهداف الوطنية.

هذه الشخصية التي جُبلت على الكفاح، وصُقلت بالنضال، وطُبعت بطابع الجهاد المستمر المتواصل، تعلو في سمتها وسلوكها، على ما تواضعت عليه الناس في حياتها الخاصة تحت تأثير العوامل الذاتية الموضوعية. فقد اصطبغت شخصية أبي بكر القادري دائمًا بصبغة التميّز والتفرُّد بين أبناء جيله، والأجيال التي جاءت بعده ؛ فهو رجل ذو خلق رفيع، ونفس سامية، يترفع دومًا

عن سفاسف الأمور، ولا يترك للصغائر أن تهيمن على تفكيره. إنه رجل المهام الكبرى، والاهتمامات العظيمة، والمواقف المشرفة، يفكر التفكير الموضوعي الرشيد، ويتعامل مع الحياة والناس بروح الأخوة والمشاركة والاندماج في السراء والضراء، لا يحقد ولا يحنق، ولا يبعد به الغرور أو الاعتداد الزائد بالنفس عن سواء السبيل، ولا يعرف قلبه العداوة والبغضاء، حليم، مسامح، كريم، يسع قلبه الناس أجمعين. وهي سجايا خلقية وخصال نفسية، ما وجدت لها شبيهًا، فيما عرفت من الرجال. ولذلك وجدتني دائمًا أقف أمام أبي بكر القادري مبهورًا بما حباه الله به من دماثة خلق، وسماحة نفس، وطيبة قلب، فلا أملك إلا أن أزداد له تقديرًا وإكبارًا. وأحسبني صادقًا إذا قلت إن كل من عرف أبا بكر القادري، أيًا كانت درجة هذه المعرفة، يشاطرني هذا الإحساس.

إن أبا بكر القادري الذي عرفته، وعرفه أهله ومواطنوه وأصدقاؤه وزملاؤه في العالم العربي الإسلامي، وفي أنحاء أخرى من العالم، هو المجاهد الصادق المخلص أوفى وأعمق ما يكون الصدق في الجهاد والإخلاص له.

يقسم أبو بكر القادري العملَ السياسيَّ قسمين، لكل منهما سماته ومميزاته، وشروطه وأدواته ؛ هما العمل السياسي الميداني الحركي، والعمل السياسي الفكري النظري، وكان يرى أنه قضى شطرًا كبيرًا من حياته السياسية مناضلاً في الساحة الأولى، وهي ساحة العمل السياسي الميداني الحركي، من خلال الاحتكاك بطبقات الشعب، والنزول إلى الشارع، ومعايشة الواقع العملي بالاندماج فيه، والتعامل معه، والارتباط به. والحق أن الانخراط في الكفاح الوطني من زاوية ممارسة العمل السياسي الميداني، استنزف منه طاقات هائلة، وجعله يستغرق في الحياة السياسية استغراقًا كاملاً لم يدع له فرصاً للقيام بواجبات كثيرة تجاه نفسه على النحو الكافي، فلم يكن يملك وقته طيلة سنوات النضال، ولم يكن يتوفر له أن يفرغ لنفسه طويلاً للتأمل، أو لإيفاء حق الذات عليه، فقد عاش المراحل الأولى من حياته، خاصة في الثلاثينيات والأربعينيات ومطلع الخمسينيات، منقطعًا إلى العراك اليومي مع الأحداث التي يفرزها

الواقع المغربي في ظل الوجود الاستعماري الذي كان يلقي بأعباء ثقيلة على كواهل المناضلين.

كانت المهمة الأساس التي صرف نفسه لها هي تكوين أفراد الشعب وتعبئة طاقات الأمة، وإعداد المناضلين. وكانت الظروف السياسية تفرض التفرغ الكامل لهذه المهمة. ولذلك نجد أبا بكر القادري مناضلاً وطنياً شديد الارتباط بالشعب، عاش مع الشعب، واقترب منه. وكان واسع الاطلاع على أموره وأحواله. وكانت الحركة الوطنية المغربية في مرحلة انطلاقتها الأولى، وفي ظل سياسة الحصار والقمع الاستعماريين، في حاجة إلى هذا النوع من النضال الذي ينهض بأعبائه رجال في مقام أبي بكر القادري.

وشبيهٌ بأبي بكر القادري هنا، عبد العزيز بن إدريس، والهاشمي الفيلالي، ومحمد غازي، وبوشتى الجامعي، الذين انصرفوا إلى الشعب يعلمونه المبادئ الأصيلة للوطنية الحق، ويعبئون طاقاته، ويبصرونه بحقوقه وواجباته تجاه الوطن والأمة، وهم الذين انخرطوا في العمل السياسي الميداني والحركي، فكانوا مثالاً للوطنية المناضلة، ولذلك نالوا النصيب الأوفر من التضحية في سبيل الوطن ومقدساته، واستحقوا تقدير الشعب دون استثناء.

لقد قامت الحركة الوطنية المغربية على أكتاف رجال مناضلين أشداء، عرفوا السياسة الواقعية والكفاح العملي، فكانوا قادة سياسيين عمليين، وأسسوا قواعد النضال الوطني في مواجهة أشرس أنواع الاستعمار في النصف الأول من هذا القرن. ويأتي أبو بكر القادري في الطليعة من هذا الرهط الكريم المشهود له بالسبق في التضحية والكفاح المرير.

ولم يكن انخراط أبي بكر القادري في العمل السياسي الميداني ليؤثر على اهتماماته الفكرية والنظرية، وعلى تضلعه من العلوم والمعارف، وعلى مواصلة التكوين والدرس والتحصيل، وإنما كان مجتهدًا غاية الاجتهاد في التفكير والتنظير، وفي التأصيل والتقعيد، وفي توسيع آفاقه الثقافية وتعميق مداركه

الفكرية، فهو العالم المفكر، والسياسي المحنك، وصاحب المبدأ الذي لا يحيد عنه، اجتمعت فيه خصلتا العمل والتنظير، وإن كانت الخصلة الأولى غلبت على حياته السياسية.

قال لي ذات يوم إن الحركة الوطنية المغربية كانت تتطلب توزيع مهام النضال، على النحو الذي يجعل فئة من القادة تولي العملَ السياسي الفكري والتنظيري اهتمامًا زائدًا، بينما تتحمل الفئة الأخرى مسؤوليات العمل السياسي الميداني الحركي. واستمعت إليه ذات مرة يقول : (إن علال الفاسي هو الوحيد الذي كان يجمع عن جدارة بين العملين في وقت واحد، لما أتاه الله من مزايا قيادية جعلت منه الزعيم القائد الذي لا يشق له غبار).

هذا الجانب في الحياة السياسية لأبي بكر القادري بالغ الأهمية في معرفة الأبعاد الحقيقية للنضال الذي خاضه. فلقد أنفق الرجل شبابه في الكفاح الوطني مع الشعب في قواعده، واضطلع في وقت مبكـر من حياته، بمسؤولية حشد جموع الشعب وتعبئته في إطار الكتلة أولاً، ثم الزاوية، والطائفة، فالحزب الوطني الذي أصبح يحمل اسم حزب الاستقلال منذ تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير عام 1944. وتخللت هذه المراحل الطويلة فترات السجن التي تعددت حتى بلغت ست مرات خلال الفترة التي تمتد من عام 1935 إلى عام 1955.

هذه الخلفية التاريخية، تلقي الضوء على الحياة السياسية الشاقة التي عاشها أبو بكر القادري. وقد استمرت سيرة الرجل مطبوعة بهذا الطابع النضالي إلى ما بعد الاستقلال. وبقيت خصلة الحركة الدائبة والنشاط الموصول صفة ملازمة له إلى أيام قليلة قبل وفاته، وإن يكن بقدر أقل وفقًا لسنة الحياة، بعد أن انصرف باهتماماته إلى العمل السياسي الفكري أساسًا، مع مطالع الستينيات، وهي المرحلة التي أسَّس فيها جمعية (شباب النهضة الإسلامية)، وأنشأ مجلة (الإيمان)، التي كانت البداية لنشاطٍ فكريٍّ ظل متدفقاً موصولاً إلى أن لقي ربه، كنت أعرف هذا النشاط، وأتابعه وأندمج فيه، وأعيش معه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

كان صرحاً فهوى

كان صرحًا شامخًا في الوطنية الصادقة فهوى. وكان صرحًا عاليًا في الكفاح الوطني من أجل تحرير المغرب واستقلاله. وكان صرحًا في الأخلاق الوطنية، وفي الثبات على العقيدة الإسلامية الاستقلالية، وفي الوفاء بالعهد، وفي الإخلاص للمبدإ، وفي الانحياز للموقف الوطني، وفي الصمود الصلب أمام الأزمات وداخل السجون وفي المنفى، وفي مواجهة العواصف السياسية التي هبت على المغرب في مراحل صعبة من تاريخه المعاصر. وكان صرحًا سامقًا في الدفاع عن قضايا الأمة العربية الإسلامية، وفي المقدمة منها قضية فلسطين التي عاش لها وكان من قادة الكفاح من أجلها طوال حياته، وكان الزعماء الفلسطينيون من الحاج أمين الحسيني إلى ياسر عرفات إلى محمود عباس إلى غيرهم، يعدونه رفيقًا لهم في النضال، وجعلوا من بيته مزارًا لهم كلما وفدوا إلى المغرب، وكلما حزب الأمر وظهر الخلاف بين زملاء السلاح الفلسطيني، وتطلب الأمر اللجوء إلى البيت الآمن، حيث يلقون الحكمة والنصيحة والمفتاح لحل ما استعصى من مشكلات تعترض طريق الكفاح الفلسطيني.

كان صرحاً لا يُطال من الإيمان والتقوى والورع والجهاد بالكلمة الصادقة، وبالموقف الثابت، وبالقرار الحكيم، وبنشر مكارم الأخلاق، وفضائل السلوك، وشمائل المعاملة بالحكمة وبالتي هي أحسن، فملك القلوب حتى أصبح علمًا على السماحة والمرونة والوسطية والاعتدال، إلا إذا مُسَّ الدين وانتهكت مقدساته، وتعرض الوطن للخطر وهددت ثوابته وخصوصياته، فإنه في هذه الحالة لا يهدأ حتى يرد للدين اعتباره، وللوطن احترامه، وللشعب استقراره.

- نشر في 2012/3/5.

كان صرحًا عالي الذرى من الثبات على العقيدة الدينية، والثبات على المبدإ الوطني، والثبات على الموقف الذي يدافع من خلاله عن دينه السمح، وعن وطنه الغالي، وعن أمته المجيدة في مشارق الأرض ومغاربها، فكان مناضلاً وطنياً لا يُجارى في نضاله، وكان مجاهدًا مخلصًا من أجل المغرب في مختلف الجبهات، منذ أن وعى خطورة الواقع الاستعماري في سنة 1930، وهو بعدُ فتى في السابعة عشرة من عمره، فبـزَّ أقرانه من طلائع الشباب في سلا، وجلهم يكبرونه سنًا، ولكنه كان يكبرهم وطنية ووفاء وإخلاصًا وحماسة واستعدادًا للبذل وللتضحية وللعطاء، كما كان يكبرهم سماحة ونفاذاً إلى القلوب وحرصًا على إصلاح ذات البين فيما بينهم، فاتخذوه زعيمًا لهم، وأسلسوا له قيادهم، فكان قطب سلا، كما كان فيما بعد أحد أقطاب الحركة الوطنية إلى أن لقي ربه.

كان صرحاً عزيز الأركان في الدفاع عن مقدسات المغرب، وفي نصرة الإسلام بالدعوة إليه من خلال المدرسة التي أنشأها لتكون قاعدة للنهضة، فكان اسمها معبرًا عنها، بحيث كان أحد رواد التعليم العربي الإسلامي في المغرب، الذي واجه التعليم الذي فرضته الدولة المستعمرة وجعلته وسيلة لتخريج جيل يرتبط بها فكريًا وجدانيًا، إلا من تمرد عليها ونجا من أحابيلها، فكان من شباب الحركة الوطنية، وهم ثلة من الوطنيين الذين كانوا بالمرصاد للسياسة الاستعمارية. كانت المدرسة التي أنشأها في مطلع الثلاثينيات نواة للمدرسة الكبرى التي غطت التراب الوطني، والتي كان من خريجها الجيل الذي تصدَّر بعد الاستقلال الساحة لتحمّل المسؤوليات، فالنهضة لم تكن مدرسة من جملة المدارس التي تأسست في عهد الحماية فحسب، ولكنها كانت عقيدة، وفكرة، ومبدأ، وتربية وطنية، والتزامًا بالخط الوطني، ودعوة إلى الوفاء والانتماء والإخلاص للدين، ثم للوطن، وللعرش. وكان مؤسس هذه المدرسة الواسعة التأثير في الشعب المغربي، هذا المجاهد المناضل الصامد الثابت الذي كان آية في سمو النفس، وعلو الهمة، وشموخ الشخصية، إلى عمق في الفهم، ورشد في الوعي، وسعة في العلم، ويسر في المعاملة، وسماحة في الخلق.

وذلكم هو الصرح الذي هوى، فاهتزت له القلوب، واهتاجت له النفوس، وذرفت الدموع، وفزعت العقول، ولم يردها إلى رشدها إلا ترديد قول الله العزيز ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾.

إنه المجاهد الفذ، المناضل الصلب، المفكر المستنير، المربي الفاضل، الوطني الحكيم، الإنسان السمح، الأستاذ أبو بكر القادري، أحد مؤسسي الحركة الوطنية، الذي كان أصغر الجيل المؤسس سنًا، ولكنه كان أحد أكابرهم فضلاً ونيلاً وتضحيةً وبلاءاً حسناً، في ساحة العمل الوطني، وداخل السجون، وأثناء اشتداد الأزمات، واكفهرار الأجواء، وسيطرة اليأس على النفوس، واختلاط الحابل بالنابل، واختلال القيم، وسقوط الهمم، وظهور بوادر الردة الوطنية والتفريط في المبادئ، بحيث كان في مثل هذه الحالات الدقيقة والحرجة، قائدًا حكيمًا، ومناضلاً شجاعًا، وداعيًا إلى وحدة الصف وإلى نبذ الفرقة، وساعيًا إلى الحفاظ على القواسم المشتركة بين رفاق الكفاح، حينما هبت الرياح الهوج التي كادت أن تقتلع جذور الحركة الوطنية، بينما كان المغرب يضع القواعد الأولى للدولة المستقلة العصرية، فكان هو صمام الأمان، سادن الوطنية وحارس مبادئها أن تنهار، والمدافع الأمين عن المصالح العليا للوطن العزيز الذي لا تستقيم أحواله ولا تستقر أموره ولا يرتقي ولا يتقدم ولا يبني مستقبله، إلا في ظل العرش الجامع للشمل، المانع للفتن، الواقي من المحن، الضامن للوحدة، والحامي للدين.

مات الأستاذ. هكذا فاجأتني زوجتي وأنا أختلي بنفسي في غرفتي أقرأ. فقمت مذعوراً إلى التلفزيون غارقاً في بحر من الدموع.

مات الأستاذ. نعم مات المجاهد الكبير والمربي الفاضل، ولكن بقيت فضائله ومكارمه ومواقفه ومؤلفاته وذريته الصالحة. بقي الأثر الذي لا يفنى ما بقيت الحياة. العمل الصالح الذي قام به نحو دينه ووطنه وأمته، ونحو أسرته الصغيرة، وأسرته الكبيرة التي هي باتساع المغرب.

رحم الله المجاهد الأستاذ الكبير أبا بكر القادري، وجزاه خيرًا عما قدمه من جليل الخدمات، ونهض به من عظيم المهمات، وقصد به خدمة أنبل الغايات، لدينه الذي هو عصمة أمره، ولوطنه الذي ناضل وضحى ودخل السجون من أجل حريته وعزته وكرامة شعبه، ولأمته الإسلامية التي دافع عن قضاياها وكان أحد مشاهير رجالاتها.

الجهاد بطعم الوطنية

لقد تمثلت في المجاهد الأستاذ أبي بكرٍ القادري خصال خلقية، وسجايا نفسية، وخلال وطنية، جعلت منه مناضلاً عزيز المثال، ومصلحًا من الطراز الرفيع، ومفكرًا ثاقب الرأي راجح العقل بعيد الرؤية، يُقرن العقيدة بالعمل، والنظرية بالممارسة، في نسق فكري هو خاصية من خصائص الشخصية الفذة التي كان يتمتع بها، والتي كانت دافعة له للعمل المتواصل، منذ أن انخرط مع إخوانه في الحركة الوطنية، وإلى أن أقعده مرض الشيخوخة الذي هدَّه هدًّا فأفقده القدرة على الحركة خلال الفترة القصيرة التي سبقت وفاته.

لقد تجمعت في هذا المناضل عناصر لم تتجمع إلا في القلة من صفوة المجاهدين المناضلين، ليس في المغرب فحسب، وإنما في العالم العربي الإسلامي، فهو طراز فريدٌ من رجال العمل الوطني، ونمطٌ نادرٌ من القيادات السياسية التي جمعت بين العمل السياسي وبين العمل الإصلاحي، بين الوطنية والنضال الوطني، وبين الأخلاق والقيم الإسلامية التي طبعت حياته. لقد كان مؤمنًا بأن السياسة بدون أخلاق مفسدة وأي مفسدة، وأن الوطنية بلا عقيدة دينية لا تخدم الأهداف الوطنية، وتفسد المجتمع ولا تصلح أوضاعه، وتضر بالوطن أكثر مما تنفع. وعاش حياته مؤمنًا بهذه العقيدة، مبشرًا بها مدافعًا عنها، مؤكدًا على وجوب أن تقترن السياسة بالأخلاق، وأن تكون الوطنية أخلاقًا، فلا تنفصل عن القيم الثابتة، وعن المبادئ السامية، وعن المثل العليا. وكان الجيل الذي ينتمي إليه يشاركه هذا الإيمانَ بضرورة الربط بين العمل الوطني والعمل الإصلاحي، بالمفهوم الشامل العميق للإصلاح القائم على

- نشر في 2012/4/6.

أساس العقيدة الإسلامية، وعلى أحكام الشريعة في غير ما تشدد، أو تزمت، أو تنطع، أو تطرف، أو جمود، أو تقليد أعمى، أو فقه غير رشيد، أو اجتهاد يفتقد الشروط الواجبة ليكون تجديدًا في فهم الدين، وفي فقه مقاصد الشرع، وفي العمل وفق التعاليم الدينية. وهو الجيل الرائد الذي فهم الدين الفهم الصحيح، ووعي ضرورة العمل السياسي الوعيَ الرشيد، ولم يكن يفرق بين السياسة وبين الدين، وبين الوطنية وبين الأخلاق. وبهذه العقيدة ثبت هذا الجيل الذي ينتمي إليه المجاهد أبو بكر القادري، وصمد، وأبلى في الكفاح الوطني ذلك البلاء الحسن الذي وقف به في وجه دهاقنة الاستعمار الذين كانوا يسعون لقطع صلة المغرب بدينه، وبلغته، وبهويته، وبخصوصياته الروحية والثقافية والحضارية، هدفه من وراء ذلك استمرار ارتباط المغرب بفرنسا المحتلة المغتصبة للشرعية الوطنية المغربية.

في سنة 1930، كان أبو بكر القادري فتى يافعًا يتقد حماسة في السابعة عشرة من عمره. ولكنه استطاع أن يفرض شخصيته، وأن يتصدَّر جماعة الشباب السلاوي، وأن يتخذ من المسجد الأعظم في المدينة، منطلقًا لحركة اللطيف التي ابتدأت في سلا، وليس في غيرها من المدن، وهي الحركة التي حسب لها المستعمر الحساب، وأدرك خطورتها عليه، فبادر إلى منعها، لما رأى فيها من رفض وطني للسياسة التي كان يعمل لتنفيذها، في تلك المرحلة الدقيقة من تاريخ المغرب. وبذلك خرجت الحركة الوطنية المغربية من المسجد، تمامًا كما خرجت الحركة الوطنية المصرية من جامع الأزهر الشريف، وخرجت الحركة الوطنية السورية من الجامع الأموي. ولكن الفرق بين الحركات الثلاث، هو أن الأولى لم تغادر المسجد، بما ينطوي عليه المسجد من معان ودلالات ورموز، وأن الأخريين ما لبثتا أن حادتا عن سبيل المسجد، فكان ما كان من فقدان الروح الإسلامية للعمل الوطني السياسي في مصر والشام، بينما حافظت الحركة الوطنية المغربية على هذه الروح التي كانت قوة الدفع في معارك المواجهة مع الاحتلال الذي كان يتستر وراء قناع خادع، هو الحماية التي لم تكن حماية،

وإنما كانت استعمارًا مستبدًا ذا نزعة صليبية، على الرغم من أن فرنسا كانت تزعم ـ ولا تزال تزعم ـ أنها تحررت من الروح الصليبية، وأن الدين لا صلة له بالسياسة التي تعتمدها الدولة الفرنسية.

هذه الخاصية الفريدة التي تميزت بها الحركة الوطنية المغربية،والتي تتمثل في بقاء الروح الإسلامية، متأججةً في العمل الوطني في جميع قنواته وبشتى الوسائل، هي أبرز ما تكون في شخصية المجاهد أبي بكر القادري الذي كان نسيج وحده في الجمع بين العمل السياسي، وبين العمل التربوي والثقافي، وبين العمل الاجتماعي، وبين العمل الإصلاحي التنويري الديني. وهو الأمر الذي يبطل بطلاناً كاملاً زعمَهم أن الحركة الإسلامية بدأت في السبعينيات من القرن الماضي. ذلك أن الحركة الوطنية المغربية الاستقلالية بدأت إسلامية، واستمرت إسلامية، ولم تفقد إسلاميتها في مرحلة من المراحل.

إن هذا الجمع النادر بين العمل في حقل السياسة الوطنية من موقع القيادة، وبين العمل في المجالات الفكرية والثقافية والدينية، لم يتمثل بالقدر الكافي، وبالوضوح الكامل، سوى في الزعيم علال الفاسي، وفي المجاهد أبي بكر القادري. وإن كان هذا لا يمنع من القول إن شخصيات أخرى من القيادات الوطنية، كان يتجلى فيها هذا النموذج، أذكر منها الشهيد عبد العزيز بن ادريس، والفقيه محمد غازي، والمجاهد الهاشمي الفيلالي، الذين كانوا من رموز النضال الوطني، وممن تجتمع فيهم السياسة والأخلاق والتشبث بالقيم الإسلامية مع العمل الإسلامي الإصلاحي التنويري.

على الصعيد العربي الإسلامي، نجد علال الفاسي وأبا بكر القادري ينفردان بشكل واضح جدًا، من بين القيادات السياسية التي تجمع بين السياسة والأخلاق والعمل الإسلامي في مجالاته التربوية والعلمية والثقافية. وتلك، في رأيي، أهم خاصية من الخصائص التي يتميز بها المجاهد أبو بكر القادري.

وتطالعنا هذه الخاصية الفريدة في الأعمال الفكرية التي خلفها المجاهد أبو بكر القادري، سواء منها مؤلفاته، أو مقالاته وخطبه السياسية في المناسبات، أو أحاديثه الدينية، أو المقابلات الصحافية التي أجريت معه ونشرت في الصحف والمجلات. ففي مؤلفاته العديدة التي صدر أولها في مطلع السبعينيات من القرن الماضي، نجد المفكر المصلح المجدّد، والعالم المتنوّر العارف بحقائق الدين ومقاصد الشريعة، والمثقف الموسوعي الذي يمت بأقوى صلة إلى جيل المثقفين الموسوعيين.

هذه العناصر المتنوعة تجمعت في شخصية أبي بكر القادري، فجعلت منه نموذجًا فريدًا للمناضل الوطني الذي يضرب المثل به في قوة الشخصية، وفي القدرة على فهم الواقع، وإدراك طبيعة المعارك التي يخوضها، والاستمداد من التراث لاكتساب عناصر القوة لتطوير الحاضر ولاستشراف المستقبل، وقبل هذا وذاك، لتحرير الذات، وتحرير الوطن، وتحرير الفكر من قيود الجمود، وتحرير المجتمع المغربي وتطويره والنهوض به. ونحن نجد في مذكرات الأستاذ القادري صورًا مشرقة لهذه الجوانب والعناصر كلها.

لقد نشر الأستاذ أبو بكر القادري مذكراته لتكون شهادته على عصره. وتعكس هذه المذكرات روح المؤلف، وطبيعته السمحة، ورؤيته إلى الأحداث، وتعليقه عليها، وتحليله لها، ورؤيته إلى المعارك الوطنية التي كان أحد قادتها المبرزين. وتقع (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**) في ستة أجزاء، صدرت في ثمانية كتب بلغت صفحاتها 2370 صفحة. وقد صدر الجزء الأول من المذكرات عام 1992م، وصدر الجزء السادس في عام 2007م. وكان المؤلف ينوي كتابة الجزء السابع، وقد كتب منه فعلاً عدة صفحات في دفتر مدرسي من خمسين صفحة، يتحدث فيه عن حياته الشخصية، بدءًا من النشأة وأجواء الأسرة التي عاش فيها. وهو الأمر الذي كان قد فاته أن يعرض له بالتفصيل في الأجزاء التي صدرت من المذكرات.

ويمكن اعتبار كتاب (**قصة النهضة**) امتدادًا لمذكراته، ففيه يتحدث عن جهوده في تأسيس مدرسة النهضة، وعن حياته في مجال التعليم التي استغرقت زهاء نصف قرن. كما يمكن اعتبار كتاب (**أبو بكر القادري : سيرة ذاتية في حوارات صحافية**) جزءًا من هذه المذكرات. كما أن كتابه عن الموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال، الذي صدر بعنوان (**رجال عرفتهم**)، وهو يحمل رقم (12) ضمن السلسلة التي أصدرها بهذا العنوان، يعدُّ هو الآخر امتدادًا للمذكرات، لأنه ترجم فيه لنفسه باعتباره من الموقعين على العريضة التاريخية. كما حرص على الإشارة إلى العلاقة التي كانت تجمعه مع الموقعين على الوثيقة التاريخية في التراجم التي كتبها لهم. ويمكن القول إن التراجم التي كتبها المؤلف وصدرت ضمن سلسلة رجال عرفتهم، هي الأخرى امتداد لسيرته الذاتية، فهو يتحدث عن أكثر من مائة وخمسين شخصية من المغرب ومن العالم العربي الإسلامي، من خلال معرفته بهم، فيعرض لجوانب من حياته، وللأحداث التي عاشها.

ويمكن القول أيضاً، إن المجاهد أبا بكر القادري نشر مذكراته في صفحات تفوق حجماً ما احتوته جميع المذكرات الأخرى التي صدرت في المغرب لشخصيات وطنية لها بلاؤها الحسن في معترك النضال.

والحق أن شهادة الأستاذ أبي بكر القادري على العصر، هي ذات قيمة تاريخية، بحيث تعد أهم مصدر من مصادر تاريخ المغرب المعاصر.

وعلى الرغم من أنه كتب عن شخصيات كثيرة، ومنها الزعيم علال الفاسي، فإنه كان يتمنى لو أتيحت له الظروف ليكتب بالتفصيل عن علاقته به في كتاب مستقل، وهي علاقة كانت حميمية للغاية، ولكنها انطوت على جوانب مهمة لم تسجل حتى الآن.

وتتجلى شخصية المجاهد أبي بكر القادري في مذكراته وفي كتبه جميعًا. فقد كتب عن سعيد حجي رفيق الطفولة والشباب، الذي فتح أمامه المجال للعمل

في الصحافة في ريعان شبابه، إذ كان سعيد من رواد الصحافة المغربية، وكتب عن محمد اليزيدي الذي كان يعدّه أخـًا أكبر له. بل يمكن القول إنه تأثر به في بداية حياته الوطنية، وكان يقدره تقديرًا خاصًا، ويشيد به، ويثني عليه، بل يمكن أن أقول إن اليزيدي الذي كان يعرف بأنه ضمير حزب الاستقلال، هو أقرب إلى أبي بكر القادري من غيره من إخوانه قادة الحركة الوطنية. كما كتب عن الحاج أحمد بلافريج الذي كان يقدره تقديرًا خاصًا، ويشيد بحكمته وبهدوئه وبدبلوماسيته وبنضاله الوطني. وكتب عن الحاج عمر بن عبد الجليل، الذي كان دائم الثناء عليه معجبًا به، مثنيًا على أخلاقه، مقدراً لجهوده ولمواقفه. وكان كتابه عن جلالة الملك محمد الخامس، الذي قدم فيه ملامح من حياته وصورًا من جهاده، آية في الوفاء وفي المحبة والإخلاص وفي التعلق بالعرش.

أما كتبه الأربعة التي يسميها الدكتور طه عبد الرحمان **(السبيليات)**، لأنها تحمل عنواناً متكرراً هو **(في سبيل)** والتي هي : في سبيل بعث إسلامي، وفي سبيل وعي إسلامي، وفي سبيل مجتمع إسلامي، وفي سبيل وحدة إسلامية، فهي شهادة على علو منزلته في ساحة الفكر الإسلامي، وفي دراسة القضايا الكبرى التي يشتغل بها المفكرون الإسلاميون. وهذه الكتب، إلى جانب كتابه عن **(المجتمع الإسلامي في مواجهة التحديات الحضارية الحديثة)**، وكتابه **(دفاعًا عن المرأة المسلمة)** وكتابه **(مبادئ وأصول في التشريع الإسلامي)**، تشكل مدرسة في الفكر الإسلامي المغربي ذات خصائص تنفرد بها. والقارئ لهذه الكتب، وكتب أخرى ومقالات ودراسات لم تجمع بعد، يجد نفسه أمام مفكر ومصلح، ومجاهد بالفكر وبالكلمة وبالموقف، من أجل التجديد والإصلاح والتغيير وإعادة البناء ؛ بناء الذات أولاً، ثم بناء المجتمع، وبناء الدولة الوطنية على قواعد من الشريعة الإسلامية، مع الانفتاح الواعي والمسؤول، على آفاق العصر. فلم يكن القادري من دعاة الانغلاق، كما لم يكن من دعاة الاندفاع وراء الغرب في كل أمر من الأمور.

إن المجاهد أبا بكر القادري شخصية نكاد أن لا نجد لها مثيلاً في العالم العربي الإسلامي، وفي المغرب أيضًا، فهذا المناضل الوطني القوي الشجاع، الذي تحمل المسؤولية في الحركة الوطنية، منذ كتلة العمل الوطني، ثم في قيادة الحزب الوطني، وفي قيادة حزب الاستقلال، عضوًا في المجلس الأعلى للحزب، ومفتشاً عاماً للحزب، ورئيسًا للمؤتمر العام للحزب في الدار البيضاء سنة 1960، وهو المؤتمر التاريخي الذي كان بمثابة ميلاد جديد للحزب، وعضوًا في اللجنة التنفيذية، ثم عضوًا في مجلس الرئاسة، هذا المناضل الوطني كان يجمع بين النضال السياسي وبين النضال الفكري والثقافي، فأسس جمعية شباب النهضة الإسلامية، وأصدر مجلة **(الإيمان)** وجريدة **(الرسالة)**، وكتب وألف وحاضر، وطاف العالم حاملاً رسالة الإسلام والمغرب، وكان مناضلاً فلسطينياً بكل ما في الكلمة من معنى، كما كان عضوًا في المكتب التنفيذي لمؤتمر العالم الإسلامي الذي كان يرأسه الحاج أمين الحسيني، وعضوًا في الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية، كما كان كاتبًا عامًا للجمعية المغربية لمساندة الشعب الفلسطيني لمدة عشرين عاماً وأحد مؤسسيها.

وهكذا يكون المجاهد أبو بكر القادري قائدًا وطنيًا، ومناضلاً عربياً، وقطباً من أقطاب العمل الإسلامي المشترك على صعيد المنظمات غير الحكومية.

إنها شخصية فذة، بالمعنى الدقيق للكلمة الذي يدل على المزايا الفريدة التي كان يتمتع بها المجاهد أبو بكر القادري، الذي كان عنوانًا للجهاد بطعم الوطنية.

أبو بكر القادري
ضمير حزب الاستقلال

على الرغم من أن قادة الحركة الوطنية المغربية ينتمون جميعهم إلى مدرسة واحدة من حيث المصدر والهدف، ومن حيث العقيدة الدينية والفلسفة السياسية ومنهج العمل الوطني، فإن ثمة تنوعًا في إطار الوحدة، يغني الحركة الاستقلالية إغناءًا ظاهرًا، ويُكسبها المناعة والحصانة والقوة الذاتية، ويمكنها من امتلاك القدرة على مغالبة الأزمات ومواجهة التحديات وتحمّل أعباء النضال الشاق الذي كان القاسم المشترك بين جميع القيادات الوطنية الرائدة دون استثناء.

وهذا التنوع في الفهم وفي الفكر الذي هو مصدر من مصادر القوة، يعود إلى الطبيعة الشخصية لكل مناضل وطني، وإلى النشأة، وإلى البيئة، وإلى مصادر التكوين الأولي، وإلى الملكات الذاتية والقدرات الذهنية والنفسية، وإلى الظروف الخاصة التي لها تأثيرها في الحياة العملية، على المستوى الخاص في الحدود الضيقة، وعلى المستوى العام في حدود الحركة الوطنية التي هي البوتقة التي ينصهر فيها الجميع.

ويترتب على هذا التنوّع الخلاق في الفهم وفي الفكر، تعدّدٌ في الرؤية لا في الرأي، يؤسّس لاتجاهاتٍ تتقاطع ولا تتعارض، وتتداخل فيما بينها، لتلتقي حول الهدف الاستراتيجي والموقف التكتيكي في الوقت نفسه. فهذا التنوّع في الفكر وفي الفهم وفي التصوّر، ليس هو من قبيل الاختلاف في الفكرة وفي الرأي والموقف والقرار، ولكنه إغناء للحركة، وتقوية للنضال، وتعزيز لوحدة

– نشر في 2012/4/17.

الصف، وتحصين للعمل الوطني ضد الانحراف عن الجادة أو الضعف أو التخاذل، في شكل الاستبداد الفكري والهيمنة السياسية والانفراد بالرأي.

في سنة 1937، قرّر قادة كتلة العمل الوطني أن يجتمعوا في فاس لتأسيس أول حزب سياسي في منطقة الحماية الفرنسية، بعد أن تأسس حزب الإصلاح الوطني في تطوان في ديسمبر سنة 1936 بزعامة عبد الخالق الطريس. كان قادة الحركة الوطنية في تلك الفترة، على قلب رجل واحد. ولكن سرعان ما دبَّ الخلاف الحادّ عند الوصول إلى اختيار رئيس الحزب المزمع إنشاؤه. وكان هناك إصرار من الوطني المناضل محمد بلحسن الوزاني، على أن تكون رئاسة الحزب من نصيبه، ولم يرض بالأمانة العامة للحزب حين اختير الزعيم علال الفاسي رئيسًا للحزب. وقد ترتب على هذا الموقف الفكري والسياسي (والنفسي أيضًا) من الوزاني، أن انشطرت كتلة العمل الوطني إلى حزبين ؛ الحزب الوطني برئاسة علال الفاسي، والحركة القومية برئاسة محمد بلحسن الوزاني. واختار كل حزب طريقه في الحياة السياسية الوطنية.

وإذا كان جميع قادة كتلة العمل الوطني، باستثناء الوزاني، قد انحازوا إلى علال الفاسي واختاروه رئيسًا للحزب الوطني، فإن التنوّع في الفكر والثقافة والطبائع الشخصية الذي كان يسود هذه المجموعة من الشباب الوطني المتحمس والمتوثب، كان قائمًا في الواقع، وإن لم يبد على السطح. فلم تكن طبيعة علال من طينة أحمد بلافريج على سبيل المثال، ولم تكن طبيعة الهاشمي الفيلالي من طبيعة محمد اليزيدي، ولا كانت طبيعة عبد العزيز ابن إدريس من طبيعة محمد غازي. ولذلك كانت الخلافات وتباين وجهات النظر تقع داخل قيادة الحزب الوطني، ولكنها خلافات كانت تنتهي دائمًا إلى الرأي الواحد، والموقف الواحد، والقرار الواحد، وتصبّ في مصلحة الحزب وتحافظ على المصلحة العليا للوطن. وكانت شخصية الزعيم علال الفاسي القوية النافذة المشعة المؤثرة، تهيمن على الجميع، فينصاع لها الكل، لا عن إذعان

واستسلام، ولكن عن اقتناع وتفهم وقبول، وعن تقدير عميق لزعامة علال التي كان ينفرد بها بين أقرانه، فيعود الانسجام والتناغم إلى المجموعة القيادية. ولعل هذا التنوع في الفهم وفي الفكر وفي الخلفيات الثقافية والبيئية، كان هو مصدر القوة في تقوية الحـزب الوطني أولاً، ثم حزب الاستقلال، وفي الحفاظ على تماسكه وتراص صفوفه وانخراطه في النضال السياسي وسط العواصف والتحديات والمؤامرات التي كانت تحاك ضد الحركة الوطنية. فالاختلاف في الرأي بادئ الأمر، وتمحيص هذا الاختلاف بالحوار والنقاش وبروح الاحترام المتبادل، ظاهرة صحية في كل الأحوال، وهي مظهر من مظاهر الديمقراطية التي لا تعرفها الأحزاب الشمولية ذات الرأي الواحد المفروض على الجميع وغير القابل للنقاش. وتلك هي الآفة التي تنخر في جسم الأحزاب الشمولية التي تهيمن عليها النزعة الديكتاتورية.

وعلى الرغم من أن الزعيم علال الفاسي كان قطب الرحى والدينامو المحرك للحركة الوطنية، ولذلك اختير رئيسًا للحزب الوطني وزعيمًا له، كما اختير رئيسًا لحزب الاستقلال وزعيمًا له عند الإعلان عن تأسيسه في الحادي عشر من يناير سنة 1944، وهو بعـدُ في منفاه السحيق، فإن لقب (ضمير الحزب) كان من نصيب المناضل الوطني محمد اليزيدي، ولم يحمله في حياته مناضل استقلالي غيره. وفي ذلك دلالة قوية على وجود التنوّع في صفوف قيادة الحزب. فضمير الحزب يكون بالمفرد لا بالجمع. وكان اليزيدي قمة من قمم النضال الوطني في حزب الاستقلال تضحية وعطاءًا وصمودًا ودفاعًا عن مبادئ الحزب، تجمعت فيه خصال وسجايا ومزايا أكسبته شخصيته الفريدة.

ومن المعلوم أن المجاهد أبا بكر القادري كان أقرب، ومن نواح كثيرة، إلى المناضل الوطني محمد اليزيدي منه إلى سواه. وقد تحدث إليَّ، رحمه الله، مرات عديدة، عن صلته الأولى باليزيدي الذي كان يزوره في بيته في حي بوقرون في الرباط مرة في الأسبوع. كما كان يزور الشيخ محمد المكي الناصري

في مطلع الثلاثينيات، قبل تأسيس كتلة العمل الوطني. لكن صلته باليزيدي كانت أقوى وأمتن من صلته بالناصري، حيث كان، كما قال لي، يجد نفسه عند اليزيدي، مع فارق السن بينهما.

وأستطيع أن أقول واثقًا، إن تأثير محمد اليزيدي في أبي بكر القادري كان هو الأقوى، حتى وإن كان هو لم يصرح بذلك في مذكراته (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**)، ولا في الكتاب الذي أصدَره عن اليزيدي بعنوان (**المجاهد محمد اليزيدي ضمير حزب الاستقلال ورجل الصدق والوفاء والوطنية**)، وإن كان يبدي دائمًا تقديره العميق لليزيدي في جميع المناسبات. وعنوان هذا الكتاب الذي صدر ضمن سلسلة (**رجال عرفتهم**) سنة 1999، يعبر تمامًا وبدقة متناهية، عن شخصية المؤلف، فلو استبدلنا بمحمد اليزيدي أبا بكر القادري في العنوان، لكان الكتاب ناطقًا شاهدًا على المؤلف نفسه الذي تجمعت فيه فضائل الصدق ومكارم الوفاء ومحاسن الوطنية.

ولقد استوضحته مرارًا حول هذا الموضوع، فلم يكن يزيد على القول إن بوشعيب (اللقب الذي عرف به المناضل محمد اليزيدي) كان هو أول من اتصل به من رجال الحركة الوطنية وكانت تربطه به صلات حميمية. ولكنني أجرؤ الآن على القول إن المجاهد أبا بكر القادري كان معجبًا بالمناضل الكبير محمد اليزيدي شديد الإعجاب، ومنجذبًا إليه بقوة، ومقدرًا له عميق التقدير، بما لا يضاهيه في حلول هذه المكانة من نفسه، أحد من رفاقه في الكفاح، وهم كثر. ولذلك فإن القيادي الاستقلالي الذي حمل لقب (ضمير حزب الاستقلال) بعد وفاة محمد اليزيدي، هو المجاهد أبو بكر القادري. وهو لقب يستحقه عن جدارة، وهو أقرب الألقاب التي حملها المجاهد القادري إلى طبيعته، وإلى مكانته، وإلى وزنه في الحزب، وإلى الدور الكبير الذي قام به (لا أقول لعبه) في الحياة السياسية والفكرية والثقافية والتعليمية في بلادنا.

وإذا كان الضمير الوطني هو رمزٌ لقوة الفكر، ولشدة البلاء في الدفاع عن الفكر الوطني، ولعمق الإخلاص والتفاني في النضال، ولصفاء النفس، وصفاء الولاء للوطن، وصفاء الانتماء إلى مقدساته وثوابته، فإن هذه الخصال السامية والخلال الراقية والمميزات المتفردة، هي جماع الشخصية الفذة التي كان يتمتع بها المجاهد أبو بكر القادري الذي إذا وصف بأنه ضمير حزب الاستقلال، فإن هذا الوصف ينطبق عليه تمامًا، ويعبر عن خصوصياته التي ينفرد بها داخل قيادة الحزب الذي كان أحد أركانه الراسخة ومن مؤسسيه الرواد ومن بناة الحركة الوطنية وقادتها الشجعان.

ولأنه كان ضمير حزب الاستقلال بحق، فإنه كان في طليعة الجبهة المناضلة المدافعة عن قيم حزب الاستقلال، والمحافظة على مبادئه، والحريصة أشدّ الحرص على قوة الحزب وتماسك بنيانه ووحدة صفوفه وامتداد إشعاعه واستمرار أدائه للمهام الوطنية السامية التي يضطلع بها في الدفاع عن المصالح العليا للوطن، وفي التفاني في خدمة الشعب وحماية مقدساته وخصوصياته الروحية والثقافية والحضارية وثوابته المبدئية الراسخة، حفاظًا على مكانة الحزب في الساحة الوطنية فاعلاً وبانياً ومؤثراً ومؤتمناً على الفكر الوطني في نقائه وفي ارتباطه بقضايا الوطن وبانشغالات المواطنين.

ومن أجل أن يكون ضمير حزب الاستقلال ضميرًا حيًا ويقظًا ومتحفزًا دائمًا للدفاع عن المبادئ الوطنية، وللحفاظ على القيم الإسلامية، ولصون التراث الوطني الاستقلالي، فقد ظل المجاهد أبو بكر القادري في الطليعة الصامدة الحارسة لقيم الحزب المؤتمنة على التراث النضالي الوطني الاستقلالي إلى أيامه الأخيرة، يتبوأ مكانته المتميزة مع رفاقه في مجلس رئاسة الحزب، يعيش بعقله وقلبه مع الحزب، ويتألم مع نفسه لما تتناهى إليه أحياناً أنباء عن بعض من التصرفات والسلوكيات والمواقف التي لا تعبر عن روح الحزب، ويعمل جهده لرأب الصدع ولمّ الشمل للحفاظ على الجبهة الداخلية للحزب

سليمة قوية متراصة، يوجّه وينصح، ويصحح ويقوّم، وينير السبل أمام الأسرة الاستقلالية، ويفتح قلبه وعقله للأجيال الجديدة منها، فقد كان أبًا عطوفًا للاستقلاليين والاستقلاليات، وكان أخًا كبيرًا لجميع المناضلين والمناضلات من جميع الأجيال، وكان زميلاً في الكفاح ورفيقًا على الدرب لإخوانه قادة الحزب، لا يضن بالنصيحة إذا رأى أن النصح واجب وضرورة تقتضيها المصلحة العليا للحزب وللوطن، كما لا يتردد في النقد، إذا رأى خروجًا عن الخط واتباعًا للهوى وابتعادًا عن مبادئ الحزب وانحرافًا عن السلوك الوطني السليم. فكان مثله، في الساحة الوطنية، كمثل ربان السفينة الماهر الذي يحفظ توازنها ويقودها بالحكمة البالغة والخبرة الواسعة، وسط الأنواء العاصفة والتيارات الهادرة، وينحو بها نحو بر الأمان، وينأى بها دائمًا عن المخاطر المتولدة عن التحديات. وتلك هي، وأيم الحق، خصال القائد الذي يتمثل فيه الضميرُ الوطنيُّ بكل تجلياته وإشراقاته، الذي هو ضمير حزب الاستقلال الطليعة النضالية الوطنية في هذه البلاد بدون أدنى شك.

ولم يكن المجاهد أبو بكر القادري ضمير حزب الاستقلال فحسب، بل كان ضمير الأسرة الوطنية بأجمعها، يحظى بمكانة رفيعة في الساحة الوطنية، يجتمع على تقدير مواقفه واحترام شخصيته والإشادة بأستاذيته وريادته وبتضحياته، الوطنيون المغاربة دون استثناء، من جميع الأجيال، ومن كل المشارب الفكرية والثقافية والتيارات السياسية والمذهبية. وتلك منزلة سامية ارتقى إليها الأستاذ القادري بأخلاقه الرفيعة، وبتضحياته الغالية، وبمواقفه الحكيمة، وبما كان يتمتع به من قدرات وملكات ومواهب واستعدادات للانفتاح على الجميع والاعتراف بالحق في الاختلاف، فكان موضع محبّة وتقدير من كل الأطياف والأطراف. وهي خاصية فريدة جعلت من المجاهد القادري الأبَ الوطنيَّ ذا القلب الكبير الذي يسع الجميع، والرمزَ المضيء المشع في الحياة الوطنية المغربية. وكل ذلك لأنه كان ضمير حزب الاستقلال.

لقد كان حفل التكريم الذي أقامه حزب الاستقلال للمجاهد أبي بكر القادري، في قاعة باحنيني بوزارة الثقافة سنة 2007، مناسبة تجلت فيها مظاهر الاحترام العميق الذي تكنه لهذا الوطني الكبير القيادات السياسية من مختلف الأحزاب الوطنية، عبَّر خلالها بعض القادة الوطنيين الذين تحدثوا في هذا الحفل، عن اعتزازهم بتلقي مبادئ الوطنية على يد المجاهد القادري، في امتنان عظيم هو صورة مشرقة للمكانة الرفيعة التي يتبوأها في العقول والقلوب والضمائر. وهي حالة عديمة النظير عزيزة المثال في عالم السياسة، خصوصًا في هذه المرحلة[1].

(1) راجع هذه الشهادات في كتاب (أبو بكر القادري : الرائد الوطني: شهادات من حفل تكريم حزب الاستقلال له يوم 21 أبريل 2007). مطبعة الرسالة، الرباط.

أبو بكر القادري في ثلاثة مصادر تترجم له

كتب الأستاذ أبو بكر القادري ترجمة لنفسه في الجزء الثاني من كتابه (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**)، الذي صدر في سنة 1997 ضمن التراجم التي كتبها لإخوانه من الموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال (1944/1/11). ثم أعاد نشر تلك التراجم في كتاب خاص تحت عنوان (**رجال عرفتهم : الموقعون على وثيقة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير 1944**)، صدر ضمن سلسلة (**رجال عرفتهم**) الجزء الثاني عشر، عن مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء سنة 2001. ويقع الكتاب في 161 صفحة من القطع المتوسط.

وفيما يلي نص هذه الترجمة التي تكتسب الأهمية البالغة بحكم أنها فريدة من نوعها وبقلم صاحبها :

«هل من حق صاحب المذكرات أن يترجم لنفسه ؟. سؤال طرحته على نفسي قبل أن أخط هذه الكلمات، وكان جوابي الحاسم أنه لابد من بطاقة تعريف لي حتى لا أغمط حقي، ولا أكون من جملة الموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال.

ازددت بمدينة سلا في شهر أبريل سنة 1913. تابعت دراستي الأولية بمدرسة حرة، ثم على كبار بعض العلماء بسلا وغيرها. تعاطيت مهنة التعليم وفتحت مدرسة سنة 1933 بقيت تؤدي مهمتها التعليمية تحت إدارتي ثماني وأربعين سنة، وتخليت عنها للدولة[1]. ولا زالت تؤدي رسالتها التعليمية لحد الآن، والحمد لله.

---

(1) لعل المناسبة تسمح لي بأن أوضح ما يلي : لقد كان المقابل المادي الذي تقاضاه الأستاذ أبو بكر القادري من وزارة التربية لتفويته ثانوية النهضة إلى الدولة، هو المبلغ الذي بنى به (المسجد المحمدي) في حي =

انغمرت في العمل الوطني وأنا في سن السابعة عشرة من عمري، أي سنة 1930. ولدى تقديم مطالب الشعب المغربي في دجنبر 1934، كنت من العشرة الذين قدموها لجلالة الملك محمد الخامس.

سجنت لأول مرة عام 1936 من أجل فتح مدرسة حرة. ثم سجنت في السنة نفسها من أجل المطالبة بالحريات العامة. ثم سجنت للمرة الثالثة في 27 أكتوبر 1937 بعدما ألقيت خطابًا بالمسجد الأعظم بسلا، تلته مظاهرتان صاخبتان. ودامت هذه السجنة عاماً كاملاً.

وبعد توقيعي لوثيقة المطالبة بالاستقلال في حادي عشر يناير 1944 وما تبعها من مظاهرات، ألقي علي القبض مع إخواني يوم 30 يناير 1944، فتنقلت بين ثلاثة سجون : سجن الرباط، سجن العدير قرب الجديدة، سجن الدار البيضاء. ودامت هذه السجنة نحو العامين.

بعد أحداث ثامن دجنبر 1952، نفيت إلى قرية (تافينكولت) بسوس، ثم قدمت إلى المحكمة العسكرية بتهمة الإخلال بالأمن العام الداخلي والخارجي، فمكثت مدة بسجن الدار البيضاء بعد مرحلة التعذيب بكوميسارية الدار البيضاء، ثم نقلت إلى السجن العام بمدينة القنيطرة في انتظار المحاكمة بعد الاستنطاقات التي دامت أيامًا، ثم قدر الله أن يخيب مقصد الاستعماريين، فوقع سراحي مع إخواني بعدما مكثنا في السجن نحوًا من العامين أيضًا.

بعد الاستقلال بقيت مشتغلاً بالتعليم بالإضافة إلى نشاطي داخل حزبي كعضو في اللجنة التنفيذية، ومفتش عام للحزب، ثم عضو في مجلس الرئاسة للحزب.

= السلام بسلا مع زيادات أضافها إليه من ماله الخاص. وقد دشن هذا المسجد الكبير الذي ألحقت به عدة مرافق ثقافية وصحية واجتماعية، في حفل رسمي حضره صاحب السمو الملكي ولي العهد سيدي محمد (جلالة الملك محمد السادس) بتعليمات من جلالة الملك الحسن الثاني. وظل رحمه الله يتفقد هذا المسجد بين الحين والآخر، إلى أن سلمه لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مع المرافق المحيطة به.

أنشأت مع بعض إخواني جمعية شباب النهضة الإسلامية، وكان لها نشاط ملحوظ ومحمود في الدعوة الإسلامية، وتوضيح معالم الفكر الإسلامي، سواء عن طريق الصحافة، وفي طليعتها مجلة (**الإيمان**) التي دام إصدارها تحت إشرافي ست عشر سنة، وكذلك جريدة (**الرسالة**) التي دام صدورها نحوًا من سبع سنوات.

ساهمت في عدة مؤتمرات إسلامية وسياسية في الداخل والخارج، وكنت عضوًا في المجلس التنفيذي لمؤتمر العالم الإسلامي (كراتشي)، وفي المؤتمر الإسلامي الإفريقي الأسيوي (باندونغ) في أندونيسيا، وفي المؤتمر الإسلامي الإفريقي (دكار)، وفي المؤتمر الإسلامي (طوكيو) سنة 1982، وفي المؤتمر الإسلامي (بسيريلانكا)، وغير ذلك من المؤتمرات، ومنها المؤتمر الأول لتأسيس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة التي كنت أتابع نشاطها عن كثب وأشارك في اجتماعاتها. وكنت من المؤسسين الأولين للجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني، وبقيت مشرفًا على تسييرها كأمين عام لها عشرين سنة كاملة.

انتخبت أمينًا عامًا مساعدًا للجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية لدى تأسيسها في بيروت في سنة 1972.

شاركت في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد بقبرص التركية وعينت قنصلاً شرفيًا لدولة قبرص التركية.

عينني صاحب الجلالة محمد الخامس عضوًا في المجلس الوطني الاستشاري سنة 1956.

ثم عينني في مجلس الدستور، وفي المجلس الأعلى للتربية الوطنية، وفي مجلس التخطيط والإنعاش (سابقًا).

عينني صاحب الجلالة الحسن الثاني عضوًا في مجلس الوصاية.

عينني صاحب الجلالة الحسن الثاني عضوًا في أكاديمية المملكة المغربية عام 1981.

نلت جائزة الاستحقاق الفكري من يد صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير سيدي محمد (جلالة الملك محمد السادس)، بقرار من جلالة الملك الحسن الثاني.

كتبت ونشرت عدة مؤلفات في مواضيع مختلف، ومن جملتها هاته المذكرات.

أرجو الله أن يتقبل عملي ويجعله خالصًا لوجهه الكريم».

في وثيقة إدارية من أرشيف وزارة التربية الوطنية :

تعريف بحياة أبي بكر القادري في الميدان التربوي والحقل الوطني

أطلعني الأستاذ أبو بكر القادري ذات يوم، على صورة من وثيقة إدارية كانت مودعة ضمن ملفه الوظيفي في وزارة التربية الوطنية، لعلها كتبت في مطلع السبعينيات من القرن الماضي، لأن فيها الإشارة إلى توليه الكتابة العامة للجمعية المغربية لمساندة كفاح الشعب الفلسطيني (1972-1992). وأنشر فيما يلي هذه الوثيقة الإدارية التي تحتفظ بها الوزارة المذكورة، والتي تلقي الضوء على جوانب من حياة المجاهد أبي بكر القادري :

«**الاسم والنسب** : أبو بكر القادري

والـــــــده(*) : أحمد ابن الشريف

مسقــط الرأس : مدينة سـلا

تاريــخ الازدياد : سنة 1332هـ/1913

(*) والدته يامنة الغالي الـمريني.

نسبه : البيت القادري من العترة النبوية الشريفة، وهو من أشهر البيوتات في مدينة سلا علمًا ونسبًا وصلاحًا وتقوى، وينحدر من نسل سيدنا الحسن ابن علي ابن أبي طالب. وهذا البيت المجيد يتصل نسبه الأدنى إلى العلامة الصوفي الجليل والقطب الرباني العظيم عبد القادر الكيلاني دفين بغداد. وقد أنجب هذا البيت عدة علماء مشاركين وفطاحل فقهاء متبحرين.

طلبه للعلم : نشأ في حجر والده على التقوى والتربية الصالحة، ودرج كما درج إخوته الكبار قبله وأترابه من أبناء وطنه، على الاهتمام بالعلوم الإسلامية الصرفة وما يتصل بها من فروع المعرفة، فالتحق في سن مبكرة بالكتاب ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة وإتقان حفظ القرآن الكريم.

وعندما أنشئت أول مدرسة عربية نظامية بسلا، انتقل إليها لمزاولة مبادئ الدراسة وحفظ المتون والإلمام بالنحو وقواعد الحساب. ولما أنهى دراسته الابتدائية بهذه المدرسة، انصرف إلى حضور مجالس دروس جلة علماء تلك الحقبة، وصار يتردد على حلقات فطاحل الفقهاء وأفاضلهم في ذلك الإبان.

شيوخه : تلمذ على نفر من العلماء والفقهاء أمثال العلامة الصوفي شيخ الجماعة سيدي أحمد الجريري، والعلامة المفتي النحرير سيدي أحمد ابن عبد النبي، والعلامة السلفي سيدي محمد ابن العربي العلوي، والحافظ الحجة الشيخ أبو شعيب الدكالي، والعلامة المرحوم مولاي الشريف (اسماً) القادري(2)، والعلامة سيدي زين العابدين بنعبود، والعلامة علال الفاسي(3)، والعلامة الميقاتي الطيب بن الشليح، والعلامة السيد محمد البارودي، والعلامة القاضي السيد عبد القادر الوزاني، وغيرهم.

ولما حصل على كثير من المعرفة، ونال قسطًا وافرًا من العلم وحصل على إجازات من أكابر العلماء، أدرك أنه من مكنته عقد حلقات للتدريس بأحد مساجد سلا ليعلم أبناء جلدته تعليمًا نافعًا ويوجههم توجيهًا لائقًا ويربيهم

(2) شقيقه الأكبر، توفي سنة 1937.

(3) راجعت الأستاذ أبا بكر القادري في شأن تتلمذه على الزعيم علال الفاسي، فذكر أنه كان يحضر الدروس التي كان يلقيها الأستاذ الفاسي في بعض مساجد سلا عند زياراته للمدينة في مطلع الثلاثينيات.

تربية صالحة، وما كاد شباب سلا يطرق سمعه ما عزم عليه حتى هرعوا إلى الالتفاف حوله، ليغترفوا من معلوماته ويستفيدوا من تعاليمه، ويسلكوا مسالك النجاح على يده. ولما اتسع نطاق هذه الدروس، وكثرت وفود التلاميذ عليه ورأى إقبالهم يتزايد يومًا عن يوم، عنَّ له أن يحقق فكرة طالما خامرت فكره وهو لا يزال يافعًا، وهي فتح مدرسة عربية إسلامية منظمة ليربي فيها النشء تربية إسلامية ويحبب إليه لغته ويعرفه ببلاده حيث ضعف التعليم بالمدارس الرسمية من حيث المحافظة على اللغة العربية. وفي سنة 1933 دشن افتتاحها وأطلق عليها اسم مدرسة النهضة، فأصبحت هذه المدرسة كعبة الطلبة واكتظت بهم حتى أصبحت تضم بين جدرانها كل أبناء سلا، سواء الذين يزاولون دراستهم بصفة مستمرة، أو الذين يلتحقون بها في أوقات الفراغ وأثناء العطل. وصارت تنظم هذه المدرسة دروسًا صيفية فاتحة أبوابها لجميع تلاميذ المدارس الرسمية الذين يتقاطرون عليها من كل حدب وصوب ويقضون سبع ساعات يوميًا طوال عطلة الصيف، وكان برنامجها يشتمل على كل المواد العربية والإسلامية والعلمية، ابتدائية وثانوية في آن واحد.

هذا وقد كانت السلطة إذ ذاك، تتنكر لها وتنظر إليها كأنها ثكنة، وأصبحت جادة على إغلاقها وعرقلة سيرها، فطالما أوعزت إلى بعض الأذناب من المسؤولين لخلق دسائس وأسباب تؤدي إلى غلقها. وعندما رأت السلطة الفرنسية أن الإقبال على هذا التعليم بهذه المدرسة يتزايد، استصدرت قرارًا بمنع دراسة العلوم الرياضية والتاريخ واقتصار التعليم على المواد القرآنية والدينية ومبادئ العربية، لكن إدارة المدرسة لم تمتثل لهذه التصرفات الجائرة وتحدَّت هذه التعليمات الزائفة. وأخيرًا فرضت رقابة على المدرسة وبرامجها محاولة عرقلة سيرها، وتقليص نشاطها، فبعثت بعدلين يشهدان بأنه تلقى الأمر بالامتناع. وبالرغم عن هذا كله، فإن المدرسة سارت على خطتها التي فتحت من أجلها، ونفذت برامجها كما سطرته إدارتها، فاتخذت السلطة إجراءات تعسفية عندما رأت نجاح المدرسة والإقبال عليها، وصارت تعرقل الفروع التي

تقرر فتحها. وقد أدى الحال بالسلطة إلى أن سجنت أبا بكر القادري مدة، لأنه أصر على فتح فرع للمدرسة. ونظرًا لأن أفق التلاميذ كان قابلاً للتزود من العلوم، فلقد رأى من واجبه أن يتبع دراسة تلاميذه في التعليم الثانوي والعالي. وهكذا أشرف بنفسه على توجيه بعثات إلى القرويين أولاً، ثم إلى الشرق العَربي وأوربا ثانيًا، ونظم لهم مساعدات رتيبة، وكان يتتبع دراستهم ويرعى شؤونهم التعليمية.

وهكذا فإن قدماء هذه المدرسة هم من خيرة الطلبة ويعدون بالآلاف والكثرة، منهم من أسندت إليهم مناصب عليا في بلادهم، ومنهم من أنيطت بهم مسؤوليات جلى في أطر الدولة، حتى أصبح لهم شأن وأي شأن في المجتمع وفي معترك الحياة. وبأعماله هذه نشأ على يده جيل، ويعد بحق أستاذ هذا الجيل بسلا ومربيه.

أعماله في الحقل الوطني : كان من مؤسسي الحركة الوطنية السلفية الأولين وأحد أعضاء الجماعة السرية التي كانت تدعى «الطائفة»، وهي الجماعة التي نشأت عنها الجماعات الوطنية المختلفة. كما كان من الأعضاء البارزين والمقاومين لسياسة الظهير البربري.

وكان من الأعضاء البارزين في كتلة العمل الوطني، ومن العشرة المحررين لمطالب الشعب المغربي والموقعين عليها سنة 1934.

وكان من مؤسسي الحزب الوطني الذي خلف الكتلة بعد أن حلتها السلطة الغاشمة سنة 1936.

وكان من مؤسسي حزب الاستقلال سنة 1944، ومن الموقعين على الوثيقة التاريخية التي قدمت يوم 11 يناير سنة 1944 إلى جلالة الملك محمد الخامس والإقامة العامة للمطالبة بالاستقلال، ومن اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، وعضو المجلس الأعلى به.

وفي سنة 1956 عينه صاحب الجلالة محمد الخامس عضوًا من أعضاء المجلس الوطني الاستشاري.

وفي سنة 1960 عينه صاحب الجلالة الملك محمد الخامس أيضاً عضوًا بمجلس الدستور.

وكان عضوًا في لجنة الشؤون الثقافية والاجتماعية، وعضوًا في اللجنة الملكية لإصلاح التعليم بالمغرب، وعضوًا في اللجنة الوطنية في مؤتمر اليونسكو.

واستمر نشاطه الوطني والسياسي من الظهير البربري إلى تاريخه، فلم يثنه عن عقيدته تهديد، ولم يزحزحه عن مبدئه إرهاب أو وعيد.

أعماله في الحقل التربوي والديني : في سنة 1932 أسس جمعية المحافظة على القرآن الكريم التي كانت تضم شباب سلا والنخبة الممتازة من شباب الرباط.

وفي سنة 1933 أسس مدرسة «النهضة» التي أصبحت لها عدة فروع ويزيد تلامذتها الآن على الألف وخمسمائة تلميذ.

وفي سنة 1942 أسس جمعية الشباب المسلم. وفي سنة 1946 فتح «معهد الأميرة عائشة للبنات»، وفي السنة نفسها فتح فرعًا للنهضة بحومة الصف بسلا. وفي سنة 1947 شرع في بناء ثانوية «النهضة». وفي سنة 1960 أسس فرعًا للنهضة بسيدي إيدر. وفي سنة 1962 أسس جمعية شباب النهضة الإسلامية التي أصبحت لها فروع في مختلف المدن المغربية، وأصدر مجلة «**الإيمان**» لسان حال الجمعية، وهي مجلة ثقافية إسلامية. وفي سنة 1968 أسس مع زمرة من إخوانه الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني التي هو الآن أمينها العام.

تضحياته : في سنة 1935 اعتقل من أجل تأسيس مدرسة حرة. وفي سنة 1936 اعتقل من أجل المطالبة بالحريات العامة وما يتبعها من المطالب المستعجلة. وفي سنة 1937 تم اعتقاله على إثر القمع العام الذي وقع بالمدن من

طرف المراقبين الفرنسيين والبطش الذي ارتكب في البوادي المغربية، فحكم عليه بعامين سجنـًا قضى سنة كاملة منها بين سجن العاذر والدار البيضاء. وفي سنة 1944، على إثر المطالبة بالاستقلال والقمع، حاول الاستعمار تقديمه أمام المحكمة العسكرية، فمكث في السجن 14 شهرًا ثم أحيل على المحكمة الجنائية، فأصدرت حكمها عليه بعامين سجنـًا. وفي سنة 1952 على إثر اعتقال الزعيم النقابي التونسي فرحت حشاد، وعلى إثر المؤامرات التي كانت تدبر ضد الوطن والعرش، ألقي القبض عليه، ونفي إلى صحراء سوس، ثم أحيل على المحكمة العسكرية بالدار البيضاء، ودام استنطاقه بمركز الشرطة بالدار البيضاء بالمعارف التي قضى فيها مدة تزيد على عشرة أيام دون غطاء ولا وطاء ولا طعام سوى قطعة خبز يابسة في اليوم مع كأس من الماء.

ثم استمر البحث الجنائي أزيد من أسبوع آخر متواصل لدى قاضي البحث للمحكمة العسكرية، وعند انتهائه، زج به في السجن بالبيضاء، ثم نقل إلى سجن القنيطرة. وكان مهددًا هو وأصدقاؤه بالإعدام، ولم يطلق سراحهم إلا حينما بدأت الأزمة تنفرج ثم تحررت البلاد واستقلت.

وعندما اشتدت المقاومة والفداء واستفحلت الأزمة المغربية بعدما عزلت السلطة الفرنسية محمد الخامس ونفته إلى كورسيكا ثم إلى جزيرة مدغشقر، كان مع إخوانه يوجه حركة المقاومة من داخل السجن حتى أرغمت الحكومة الفرنسية على إعادة محمد الخامس إلى عرشه ومنح المغرب استقلاله.

واستمر في نشاطه طوال فترة ما بين الاستقلال حتى الآن، وكان يحرص كل الحرص فيها أن تبقى الاتجاهات الوطنية منسجمة ومتكاثفة بين العرش وقادة الشعب.

رحلاته : في سنة 1955 إثر تقرير رجوع الملك محمد الخامس إلى العرش، كان من أعضاء الوفد الذي انتدبه حزب الاستقلال لاستقبال جلالته بفرنسا هناك والاتصال به وتنسيق الأعمال معه.

وفي سنة 1957 عينه جلالة الملك محمد الخامس في الوفد الذي مثل المغرب حينذاك في موسم الحج لتلك السنة.

وفي سنة 1957 انتدبته وزارة الخارجية لتمثيل المغرب في الاحتفال الذي أقامه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب في مصر احتفاء بذكرى شاعر النيل حافظ إبراهيم بمدينة الإسكندرية، فعمل على ربط علاقات طيبة لصالح الشعبين الشقيقين.

وفي سنة 1958 كان على رأس الوفد الذي ذهب إلى تونس للاتصال بالزعيم الحبيب بورقيبة وصحبه، للعمل على إبراز فكرة وحدة المغرب العربي إلى الوجود، ولتهييئ مؤتمر المغرب العربي بطنجة وأخذ نظرهم فيه.

وفي سنة 1959 عين عضوًا في المجلس الأعلى للتربية الوطنية.

وفي سنة 1961 انتدب ليمثل المغرب في المهرجان الذي أقيم ببغداد تخليدًا لذكرى مرور 900 سنة على وفاة الفيلسوف العربي الكندي.

وفي سنة 1962 انتدبته وزارة التربية الوطنية لتمثيل المغرب في الاحتفال بذكرى الثورة الوطنية بالصين الشعبية.

وفي سنة 1964 توجه إلى المملكة العربية السعودية لحضور اجتماع المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي نيابة عن الزعيم المرحوم سيدي علال الفاسي.

التنويهات التي حظي بها : في سنة 1947 أقام السيد أبو بكر القادري حفلة لوضع الحجر الأساس لـ «مدرسة النهضة» تحت رئاسة ولي العهد إذ ذاك الأمير مولاي الحسن (جلالة الملك الحسن الثاني) الذي ألقى خطبة نوه فيها بالمجهودات التي يبذلها مدير هذه المدارس، جاء فيها : «نعم، لقد وجد ملك المغرب سدد الله خطاه، من بين رعاياه وفي كل ناحية من مملكته، رجالاً عاملين مخلصين أقسموا على أن يوالوا الجهود ويتابعها العمل لكي يكونوا جديرين بثقة ملكنا المفدى. ومن بين هؤلاء هذا الرجل النشيط الذي تعددت خدماته

لمغربنا العزيز، فبعدما قضى سنين عدة في تثقيف البنين والبنات، أنشأ في السنة الماضية معهدًا جليلاً يحمل اسم للاعائشة صانها الله. ولقد أحرزت هذه المدرسة النجاح الكامل، ولكن مديرها الحازم أبى إلا أن يضيف مشروعًا آخر إلى أعماله المحمودة».

ترجمة لأبي بكر القادري
في موسوعة (أعلام المغرب العربي)

نشر الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، مؤرخ المملكة في الجزء الأول من موسوعته (**أعلام المغرب العربي**)، الصادر عن المطبعة الملكية في سنة 1979، ترجمة وافية للأستاذ أبي بكر القادري غطت ثلاث صفحات(277-279).

وفيما يلي النص الكامل لهذه الترجمة :

«**أبو بكر بن أحمد القادري** : عالم وسياسي، وواحد من مؤسسي الحركة الوطنية الاستقلالية بالمغرب الأقصى. ينتمي إلى الأسرة القادرية الشريفة سليلة الشيخ الشهير عبد القادر الجيلاني دفين بغداد. ولد بسلا في جمادى الأولى من عام 1332هـ (أبريل سنة 1914م)[4]. ونشأ نشأة دينية كان لها بها ـ لما شبَّ وأدرك ـ أكبر الأثر في توجيهه السياسي وثباته على المبدإ واستماتته في سبيل ما يؤمن به. أخذ القرآن الكريم عن أخيه مولاي الشريف (اسمًا) القادري. ولما حذقه لازم مجالس العلم التي كانت تعمر بها مساجد سلا ويتولى فيها شيوخ محترمون تلقين العلوم الإسلامية والعربية لطلبة العلم من الشبان والكهول، فكان يستوعب ما يسمع لما أوتي من ثقوب ذهن وشدة ذكاء، الشيء الذي أطلق ألسنة شيوخه بالثناء عليه والإشادة به، فمنحوه إجازات علمية وسموه فيها بأفضل النعوت وأحسن السمات. ومن شيوخها البارزين الفقيه أحمد ابن عبد النبي وهو عمدته، والفقيه أحمد الجريري،

---

(4) الصحيح 1913

والفقيه الحاج محمد البارودي، والفقيه محمد بن العربي العلوي، والفقيه الطيب ابن الشيخ، والفقيه المربي الصوفي زين العابدين ابن عبود. ويُعدُّ الأستاذ المرحوم علال الفاسي من جملة من أخذ عنهم علوم العربية والدين من الأساتيذ. ولما بذرت البذور الأولى للحركة السياسية الوطنية، وجدت في نفسه التربة الطيبة التي أعرقت فيها وأنبتت وأتت أكلها في الحين. وكذلك نجده يسهم في تأسيس الحركة الوطنية وعمره لا يتجاوز الرابعة عشرة، ويتحمل حظه من المسؤولية في مقاومة السياسة البربرية التي أصدرت بها المندوبية السامية الفرنسية ظهير 16 ماي سنة 1930، مع النخبة الطيبة والصفوة الصفية من الشبان والكهول والشيوخ الذين تصدوا لإحباط الأعمال الاستعمارية بسلا والرباط وفاس وغيرها من مدن المغرب وقراه. وفي سنة 1353هـ (1934) كان عاشر عشرة حضّروا مطالب الشعب المغربي وحرروها، ورابع أربعة رفعوها إلى جلالة الملك المرحوم محمد الخامس، بينما تولى الآخرون تقديمها إلى المندوب السامي الفرنسي المقيم بالرباط ووزارة الخارجية بباريس.

ومنذ ذلك الحين ارتبطت حياته بكل الأحداث السياسية والثقافية الناتجة عن جهاد وجهود كتلة العمل الوطني، ثم الحزب الوطني، ثم حزب الاستقلال. فلم يكن القمع الاستعماري ينصبّ على الوطنيين المغاربة وقادتهم البارزين دون أن يكون الأستاذ أبو بكر القادري في المقدمة، سنة 1935 وسنة 1936 وسنة 1937 وسنة 1944 وسنة 1952، ونظم الخلايا السرية عندما كان العمل العلني محظورًا، وشارك في تحضير وثيقة المطالبة بالاستقلال ووقعها. وقاد المظاهرات الصاخبة كلما دعا الوطنيين داع للقيام بها احتجاجًا على السياسة الاستعمارية، وأدار من داخل السجون ومن خارجها مع رفقائه الاستقلاليين، الحركة الوطنية ووجّهها بطرق استعصى على دهاقنة الاستعمار فك رموزها وحل ألغازها، إلى أن أذنت شمس الحماية الفرنسية بالأفول وعهدها بالزوال برجوع الملك المرحوم محمد الخامس من منفاه بجزيرة مدكسكر إلى فرنسا، فكان مع أعضاء وفد حزب الاستقلال الذين استقبلوه في

مطار نيس صباح يوم الإثنين 14 ربيع الأول عام 1375هـ (31 أكتوبر سنة 1955م). ومنذ ذلك التاريخ دأب على بناء استقلال وطنه بنفس العزم والحماس اللذين عمل بهما مع العاملين لنسف صرح الاستعمار وتقويض أركانه : معلمًا مربيًا كمدير لمدرسة النهضة التي أخرجت نخبة واعية من أطر المغرب الجديد، ومدافعًا عن حقوق الأمة ومصالحها كعضو في المجلس الوطني الاستشاري، ومنظمًا لأجهزة الدولة وموجهًا لسياستها كعضو في مجلس الدستور ومجلس التخطيط والمجلس الأعلى للتربية الوطنية واللجان العليا للتعليم، وصحفيًا متشبثًا بالفكرة الإسلامية كمدير لمجلة (**الإيمان**) وعضو في رابطة علماء المغرب، وكاتبًا مفكرًا يغذي الصحف والمجلات داخل المغرب وخارجه بين الفينة والأخرى بمقالات تمتاز بدقة الملاحظة وبساطة الأسلوب، ومناضلا سياسيًا كعضو في اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، وعضو مسؤول في عدد من المنظمات الإسلامية والعربية والإفريقية.

وقد ألف عددًا من الكتب ظهر منها لحد الآن (1979) كتابه (**في سبيل بعث إسلامي**)، وكتابه (**في سبيل وعي إسلامي**)، وكتابه عن المناضل الوطني محمد حصار».

انتهت الترجمة المركزة الوافية التي كتبها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في موسوعته (**أعلام المغرب العربي**). وقد حرصت على نشر نصها الكامل لقيمتها وأهميتها، كما حرصت على نشر الخطاب المهمّ الذي ألقاه الدكتور عبد الهادي التازي في الترحيب بالأستاذ أبي بكر القادري عضواً في أكاديمية المملكة المغربية، مع الردّ المسهب الجامع الشامل للمرحَّب به على هذا الخطاب الوافي الذي يلقي الضوء على جوانب من حياة المجاهد أبي بكر القادري. والحق أن الدكتور عبد الهادي التازي لم يقصر في التعريف بزميله في الأكاديمية. وكنت قد نشرت هذا الخطاب في مجلة (**دعوة الحق**) التي كنت أرأس تحريرها، في العدد الصادر بعد شهر من تاريخ الترحيب بالأستاذ القادري في أكاديمية المملكة المغربية.

خطاب الترحيب بأبي بكر القادري في أكاديمية المملكة المغربية(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المدير،
السادة الزملاء، حضرات السادة،

منذ أواسط القرن الخامس الهجري، ودع غلام بيته في إقليم جيلان جنوب بحر قزوين (إيران اليوم)، ليقصد طلب العلم ببغداد التي كانت تعيش بقية أيام خلافة الإمام القائم بأمر الله.

ولم يلبث هذا الغلام أن أصبح هو الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي طبقت شهرته الآفاق، وكان من أقوى الجسور التي شدت المغرب إلى المشرق عبر التاريخ.

وإن معظم الذين تحدثوا عن الامتداد الجغرافي للآثار الكيلانية وخاصة الأسرة القادرية التي تنتسب إلى الشيخ، معظمهم يذكر أن الأشراف القادريين انتقلوا إلى المغرب عبر الديار الأندلسية منذ سنة 1492.

لقد عُرف المغرب من قديم باهتمامه بأمر النسب، ومن ثمة وجدنا الدول المتعاقبة على الحكم، تشجع الناس على التمسك بأصولها والحفاظ على أنسابها.

(*) ألقاه الدكتور عبد الهادي التازي عضو أكاديمية المملكة المغربية، في الدورة الثانية للأكاديمية لسنة 1981 المنعقدة خلال الفترة من 27 إلى 30 نوفمبر 1981. وفي الصفحة 171 يطالع القارئ ردّ الأستاذ أبي بكر القادري على خطاب الترحيب.

وإن ملك المغرب السلطان أبا الحسن المريني دفين شالة عام 752هـ/1351م، هو الذي بعث قاضي عاصمته وسفيره في مهماته الشيخ ابراهيم التازي، بعثه لسائر أطراف المملكة ليشرف على إحصاء الناس واختبار أنسابهم.

وقد واصل السلطان أبو سالم (ت 762هـ/1361م) عمل والده أبي الحسن، فراعى وسائل المنتسبين وتعهدهم بالعناية والمؤآنسة، بل وأحدث من أجل هذا وظيفة في الدولة كانت هي منصب النقيب الذي يشرف على ضبط العائلات، ويراقب الوضعيات الاجتماعية. وكان المتولى لذلك في عهده أبو عبد الله محمد ابن عمران، فحقق بذلك المغرب أول مبادرة في التاريخ لوضع سجلات الحالة المدنية[1].

نحن أيها السادة الزملاء، أيها السادة المحترمون، على يقين كل اليقين أن النزعة الصوفية التي تميز بها الشيخ عبد القادر، عرفت طريقها إلى الديار المغربية قبل دخول الأشراف إلى المغرب بكثير.

وهكذا فبصرف النظر عما رواه بعض النسابة من صلات بين الشيخ عبد القادر في بغداد بمعاصره الشيخ علي بن أبي الذئاب في فاس، وأذن الأول لأربعين من تلامذته أن يزوروا الثاني في مدينته، بصرف النظر عن ذلك نجد أحد ملوك بني مرين - وهو السلطان أبو سالم - يزود جامعة القرويين في فاس بزاوية منذ عام 762هـ/1361م، عرفت بخلوة مولاي عبد القادر، وحملت في الوثائق والرسوم اسم الأسبوع على نحو «الأسبوع» الذي شيد في جامع الشيخ الجيلاني للمريدين الذي يختمون القرآن كل أسبوع.

وإذا كان الرحالة المغربي ابن بطوطة لم يتحدث في رحلته عن زاوية الشيخ عبد القادر بمناسبة زيارته لبغداد، مع ما نعرفه عنه من حرص على قصد مثل تلك الأماكن، فإنما ذلك لما كانت تعيشه زاوية الشيخ من محنة في أعقاب

(1) الجزنائي : «جني زهرة الآس» المطبعة الملكية - الرباط 1387هـ/1967م. ص 29-30.

هجمة التتر الذين خربوا ونهبوا رباطه الذي كان يعرف باسم (برج العجمى) كما كان يقول المؤرخون.

ولقد توزع الأبناء العشرة للشيخ في شتى جهات العالم الإسلامي، نتيجة لما أصابهم من قمع واضطهاد، فإن هجرة الأدمغة لم تكن وليدة هذه الأزمان فحسب، ولكنها عرفت منذ القدم.

ومن ثمة وجدنا أن المغرب يحتضن من أولئك الأشراف القادريين فصيلتين اثنتين على نحو ما كان منه بالأمس مع أسر عريقة أخرى :

الفصيلة الأولى حفدة سيدي ابراهيم بن الشيخ عبد القادر، وقد انتقلوا إلى الكوفة كمرحلة أولى في الطريق إلى غرناطة قبل أن يلتجئوا إلى مدينة فاس أواخر القرن التاسع الهجري قبيل سقوط غرناطة عام 897هـ/1492م.

وقد كان القادم الأول على العاصمة العلمية من هؤلاء : سيدي محمد الحفيد الحادي عشر للشيخ عبد القادر.

أما الفصيلة الثانية فهم حفدة سيدي عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر.

وقد ظهر من هؤلاء في الوثائق المغربية اسم سيدي أحمد بن يوسف الحفيد الثاني عشر للشيخ الجيلاني، والذي تفرع عنه ولده سيدي عبد الله جد الشرفاء القادريين المستقرين في الرباط، كما تفرع عنه ولده سيدي عبد القادر وسيدي علي اللذان استقرا أخيراً في مدينة سلا، بعد أن قضى بعض بنيهم ردحاً من الزمان في الصحراء المغربية.

ومن أولاد هؤلاء وأولئك تولدت أسر كثيرة، وظهرت أعلام بارزة في التاريخ، سواء على الصعيد العالمي والسلوكي أو النضالي والسياسي، وقد ترجم لمعظمهم سواء في المجاميع المغربية أو الموسوعات العالمية.

وكان من هؤلاء سيدي عبد السلام القادري الذي عرف بتآليفه وبحوثه المفيدة، وهو الذي هنأ السلطان مولاي اسماعيل بتحريره لمدن المعمورة وطنجة والعرائش، بقصيدة شعرية يخاطب فيها العاهل المذكور بقوله :

فسل عامري (معمورة) عن فتوحه
وسل طنجة من قبل فتح العرائش
لقد كان ديناً فتحُها فانقضى به
كذلك فباقي الأرض من كل هامش

وكان من هؤلاء أحمد بن عبد القادر ابن علي (ت 1133هـ) الذي رحل للمشرق وأقام بمصر حيث أخذ الطريقة القادرية عن شيخها السيد علي بن بدر الدين القادري. قبل أن يقوم بنفس العمل الشيخ الطاهر بن عبد السلام القادري (ت 1142هـ) الذي أخذ الطريقة عن شيخها بالحرمين الشريفين عبد الرحمن بن أحمد القادري.

وإلى جانب أمثال هؤلاء، هناك رجال دولة خدموا المخزن بما قدموه من الأعمال. ويذكر من هؤلاء سيدي عبد القادر الجيلاني الإسحامي الذي رافق الركب الأميري عام 1143 إلى ديار المشرق. كما نذكر منهم سيدي محمد القادري الذي عهد له السلطان سيدي محمد ابن عبد الله عام 1192هـ/1778م بتسوية العلاقات بين المغرب وبين جمهورية دوبروفنيك في أعقاب تجاهل هذه الأخيرة للقوانين الدولية الجاري بها العمل في الملاحة البحرية.

ومن هنا، فإننا لا نستغرب توفر أفراد هذه الأسرة الجليلة على عدد من الظهائر السلطانية والمراسيم الملكية التي تقضي بتوقيرهم واحترامهم، حيث وجدنا أنهم منذ أيام المنصور الذهبي، يحظون بضروب التكريم والتبجيل[2]، ووجدنا السلطان مولاي اسماعيل يصدر بدوره ظهيراً بتاريخ 25 رجب عام

(2) القادري : «الدر السَني في بعض مَن في فاس من أهل النسب الحسني» (مخطوط) ص 85.

1130 يتضمن حصانتهم في شخص نقيبهم سيدي عبد القادر ابن حمد بن يوسف. كما وجدنا السلطان مولاي عبد الله ابن اسماعيل يصدر أواسط ربيع الثاني عام 1153، ظهيراً بإسناد نظارة جميع أوقاف الزوايا القادرية بالمملكة المغربية للشريف مولاي علي بن أحمد بن يوسف.

ومن هنا أخذ الملوك يجددون ظهائر أجدادهم بالنسبة للأشراف القادريين، حيث يتوفر الأرشيف الوطني على عشرات المراسيم الملكية التي تضفي على الشرفاء القادريين صفات الرضى، سواء من السلطان سيدي محمد بن عبد الله، أو مولاي عبد الرحمن، أو سيدي محمد بن عبد الرحمن، أو السلطان مولاي الحسن الأول، سواء في ذلك الأشراف المقيمون بفاس أو مكناس أو سلا والرباط أو الجديدة ومراكش وآسفي أو طنجة وتطوان وشفشاون.

وفي معظم سجلات الوقف، نجد أن هناك نصيباً من المال موقوف على المؤسسات القادرية. وهكذا نذكر أن في فاس وحدها تسعة وعشرين عقاراً في أهم موقع بالعاصمة، يرجع ريعها لسير الزاوية القادرية.

ومن ثمة لا نستغرب الصلات المنتظمة بين القادرية في المغرب وبينهم في بغداد، بالرغم من أن هؤلاء ينحدرون من سيدي عبد العزيز بن الشيخ عبد القادر.

أيها السادة الزملاء،

هذه صفحات من تاريخ يتصل تمام الصلة بالأسرة القادرية التي ينتمي إليها الزميل العزيز السيد أبو بكر القادري، وأنه بالرغم من أننا لا نرضى أن نعيش تحت عبء الماضي، لكنه لا مندوحة لنا من أن نبصر الغد بعيون الأمس سيما والأستاذ القادري جزء بارز من ذلك الأمس.

حياة حافلة بالعطاء في شتى الحقول : فهو حاضر في الحقل السياسي، حاضر في الحقل الثقافي، حاضر في الحقل الاجتماعي، على مختلف المستويات : على المستوى الإقليمي والمستوى الوطني والمستوى الدولي، فكنا نجده في كل الميادين بحسه ومعناه.

كانت ظروف نشأته في منتهى الدقة بالنسبة لتاريخ المغرب السياسي، وكذلك فقد كان السيد بوبكر هدفاً لامتحان وطني عسير، ولكنه كان في كل المناسبات مثال الشاب الوفي لملكه ولوطنه ولدينه منذ أوائل الثلاثينات عندما شاهدناه يحضر المهرجان الخطابي الذي أقيم بفاس إحياء لذكرى أمير الشعراء أحمد شوقي (رجب 1351هـ/نونبر 1932) ولم يكن غريباً علينا أن نجد اسم السيد بوبكر القادري ضمن أسماء الوفد الذي رفع (مطالب الشعب المغربي) عام 1353هـ/1934م إلى صاحب الجلالة الملك سيدي محمد بن يوسف رحمه الله باسم كتلة العمل الوطني.

إن علينا أن نستحضر تلك المرحلة العصيبة لنعرف مدى الروح المخلصة التي تملكت أولئك الرجال الذين أقدموا على ذلك العمل الجريء في تلك الظروف القلقة.

لقد كان هناك شعور صوفي يميز الحركة الوطنية بالمغرب عن غيرها، ويجعل منها صفاً متراصاً يقف وراء سيد البلاد. بل إنه لمن المطرف أن نجد معظم أولئك الأسماء، إن لم أقل كلها، تنتمي أصلاً إلى نوازع صوفية.

ولا بد أن نكتشف من هنا السر الذي كان يكمن وراء إطلاق اسم «الزاوية» ثم اسم «الطائفة» على الخلايا الوطنية الأولى في المغرب. إن ذلك كان يعكس الشعور بالماضي.

وكأننا أمام الزوايا التي أسلست قيادها لزعامة مولاي محمد بن الشريف أول ملوك الدولة العلوية، منذ أزيد من ثلاثة قرون ونصف القرن، عندما هددت سيادة ووحدة التراب الوطني.

انطلق ركب المغرب فبرز فيه الأستاذ أبو بكر القادري أيما تبريز. وهكذا وجدناه يقوم منذ عام 1933 بإنشاء مؤسسة شريفة لم يزل المغرب يقطف ثمارها إلى الآن، ويتعلق الأمر بمدرسة النهضة التي أنجبت عدداً كبيراً من رجال الفكر والعلم والفن ممن يعتز بهم المغرب اليوم بعد نصف قرن في تثقيف الجيل. لعمري إن هذا العمل وحده لدليل على أن القادري الحفيد يسير على نهج القادري الجد، «ولأَنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها». كما يقول الحديث الشريف.

ولم يكن غريباً علينا أن نجد اسم الأستاذ بوبكر القادري ضمن الموقعين الأولين على الوثيقة التي تطالب باستقلال المغرب عام 1944، تلك الوثيقة التي حضرت باتفاق تام وتنسيق كامل مع جلالة الملك محمد الخامس نور الله ضريحه.

لقد كانت هذه العريضة تمثل منعرجاً حاسماً في تاريخ النضال الوطني، ولذلك فإن الذين وقعوها كانوا فعلاً يتصورون أمامهم المنافي والمعتقلات، ولكنهم كانوا يرون بصادق بصيرتهم آفاق المستقبل.

ولقد تجاوز الشعور الوطني للأستاذ القادري الساحة المغربية ليشمل ساحة المغرب العربي. وهكذا وجدناه عام 1952 يتحرك ليتضامن مع تونس الشقيقة في أعقاب اغتيال ابنها البار فرحات عباس. وهنا يتعرض الأستاذ للمحاكمات العسكرية التي أسلمته للأعمال الشاقة، التي لم تكن لتصرفه عن توجيه الحركة الوطنية من داخل غياهب السجن. وقد عرف له كل ذلك جلالة الملك محمد الخامس بعد عودته إلى أرض الوطن، حيث وجدناه يعينه عضواً بالمجلس الوطني الاستشاري، وأضفى عليه من حلل التوقير والإكبار ما جعله يتصدر القوم ويتزعم الوفود.

وقد حظى بمثل هذا المركز المرموق عندما جلس جلالة الملك الحسن الثاني على عرش أجداده، فوجدنا السيد بوبكر عضواً في مجلس الدستور، وفي مجلس التخطيط، وفي المجلس الأعلى لإصلاح التعليم، ووجدناه يحظى بوسام رفيع من أوسمة الدولة تقديراً لتفانيه في نشر العلم وتوعية أبناء البلاد.

ولكن هل إن ممارسة السيد بوبكر لهذا النشاط العلمي كان يقتصر على أرض الوطن ؟. إن كل الذين خالطوا سيدي بوبكر كانوا يشعرون في مجالسه بأنه عنصر حركة فعال، وذو فائدة وجدوى، إنه بالإضافة إلى كل ذلك مخلص في قوله، واضح في تفكيره، مقروء في نواياه.

ومن ثمة حلق في الأجواء، فشهدناه يمثل المغرب في عدد من المؤتمرات العالمية، كان من بينها مؤتمرات للقمة برئاسة جلالة الملك الحسن الثاني.

وجدنا الأستاذ القادري في اسطانبول وباندونغ وفي كراتشي وفي أمريكا وفي اليابان، كما وجدناه حاضراً في عدد من الأقطار العربية بكلمته بإصغائه بإثرائه. وجدناه يتولى مسؤوليات ضخمة في طائفة من المؤسسات الدولية، مثل المؤتمر الإسلامي الإفريقي، ومؤتمر الصحافة الإسلامية، ومؤتمر العالم الإسلامي والسيرة النبوية. ووجدناه يتمتع بعضوية عشرات الجمعيات والرابطات، ويكلل عمله النضالي بترأسه للوفد الذي حمله صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني رسائل خطية عام 1974 إلى بعض ملوك ورؤساء الدول العربية حول قضية الصحراء. إن السيد بوبكر عضو المجلس الأعلى، وعضو المجلس الوطني، وعضو اللجنة المركزية، وعضو اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال.

وحتى يبرهن المغرب على تعلقه بقضيتنا الأولى : قضية فلسطين، رشح الأستاذ أبابكر القادري ليكون الأمين العام للجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني التي ما انفكت تعمل جادة مخلصة بفضل حيوية الأستاذ القادري الذي نعرف سلفاً أنه عضو في اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال.

ولكن كل هذا لا ينسينا الحديث عن الجانب العلمي والأدبي والاجتماعي والسياسي للأستاذ القادري.

لقد كان بالرغم من كل المعاكسات، يستفيد من وقته ليتفرغ للدراسة، وهكذا فبعد أخذه في مدرسة درب العلو من طالعة سلا، وكانت من المدارس الحرة الناشئة، لازم مجالس العلم بمدينة سلا، حيث تكللت جهوده بإحراز الإجازات العلمية من عدد من الشيوخ الذين كانوا يقدرون عصاميته وأريحيته ومواظبته ومثابرته.

منذ نحو من عشرين سنة، والأستاذ يطالعنا بمجلة تحمل اسم (**الإيمان**). وهكذا كنا نقرأ له كل شهر في المجلة المذكورة ما يعكس عقيدة الرجل ومثابرته ودأبه.

وإلى جانب (**الإيمان**)، طالعتنا أسبوعية لاحقة تحمل اسم (**الرسالة**)، وهي بدون شك رسالة لكل الصرحاء الذين لا يترددون في مخاطبة الناس بما لا يرضي بعض الناس.

وإلى جانب هذا، هناك مؤلفات جيدة تعالج بعض الجوانب التي تدخل في اهتماماتنا كأكاديميين. هناك كتابه : «**في سبيل وعي إسلامي**» 1397هـ/ 1977م، وكتابه «**في سبيل بعث إسلامي**» (1392هـ/1972م)، وكتابه حول «**عالمية رسالة الرسول**»، وكتابه «**الدعوة الإسلامية في افريقيا**»، وكتابه «**حول التعليم الأولي في الإسلام**»، وكتابه «**الخمرُ آفة خطيرة على المجتمع**».

هذا إلى مشروعه القيم المختار الذي يهدف به للتعريف برجالات الفكر والسياسة من أمثال الشيخ الجريري، والأستاذ سعيد حجي، والأستاذ محمد حصار.

وإذا كان لنا ما نتمناه، ونحن نسعَدُ باستقبال هذا الزميل العزيز، فهو أن يزوده الله بالعافية الدائمة، وأن يهب له من العمر ما يمكنه من تحقيق الآمال التي تعلقها عليه أكاديميتنا الفتية.

مراجعات في التراث الفكري المكتوب لأبي بكر القادري

عاش المجاهد أبو بكر القادري حياته مناضلاً حركياً نذر نفسه للعمل العام من أجل الوطن، فلم يتفرغ للكتابة والتأليف. وكل ما نشره من مؤلفات إنما يعود أولها إلى مطلع السبعينيات من القرن العشرين. وكانت كتاباته في صحف الحزب الوطني، وحزب الاستقلال، متقطعة غير منتظمة، بسبب من استغراقه في العمل الوطني الميداني الذي كان يأخذ وقته كله. ولما أسس مجلة **(الإيمان)** في سنة 1963، كان يكتب الافتتاحية، وأحيانًا ينشر مقالات وبحوثًا. وقد جمعت افتتاحيات **(الإيمان)** في كتاب صدر سنة 2002 تحت عنوان **(من وحي الإيمان)**. وأما أول ما صدر من مؤلفاته، فهو كتاب صغير بعنوان **(التعليم الأولي ونشأته في الإسلام)** صدر في سنة 1970 عن مطبعة النجاح الجديدة في الدار البيضاء، وتلاه كتاب **(محمد حصار : ترجمته وإنتاجه وما قيل في رثائه)**. الذي صدر عن مطبعة الرسالة في الرباط بدون تاريخ، ولكن المقدمة مؤرخة في سنة 1971.

لقد قضى المجاهد أبو بكر القادري العقود الأربعة الأولى من حياته وهو في قلب النضال الوطني (1930-1970) دون أن يكون مؤلفًا للكتب، وإن كان مؤلفًا للرجال وللتلاميذ وللمناضلين والمناضلات الذين خرجوا من تحت معطفه. فلما تخفف من أعباء العمل في مجال التربية والتعليم في سنة 1982، حرص على أن يعطي للقلم حقه، فعكف على نشر الكتب، فجمع أولاً بعضًا من مقالاته المنشورة في **(العلم)** و**(الإيمان)** و**(دعوة الحق)** و**(الحسنى)**، ونشرها في

- نشر في 2012/4/20.

كتب قائمة الذات، ثم ألف كتبًا أخرى جديدة، منها كتابه (**سعيد حجي : حياته ونشاطه الثقافي والسياسي وبعض إنتاجه**) الذي صدر الجزء الأول منه في سنة 1979، وصدر الجزء الثاني في سنة 1982، وكتابه (**قصة النهضة**) الذي صدر في سنة 1984، ومذكراته التي نشرت بعنوان (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**)، وصدر الجزء الأول منها سنة 1992، ويتناول المرحلة من 1930 إلى 1940، ثم صدر الجزء الثاني في سنة 1997، ويتناول المرحلة من 1941 إلى 1945، وصدر الجزء الثالث من قسمين في كتابين ؛ القسم الأول صدر في سنة 2000 وأفرده لمؤتمر طنجة لوحدة المغرب العربي المنعقد في أبريل سنة 1958، وخصص القسم الثاني الصادر في سنة 2003، لموضوع (**حزب الاستقلال وحركة الانفصال**). وصدر الجزء الرابع من هذه المذكرات في قسمين ؛ الأول بعنوان إضافي (**مع ثلاثة ملوك علويين : محمد الخامس والحسن الثاني ومحمد السادس**) وصدر في سنة 2004، والثاني يضم ثلاث مذكرات وجهها المؤلف إلى الأمين العام لحزب الاستقلال، ورسائل أخرى وجهها إلى عبد الرحيم بوعبيد، وإلى الأمين العام للمجلس العالمي للمساجد، وإلى الرئيس العام لجمعيات الشباب المسلمين في مصر، وإلى رئيس مجلس التنسيق الإسلامي الإفريقي، وإلى رئيس مجلس النواب العراقي، وإلى الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، كما يضمّ خطابًا مفتوحًا إلى المؤتمر الإسلامي لوزراء الخارجية. وصدر هذا القسم في سنة 2005. أما الجزء الخامس من المذكرات والخاص عن (**تآمر الجنرالين جوان وجيوم على العرش وصمود الملك محمد الخامس دفاعًا عن السيادة الوطنية**)، فقد صدر في سنة 2006، بينما صدر الجزء السادس والأخير في سنة 2007، ويضم قسمه الأول (لم يصدر القسم الثاني) الفصول التالية (رسائل وأحاديث حول النشاط الوطني ابتداءًا من سنة 1932، ولمحات من حياتي الوطنية في رسائلي إلى سعيد حجي، وبعد أحداث الظهير البربري (1932-1933)، واستدراكات واستطرادات تاريخية في أحاديث صحافية). ويمكن اعتبار الجزء السادس من المذكرات حواشيَ وتعليقاتٍ وإضافاتٍ إلى ما نشره منها في الجزء الأول.

والواقع أن السيرة الذاتية للمجاهد أبي بكر القادري، لا تطالعنا فقط في مذكراته بأجزائها الستة التي تقع في ثمانية كتب، وإنما تتناثر شذرات منها في كتب أخرى للمؤلف، منها (**قصة النهضة**)، والكتب التي نشرها عن رحلاته إلى الشرق والغرب، وكتاب (**أبو بكر القادري : سيرة ذاتية في حوارات صحافية**) الصادر في سنة 2001، والذي نشر حلقات في جريدة (**الأحداث المغربية**) خلال شهر رمضان سنة 2000، حاوره فيها الصحافي عبد السلام بنعيسى. كما يضم كتاب (**أبو بكر القادري : دراسات وشهادات**) الصادر في سنة 1994، لمحات من سيرة المؤلف. ويشتمل هذا الكتاب الذي أشرفت الدكتورة نجاة المريني على إعداد للنشر، الدراسات والكلمات التي ألقيت في اليوم الدراسي الذي نظم بمناسبة صدور الجزء الأول من (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**). وكذلك نطالع في سلسلة الكتب التي نشرها المؤلف تحت عنوان (**رجال عرفتهم في المغرب والمشرق**)، وخاصة كتبه عن سعيد حجي ومحمد اليزيدي والحاج أحمد بلافريج والحاج عمر بنعبد الجليل وقاسم الزهيري ومحمد الفاسي، صورًا من حياته. أما الكتاب الجامع (**رسائل أبوية من والد إلى أولاده**) الصادر في سنة 2004 في 573 صفحة من القطع الكبير، فهو مصدرٌ غنيٌّ بالغ الأهمية من مصادر السيرة الذاتية للمؤلف.

ويلقي الكتاب الذي أصدره الأستاذ أبو بكر القادري في سنة 1985 عن (**العلامة المفتي أحمد الجريري شيخ الجماعة لمدينة سلا : 1277-1353هـ : حياته وفتاواه**)، الأضواء الساطعة على مرحلة التكوين الأولى التي مرّ بها. فهو يقول في عبارات مؤثرة من مقدمته لهذا الكتاب الذي يحمل رقم (2) ضمن سلسلة (**رجال عرفتهم في المغرب والمشرق**) : «ولئن كان هذا العمل ذا خصوصية باعتباره يتناول رجلاً واحداً من الرجال العظام الأفذاذ الذين عرفتهم، **فلأن العلامة أحمد الجريري له في نفسي مكانة خاصة باعتباره أستاذي وشيخي تتلمذت عليه، وأخذت عنه، وأفدت منه، وتأثرت به، وعشت معه مرحلة التكوين المبكر الذي طبع حياتي بطابع أعتز به، وأعتبره، ولله الحمد، ركيزة من ركائز حياتي كلها**».

وكان رحمه الله، حريصًا على تأليف كتاب عن جده القطب الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني. فكان يتحين الفرصة لذلك، إلى أن أتيحت له الفرصة فعكف على تصنيفه خلال سنة كاملة، حيث أصدره في سنة 1999 تحت عنوان **(الشيخ عبد القادر الجيلاني ودوره في الدعوة الإسلامية في أنحاء العالمين : الآسيوي والإفريقي)**. ولما فرغ من تأليفه، شعر بارتياح كبير وكأنه تخفف من عبء كان يحمله على كاهله، لم ألاحظه فيه، عندما كان يصدر له كتاب جديد.

والكتاب الثالث الذي صدر للأستاذ أبي بكر القادري، كان بعنوان **(في سبيل بعث إسلامي)** سنة 1972 (ضمن سلسلة الجهاد الأكبر، رقم 8). ولي مع هذا الكتاب قصة أحب أن أروي جانبًا واحدًا منها. فأثناء طبع الكتاب في مطبعة الرسالة في سنة 1971، كان المؤلف يتردد على المطبعة التي كان يوجد بها المكتب الخاص بالمصححين في جريدة **(العلم)**، وكنت أحدهم. فكان كلما زار المطبعة لاستلام بروفات الكتاب أو لإرجاعها، يقوم بزيارته لنا في المكتب للتحية والسلام، باللطف والحفاوة المعهودين فيه. فكانت هذه الزيارات سببًا للاقتراب منه وللتعرف عليه أكثر. وقد طلب مني ذات يوم أن أراجع البروفة الأخيرة للكتاب قبل السحب. فسعدت بالقيام بهذه المهمة. وصدر الكتاب ومن ضمن مواده مقابلة صحافية كنت قد أجريتها معه حول مأساة المسلمين في الفلبين، ونشرت في جريدة **(العلم)**، ومقابلة أخرى أجراها معه مصطفى الصباغ حول مبادئ جمعية شباب النهضة الإسلامية وأهدافها، نشرت في جريدة **(العلم)** في سنة 1963. في تلك الفترة توقفت مجلة **(الإيمان)** عن الصدور. وكانت تطبع في إصدارها الأول في مطبعة الرسالة. فكتبت مقالاً نشر في **(العلم)** اعتبرت فيه أن توقفت مجلة إسلامية مغربية راقية عن الصدور بسبب افتقارها إلى الموارد، يشكل كارثة ثقافية. وبعد فترة طالت عدة سنوات (من مارس 1971 إلى أبريل 1975)، استأنفت **(الإيمان)** صدورها عن مطبعة النجاح الجديدة في الدار البيضاء، لتستمر في الصدور إلى سنة 1985، حيث صدر العدد (138) الأخير ـ المجلد الخامس عشر ـ فبراير/مايو 1985.

ولقد أولى المجاهد أبو بكر القادري اهتمامًا كبيرًا للصحافة، مقدرًا الدور الذي يقوم به الإعلام الإسلامي في بلورة الأفكار البناءة، وترشيد الوعي الديني والوطني، وتكوين رأي عام يهتم بالقضايا الإسلامية ويتجاوب مع ما يجري في العالم الإسلامي من تطورات وتحولات. وقد أصدر مجلة **(الإيمان)** في شهر ديسمبر سنة 1963، والتي تشكل مجلداتها الخمسة عشر، زادًا معرفيًا بالغ القيمة وشديد الأهمية. كما أصدر جريدة **(الرسالة)** في شهر نوفمبر سنة 1980، واستمرت في الصدور إلى سنة 1986. وكان من حسن ظني أن اختارني الأستاذ أبو بكر القادري لرئاسة تحرير هذه الجريدة التي كانت صوتًا معبرًا عن الصحوة الإسلامية مع مطلع القرن الخامس عشر الهجري. وقد جمع الأستاذ القادري بعضًا من مقالاته في **(الإيمان)** و**(الرسالة)** ونشرها في كتابين. وبلغ عدد ما نشر له في مجلة **(الإيمان)** 102 من الافتتاحيات والمقالات والدراسات.

وعلاقة الأستاذ أبي بكر القادري مع الصحافة بدأت في الثلاثينيات على صفحات جريدة **(المغرب)** التي كان يصدرها في سلا رفيق صباه سعيد حجي في سنة 1937، إذ كان يتولى الإشراف على قسم العالم الإسلامي فيها، ويقوم بتحرير المقالات وانتقاء الأخبار وإعدادها للنشر. وكانت **(المغرب)** تصدر ثلاث مرات في الأسبوع في أول عهدها، ثم صارت تصدر يوميًا. وهي مدرسة متميزة في الصحافة المغربية في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية. ومن **(المغرب)** إلى **(الأطلس)** لسان حزب الإصلاح الوطني، قطع الأستاذ أبو بكر القادري رحلة بالغة التميز في حياته الوطنية؛ فقد كانت **(الأطلس)** أول جريدة وطنية تصدر باللغة العربية في منطقة الحماية الفرنسية، وثاني جريدة وطنية عربية تصدر في المغرب بصفة عامة بعد **(الحياة)** التي صدرت في تطوان سنة 1934. وفي **(الأطلس)** نشر الأستاذ أبو بكر القادري موضوعات اجتماعية، إذ كان مراسلاً للجريدة من سلا. وتبلور قلم الأستاذ أبي بكر القادري في جريدة **(التقدم)** التي كان يصدرها في سلا أحمد بلحسين النجار في الفترة من 1937 إلى 1939، إذ نشر فيها مقالات في الإصلاح الاجتماعي. وفي تلك الفترة انفتح الأستاذ أبو

بكر القادري على الصحافة العربية خارج المغرب، فنشر في جريدة (**تونس الفتاة**) التي كانت تصدر في تونس، وفي مجلة (**الإسلام**) التي كانت تصدر في القاهرة، وفي مجلة (**الرابطة الإسلامية**) التي كانت تصدر من دمشق.

أما المقالات التي نشرها الأستاذ أبو بكر القادري في جريدة (**العلم**) منذ تأسيسها في سنة 1946، فقد كانت محدودة. ولكنه نشط في مرحلة ما بعد الاستقلال، فكان ينشر مقالاته تارة بتوقيعه، وتارة بأسماء مستعارة مثل (أبو خالد)، و(أبو محمد)، و(أبو سلمى)، و(الصدّيق). وجلّ هذه المقالات جمعت ونشرت في كتب.

وفيما يلي قائمة بمؤلفات الأستاذ أبي بكر القادري حسب تواريخ الصدور :

1) التعليم الأولي ونشأته في الإسلام (1970).

2) محمد حصار : ترجمته وإنتاجه وما قيل في رثائه (1971).

3) في سبيل بعث إسلامي (1972).

4) في سبيل وعي إسلامي (1977).

5) مشاهدات في الولايات المتحدة الأمريكية (1978).

6) سعيد حجي : حياته ونشاطه الثقافي والسياسي وبعض إنتاجه، الجزء الأول (1979)، الجزء الثاني (1982).

7) رسالة الرسول محمد عليه السلام رسالة عالمية خالدة، أو السنة المصدر الثاني للتشريع (نشر ضمن سلسلة كتاب «**العلم**» التي تصدرها مطبعة الرسالة تحت رقم (6) (1980).

8) صفحات من تاريخ الحركة الوطنية : الحاج عبد السلام بنونة (بالاشتراك مع محمد العربي الشاوش، ومحمد عزيمان، وأحمد بن جلون)، وهو فصلة من مجلة (**الإيمان**) (1980).

9) ستة أيام في اليابان (1982).

10) رجال عرفتهم في المغرب والمشرق، الجزء الأول(*) (1983).

11) قصة النهضة : سجل كفاح الحركة الوطنية المغربية من أجل مدرسة وطنية عربية إسلامية (1984).

12) رجال عرفتهم في المغرب والمشرق عن (العلامة الشيخ أحمد الجريري)، الجزء الثاني (1985).

13) في سبيل مجتمع إسلامي : توجّهات في الفكر والحياة وفي بحث بناء مجتمع إسلامي متقدم أصيل (1986).

14) مذكرات أفريقية وآسيوية (1987).

15) الحاج عمر بن عبد الجليل : صور من حياته ومواقف من جهاده، (ضمن سلسلة رجال عرفتهم ـ الجزء الثالث) (1988).

16) المغرب والقضية الفلسطينية من عهد صلاح الدين إلى إعلان الدولة الفلسطينية (1989).

17) دفاع عن المرأة المسلمة (1990).

18) في سبيل وحدة إسلامية : مشاهدات وارتسامات عن المسلمين في تركيا وقبرص التركية ورومانيا وبلغاريا وألمانيا الغربية (1990).

19) مبادئ وأصول التشريع الإسلامي (1991).

20) رجال عرفتهم في المغرب والمشرق، الجزء الرابع (1991).

21) مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية، الجزء الأول (1992)، الجزء الثاني (1997)، الجزء الثالث «القسم الأول (2000)، القسم الثاني (2003)»، الجزء الرابع «القسم الأول (2004)، القسم الثاني (2005)»، الجزء الخامس (2006)، الجزء السادس «القسم الأول (2007) ولم يصدر القسم الثاني».

(*) صدر بدون ترقيم. الترقيم بدأ من كتاب (العلامة الشيخ أحمد الجريري) .

22) أحاديث إسلامية في شهر القرآن (1993).

23) جولات في رحاب النبوة : مع صحابة رسول الله (1994).

24) محمد الخامس : ملامح من حياته وصور من جهاده (1995).

25) رحلاتي الحجازية : ارتسامات وذكريات عن ثلاث رحلات إلى الديار المقدسة (1995).

26) القائد عبد الله بنسعيد رائد من أعلام المغرب الحديث (ضمن سلسلة أعلام المغرب الحديث -1-) (1995).

27) الحاج أحمد بلافريج : الديبلوماسي المحنك : ملامح من سيرته ونماذج من إنتاجه (ضمن سلسلة رجال عرفتهم، الجزء الخامس) (1996).

28) رجال عرفتهم في المغرب والمشرق، الجزء السادس (1996).

29) الصادقة بنت الصديق ورجال صدقوا (1998).

30) المجتمع الإسلامي في مواجهة التحديات الحضارية الحديثة (1998).

31) المجاهد محمد اليزيدي : ضمير حزب الاستقلال ورجل الصدق والوفاء والوطنية (ضمن سلسلة رجال عرفتهم، الجزء العاشر)(*) (1999).

32) الشيخ عبد القادر الجيلاني ودوره في الدعوة الإسلامية في أنحاء العالمين الأسيوي والإفريقي (1999).

33) رجال عرفتهم في المغرب والمشرق، الجزء الحادي عشر (2000).

34) الخمر آفة خطيرة على المجتمع، طبعتان : الأولى بدون تاريخ، والثانية صدرت ضمن (سلسلة الحوار) عن منشورات مجلة (الفرقان) في سنة 2001، بمقدمة للدكتور سعد الدين العثماني.

(*) الأجزاء 7 و8 و9 من هذه السلسلة لم تصدر، وربما وقع السهو في الترتيب، إذ صدر الجزء 6 ثم الجزء 10.

35) الموقعون على وثيقة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير 1944 (ضمن سلسلة رجال عرفتهم، الجزء الثاني عشر) (2001). والكتاب مقتبس من الجزء الثاني لكتاب (مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية).

36) هدي الرسالة : مقالات من جريدة (**الرسالة**) ـ الجزء الأول 2001 ـ (لم يصدر الجزء الثاني).

37) الدكتور عبد الرحمان القادري : مسيرة حياة في النضال الوطني والثقافي (ضمن سلسلة رجال عرفتهم، الجزء الثالث عشر) (2001).

38) أبو بكر القادري : سيرة ذاتية في حوارات صحافية (2001).

39) من وحي الإيمان : مقالات وفصول من مجلة (**الإيمان**) (2002)(*).

40) رسائل من رجال عرفتهم في المغرب والمشرق (2003).

41) الحاج أحمد زنيبر رائد من أعلام المغرب الحديث المتوفى سنة 1914 و(دستور حِفْظ الاستقلال ولفظ سيرة الاحتلال) (ضمن سلسلة أعلام المغرب الحديث -2-) (2004).

42) المفكر الداعية الإسلامي الكبير بديع الزمان سعيد النورسي (2004).

43) فلسطينيات (2005).

44) رسائل أبوية من والد إلى أولاده (2004).

45) تعلموا دينكم : وصايا جد لأبنائه وأحفاده (2005).

46) قاسم الزهيري وإخاء سبعين سنة : مسيرة حياة في النضال الوطني والسياسي والصحافي (ضمن سلسلة رجال عرفتهم، الجزء الرابع عشر) (2005).

(*) شرفني الأستاذ أبو بكر القادري بكتابة المقدمة لكتابه هذا.

47) رجال عرفتهم في المغرب والمشرق، الجزء الخامس عشر (2006).

48) الأستاذ محمد الفاسي كما عرفته في المجالين الثقافي والوطني (ضمن سلسلة رجال عرفتهم، الجزء السادس عشر) (2007).

49) رجال عرفتهم وثلاث نساء وطنيات (ضمن سلسلة رجال عرفتهم في المغرب والمشرق، الجزء السابع عشر) (2008).

وتتميز مؤلفات الأستاذ أبي بكر القادري بالأصالة والعمق وبروح الاجتهاد والإصلاح، حيث يتبدى فيها الكاتب مفكرًا راجح العقل، قوي الحجة، بعيد الرؤية، شديد الغيرة على المقدسات الإسلامية والثوابت الوطنية. وهو في مذكراته وفي سلسلة كتبه عن رجال عرفهم في المغرب والمشرق، شاهد على العصر، ينطق بالحكمة، ويسجل للأجيال المقبلة بصدق وأمانة ونزاهة، ما عاشه من أحداث وتحولات، وما توافر له من تجارب، وما خرج به من كفاحه الطويل من دروس وعبر هي خلاصة تجربته النضالية التي نجدها مبثوثة في التراث الفكري الذي خلفه.

وصدرت الكتب التالية في تكريم الأستاذ أبي بكر القادري في مناسبات مختلفة :

1- النضال الوطني : مسيرة وآفاق : ندوة تكريمية للمجاهد أبي بكر القادري في بيت آل محمد العزيز الحبابي (1990).

2- أبو بكر القادري : دراسات وشهادات (1994).

3- تكريم المجاهد أبي بكر القادري بمناسبة الذكرى الرابعة والخمسين لزيارة الملك محمد الخامس لطنجة (2001).

4- تكريم المجلس العلمي المحلي بسلا للمجاهد أبي بكر القادري (2007).

5- **أبو بكر القادري : الرائد الوطني : شهادات من حفل تكريم حزب الاستقلال له يوم 21 أبريل 2007**[1].

6- **المجاهد أبو بكر القادري في الذاكرة الوطنية : كلمات وشهادات في تأبين الفقيد**، مطبعة الرسالة، 2012[2].

وكتب الأستاذ أبو بكر القادري مقدمات للكتب التالية :

1- **حركة تحرير الأطلس من 1912 إلى 1933**، لمحمد العلمي، الدار البيضاء، 1972.

2- **.. ودخل الحسن الثاني العيون**، لعبد القادر الإدريسي، مطبعة الرسالة، الرباط، 1985.

3- **تطور الممارسة الديمقراطية بالمغرب : 1956-1959** لمحمد الفقيه التطواني وعيسى العربي، مطبعة العاصمة، الرباط، 2000.

4- **ومضات من مشكاة أنوار القرآن الكريم**، لمحمد السوسي، مطبعة الرسالة، 2009.

5- **عبد الرحيم بوعبيد الصحافي في معركة الاستقلال** : 1951-1952، باللغتين العربية والفرنسية، 1996[3].

6- **علال الفاسي في الذاكرة**، لعبد الرحيم بن سلامة، 2009.

7- **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، لعلال الفاسي، الطبعة السابعة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2010.

---

(1) صدر بمقدمة للمؤلف.

(2) صدر بمقدمة للمؤلف.

(3) نشرها الأستاذ أبو بكر القادري في الجزء الرابع (القسم الثاني) من (مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية).

ترشيح أبي بكر القادري
لجائزة الملك فيصل العالمية
في فرع خدمة الإسلام

في سنة 1991 رُشِّح الأستاذ أبو بكر القادري لنيل جائزة الملك فيصل العالمية في فرع خدمة الإسلام. وقد بادرت إلى هذا الترشيح الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي بمبادرة من رئيسها الصديق الأستاذ عبد الرحيم بن سلامة، وبتزكية من أكاديمية المملكة المغربية، ومن مؤتمر العالم الإسلامي، ومن عدد من الشخصيات الإسلامية المشهود لها بالتفوق والنجاح في حقل الدعوة الإسلامية والدراسات الإسلامية وخدمة قضايا العالم الإسلامي.

وقد جاء في الرسالة التي وجّهها البروفسور عبد اللطيف بربيش، أمين السر الدائم لأكاديمية المملكة المغربية، إلى الأمين العام لجائزة الملك فيصل العالمية بتاريخ 11 نوفمبر سنة 1991، ما يلي :

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من عند الله مباركة طيبة،

وبعد :

فيطيب لي أن أحيي من المغرب الأقصى مبادرتكم العلمية النبيلة، التي دأبتم عليها، منذ سنوات، في منح جوائز عالمية في مختلف فروع المعرفة لمستحقيها، تشجيعًا لهم، وإسهامًا في تنمية الحضارة الإنسانية، وتلقيحها بهدي العطاءات الإسلامية الباقية.

ولقد علمت أن الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي قد اختارت هذه السنة علمًا من أعلام الوطنية والدعوة إلى الله مرشحًا لجائزة الملك فيصل العالمية في «فرع خدمة الإسلام».

لقد أحسنت الجمعية المغربية اختيار العلامة الداعية السيد **أبو بكر القادري**، رجلاً شغلته هموم حياة المسلمين العامة عن خاصة شؤونه، حتى لا تكاد تراه إلا داعيًا إلى الحق، وإلى الهدي المحمدي، وإلى صراط مستقيم، في كل مجتمع أو ناد، خطيبًا، أو كاتبًا، أو مؤلفًا، أو متحدثًا، أو محاورًا، أو مجادلاً بليغًا، ملحاحًا بالحجة البيضاء، مناضلاً عن الحق، لا ينفك عنه يريم لحظة عين أو بنت شفة، متعرضًا لكل دعاوى متخاذلة بالنقض، متصديًا لبيان الحق الإسلامي بالحكمة والموعظة الحسنة وآي الذكر الحكيم، وهدي المصطفى الأمين، وسيرة السلف الصالح من أمة محمد أجمعين، من المتقدمين منهم أو من المتأخرين، ديدانه الدليل على صحة المنهج الإسلامي، ودأبه تصحيح الأوضاع الشاردة، ورد الشبهات المريبة بالتي هي أحسن، استلهامًا من قول الرب الكريم : **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين﴾**.

سدَّد الله خطاه، وأقام قصده، وأنجح غايته، فهي خطوات المؤمنين، وقصد الصالحين، وغاية المجاهدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وكنت قد كُلفتُ من جمعية التضامن الإسلامي بكتابة تقرير عن الخدمات التي قام بها الأستاذ أبو بكر القادري في سبيل الإسلام والمسلمين قدم إلى الأمانة العامة لجائزة الملك فيصل العالمية. وأنشره للمرة الأولى فيما يلي لما فيه من فوائد تسلط المزيد من الضوء على جوانب من حياة الأستاذ القادري :

«توزعت جهود أبي بكر القادري في خدمة الإسلام والمسلمين عبر ثلاثة مجالات :

- **المجال الأول** : خدمة الإسلام في داخل المغرب.
- **المجال الثاني** : خدمة الإسلام في العالم الإسلامي ولدى الأقليات الإسلامية في الخارج.
- **المجال الثالث** : خدمة قضية القدس وفلسطين.

1ـ فعلى صعيد العمل الإسلامي بالداخل، يعدُّ أبو بكر القادري أحد قادة الفكر الإسلامي، ومن رواد الجهاد بالكلمة والنصيحة والموقف الملتزم المسؤول على مستوى المملكة المغربية وبلدان المغرب العربي. فلقد تصدى منذ شبابه الباكر، للهجمة الصليبية الاستعمارية الكنسية التي كانت ـ ولا تزال ـ تستهدف اقتلاع جذور الإسلام في هذه المنطقة من العالم الإسلامي، وذلك من خلال مسخ الهوية الإسلامية للشعب المغربي المسلم ولشعوب بلدان المغرب العربي المسلمة. وعمل في هذا المجال أكثر من نصف قرن، سواء من خلال التعليم العربي الإسلامي والمحاضرات والدروس التي كان يلقيها، أو بواسطة العمل السياسي الوطني المنظم والقائم على الأسس الإسلامية، أو عبر الصحافة الإسلامية وتأسيس الجمعيات العاملة في حقل الدعوة الإسلامية، مثل جمعية الشباب المسلم المؤسّسة سنة 1935، وجمعية المحافظة على القرآن الكريم، أو جمعية شباب النهضة الإسلامية.

ويمكن اعتبار الجهود التي بذلها أبو بكر القادري لخدمة الإسلام في بلده ومنطقته، من العوامل الفعالة والمؤثرة التي عجّلت بإفشال المؤامرات الصليبية التي تجلت بإصدار المرسوم المؤرخ بـ 16 مايو 1930، الذي كان يهدف لاقتلاع الوجود الإسلامي والعربي بالمناطق البربرية في المغرب، والتي انتهت إلى إبطال مفعول ذلك المرسوم والقضاء على السياسة الكنسية الاستعمارية التي كانت تعمل من أجل فصل هذا الجزء من الوطن العربي الإسلامي عن العالم الإسلامي وإدخاله وضمه إلى الوحدة الفرنسية المسيحية، وذلك بفضل تضامن العالم الإسلامي جميعه مع المغرب، وبفضل التضحيات التي قدمها الشباب المغربي المسلم في سبيل الحفاظ على هوية المغرب الإسلامية العربية واستماتته في الدفاع عن لغة القرآن التي هي لغة المغرب الأولى التي ثبَّتت حضارته العربية الإسلامية.

ولقد أفلحت جهود أبي بكر القادري على المستوى الداخلي، في إقرار المبادئ الإسلامية أساسًا للدولة المغربية المستقلة، وفي توجيه التعليم الوجهة الإسلامية العربية، وفي قيام مؤسسات الدولة على أساس الانتماء الكامل للهوية الإسلامية.

وقد تميزت جهود أبي بكر القادري في هذا المجال، بالحكمة والتبصر وحسن التصرف، حيث استطاع مع جملة من إخوانه، أن يؤثر على الاتجاهات العامة للسياسة المغربية الرسمية والشعبية، ويدفع بها نحو المزيد من التشبث بالإسلام عقيدةً وهويةَ وولاءاً، ويقاوم ويكافح أنصار التغريب والفرنسة والفرنكفونية بكل الوسائل التي بين يديه.

2ـ أما على الصعيد الإسلامي الدولي، فإن جهود أبي بكر القادري اتجهت دائمًا نحو الدفاع عن القضايا الحيوية للأمة الإسلامية، سواء منها ذات الطابع السياسي أو الاجتماعي والاقتصادي والفكري.

ويأتي في مقدمة القضايا التي عمل أبو بكر القادري من أجلها :

أ) حملات الاضطهاد والقهر والقمع التي يتعرض لها المسلمون في شتى أنحاء الأرض من الهند وبورما والصين والفليبين وقبرص وأفغانستان، إلى نيجيريا وزنجبار وتشاد والصومال وإرتيريا، إلى بلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا وهنغاريا وألبانيا والاتحاد السوفياتي.

وكانت له اتصالات ومكاتبات مع بعض قادة المسلمين من الهند وباكستان والفليبين وإرتيريا وأفغانستان وقبرص وتركيا ويوغسلافيا ورومانيا وبلغاريا، من أجل الحفاظ على الوجود الإسلامي في تلك الديار. كما قدم تقارير عما كان يقاسيه المسلمون من تلك الديار، إلى جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز، ورابطة العالم الإسلامي، ومؤتمر العالم الإسلامي، وإلى جلالة الملك الحسن الثاني. وكتب عدة مقالات في الصحف السيارة دفاعًا عن المسلمين في تلك الأقطار وتعريفًا بمشاكلهم ومطالبًا بإنصافهم.

وقد تلقى رسائل شكر من بعض كبار الشخصيات الإسلامية ومن عدد من قادة هذه الدول، أمثال الإمام المودودي، والرئيس دنكتاش، والزعيم مسوارى، ورؤساء المسلمين في إريتيريا والفليبين وأفغانستان، كما أن بعض الجرائد الباكستانية والتركية نشرت له تقارير وتصريحات واستجوابات حول قضايا المسلمين في تلك الديار. ولقد جاء في رسالة من الرئيس دنكتاش القبرصي التركي إلى أبي بكر القادري ما يلي : «باسم الشعب المسلم للدولة الفيدرالية التركية لقبرص، وباسمي الخاص، أود أن أشكر سيادتكم على حضوركم المؤتمر الدولي الإسلامي الثامن الذي انعقد بغازى ماغوستا، وعلى اهتمامكم الكبير بقضيتنا العادلة ومساندتكم لها». ثم تقول الرسالة : «وأغتنم هذه الفرصة لأقترح على سيادتكم منصب ممثلنا الشرفي بالمغرب ...». إلى آخر الرسالة.

ب) فساد السياسات المعمول بها في بعض البلدان الإسلامية وانحرافات الأوضاع بها نتيجة الابتعاد عن المنهج الإسلامي ومبادئ الإسلام في الحكم.

ج) حملات التنصير والإلحاد والتفسخ التي تعم بعض البلدان الإسلامية.

وقد أولى أبو بكر القادري هذه القضايا عناية مركزة، فكتب عنها، وتحدث وحاضر فيها، وقام برحلات طويلة إلى مواقع الأحداث مستقصيًا عن الحقائق، وداعيًا إلى الإصلاح والتسوية في ظل قيم الإسلام، ومفندًا للدعايات المغرضة التي تروج ضد الإسلام. وقد أثمرت هذه الجهود بعض الثمار في التخفيف من المعاناة التي يكابدها المسلمون في أنحاء عديدة من العالم.

3ـ أما المجال الثالث الذي عمل فيه أبو بكر القادري ولا يزال، فهو قضية فلسطين والقدس، فلقد قام منذ الثلاثينيات، بجهود كثيرة للدفاع عن فلسطين بعامة، وضد فكرة التقسيم، وعن القدس الشريف بخاصة، وله علاقات وطيدة مع المجاهدين الفلسطينيين ابتداءاً من الحاج أمين الحسيني إلى الآن، عرف كيف يستغلها لتقديم الخدمات السياسية الفاعلة التي تدعم جهاد الشعب

الفلسطيني. وقد حضر جميع مؤتمرات المجلس الوطني الفلسطيني، وشارك في اجتماعات سياسية فلسطينية عديدة، وحضر المؤتمرات واللقاءات الفكرية المكرسة لخدمة هذه القضية في البلاد العربية والبلاد الأروبية. وباعتباره عضوًا في المجلس التنفيذي لمؤتمر العالم الإسلامي، الذي كان يرأسه سماحة المرحوم الحاج أمين الحسيني، وبعد وفاته صار يرأسه الدكتور معروف الدواليبي، جعل من القضية الفلسطينية شغله الشاغل، فكان مع إخوانه في المجلس يرفعون المذكرات والتقارير إلى هيأة الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات التي تهتم بالقضايا الإنسانية العامة، معتبرين أن قضية فلسطين قضية الإسلام الأولى في هذا العصر، وأن العمل على تحريرها واجبٌ عينيٌّ على كل المسلمين. وفي هذا المجال الفلسطيني لم يكتف بكتابة المقالات وتنظيم المهرجانات وإلقاء المحاضرات للتعريف بالقضية ومكافحة الصهيونية، ولكنه ألف كتابًا من نحو خمسمائة صفحة حول القضية الفلسطينية، جعل عنوانه : (**المغرب والقضية الفلسطينية منذ عهد صلاح الدين إلى إعلان الدولة الفلسطينية**)، ويعد هذا الكتاب الوثائقي الأول من نوعه في اهتمام المغرب بالقضية الفلسطينية».

كما حررتُ، إلى جانب التقرير الآنف الذكر، سيرةً مختصرةً لحياة أبي بكر القادري أرفقت بالتقرير، وقدمت إلى الأمانة العامة لجائزة الملك فيصل العالمية، جاء فيها :

- ولد بمدينة سلا (المملكة المغربية) في شهر جمادى الأولى سنة 1332هـ الموافق لعام 1913م.

- تلقى تعليمًا عربيًا إسلاميًا موسعًا على كبار شيوخ العلم بمسقط رأسه، أمثال الشيخ أحمد الجريري، والشيخ أحمد بن عبد النبي، والشيخ زين العابدين بن عبود (الشقيق الأكبر للدكتور المهدي بن عبود)، والشيخ مولاي الشريف (اسمًا) القادري (شقيقه)، والعلامة السلفي محمد بن العربي العلوي، وغيرهم.

ـ أسس في مطلع شبابه مدرسة (النهضة) الإسلامية، التي تعدّ مؤسسة رائدة للتعليم العربي الإسلامي في فترة الحماية الفرنسية، وذلك في عام 1352هـ (1933م)، وكانت سنه لم تتجاوز العشرين. وقد وضعت المدرسة التي تطورت إلى ثانوية وأسست عدة فروع لها ولا تزال قائمة إلى اليوم، الأسس الأولى للتعليم العربي الإسلامي الذي تحمل أعباء مواجهة سياسة الفرنسة والتغريب والاستلاب والغزو الفكري في ظل انعدام كل الفرص لتلقى أبناء المغرب تعليمًا عربيًا إسلاميًا حكوميًا في ذلك العهد الاستعماري.

ـ أسس جمعية المحافظة على القرآن الكريم في عام 1351هـ (1932م) لجمع الشباب المسلم حول القرآن الكريم. ولقد صارت هذه الجمعية نواة لسلسلة من الجمعيات المماثلة في كبريات مدن المغرب، وتكفلت بخدمة كتاب الله العزيز ونشره وتعليمه وإحياء رسالته في مواجهة سياسة التنصير التي خططت لها الكنيسة والاستعمار في المغرب منذ فرض الحماية الفرنسية سنة 1331هـ (1912م).

ـ من الرعيل الأول الرائد والمؤسس للحركة الوطنية المغربية السلفية التي قامت على أساس الإسلام والعروبة والتوجّه نحو تعميق مفاهيم السلفية باعتبارها وسيلة حضارية للتحرر من التخلف والاحتلال. وعمل ضمن جماعة من إخوانه على طبع العمل السياسي والجهادي في المملكة المغربية بالطابع الإسلامي منذ بداياته الأولى التي اقترنت بصدور ما يعرف بـ (الظهير ـ أي المرسوم ـ البربري) في سنة 1349هـ (1930م)، الذي وضع الأسس لتحويل الجزء الأكبر من المغاربة إلى التحكيم إلى العرف البربري، وإلى القضاء على الوجود الإسلامي في المناطق البربرية من المغرب.

ـ من القادة المؤسسين لـ (كتلة العمل الوطني) في سنة 1353هـ (1934م) ولـ (الحزب الوطني) في سنة 1356هـ (1937م)، ولـ (حزب الاستقلال) في سنة 1363هـ (1944م)، وهي التنظيمات الوطنية التي كافحت الاستعمار الفرنسي والإسباني بالمغرب، والتي حملت لواء الإسلام، ودافعت عنه، وحمت

الشعب المغربي من التنصير ومن مسخ الهوية الإسلامية والاندماج في الشخصية الفرنسية.

ـ عرف السجون والمنافي عدة سنوات في عهد الحماية الفرنسية، وقدم إلى محاكمات عسكرية، وبلغ عدد السنوات التي حوكم بها عليه، ابتداءاً من سنة 1935م إلى سنة 1952م، خمس سنوات، وذلك بتهم معاداة فرنسا والقيام بالنشاط السياسي والثقافي الإسلامي المعادي لسياستها في المغرب والمطالبة بالاستقلال والحرية، وأيضاً لتأسيسه مدارس عربية إسلامية التي كان الاستعمار يرفض تأسيسها.

ـ من الموقعين على وثيقة المطالبة باستقلال المغرب المقدمة إلى الملك محمد الخامس وإلى الحكومة الفرنسية وإلى ممثلي دول الحلفاء في المغرب، في 11 يناير 1944م.

ـ بعد استقلال المغرب، عينه الملك محمد الخامس عضوًا في المجلس الوطني الاستشاري (البرلمان المغربي الأول) في عام 1956م، وعضوًا في مجلس الدستور سنة 1960م. وكافح طويلاً في هذين المجلسين لإقرار المبادئ الإسلامية كأساس ثابت للدولة المغربية المستقلة.

ـ عينه الملك الحسن الثاني في سنة 1964 عضوًا في (المجلس الأعلى الوطني للتخطيط الاقتصادي)، وهو مؤسسة دستورية تتولى رسم السياسات العامة للدولة في جميع القطاعات، وعضوًا في (المجلس الأعلى لإصلاح التعليم). وقد عمل في هذا المجلس على توجيه التعليم المغربي الوجهة التي لا تتعارض مع القيم والمبادئ الإسلامية واللغة العربية.

ـ انتخب بالإجماع كاتبًا عامًا لـ (الجمعية المغربية لمساندة كفاح الشعب الفلسطيني) في سنة 1972م، وهي المنظمة الوطنية التي تضم ممثلي الأحزاب الوطنية المغربية والنقابات ورابطة علماء المغرب، والتي تعمل من أجل الدفاع عن فلسطين والقدس الشريف.

ـ رئيس جمعية شباب النهضة الإسلامية التي أسسها في عام 1963م.

ـ من رواد الصحافة الإسلامية في المغرب، حيث أسس مجلة **(الإيمان)** الإسلامية الشهرية وتولى إدارتها ورئاسة تحريرها من سنة 1963م إلى سنة 1985م. وأسس في سنة 1400هـ (1980م) جريدة **(الرسالة)** الإسلامية الأسبوعية التي استمرت في الصدور سبع سنوات. وكان للمطبوعتين دور مؤثر في تعزيز الفكر الإسلامي ودعم الصحوة الإسلامية بالمغرب. وهو يكتب بصفة دائمة حديثًا كل يوم جمعة بجريدة **(العلم)** في موضوع إسلامي توجيهي.

ـ عضو المكتب التنفيذي لمؤتمر العالم الإسلامي الذي يوجد مقر أمانته العامة في كراتشي.

ـ كلف من طرف مؤتمر العالم الإسلامي، بالقيام بجولات عبر البلدان الإسلامية في إفريقيا لكسب أنصار للجهاد الفلسطيني، ولشرح ملابسات القضية الفلسطينية، ولتعبئة الرأي العام الإسلامي الإفريقي في معركة فلسطين، ولدراسة أحوال المسلمين بتلك الأقطار.

ـ كلف من طرف رابطة العالم الإسلامي بالقيام بجولات عبر الأقليات الإسلامية في أوروبا الشرقية، لتفقد أحوالها ولكتابة تقارير عن أوضاعها تمهيدًا لتقديم المساعدات والدعم لها.

ـ انتخب أمينًا عامًا مساعدًا للمؤتمر العالمي الأول للإعلام الإسلامي الذي عقد في جاكارتا بأندونيسيا في عام 1980م.

ـ انتخب أمينًا عامًا مساعدًا للمؤتمر الإفريقي الإسلامي الذي انعقد بنواكشوط من طرف رابطة العالم الإسلامي.

ـ انتخب أمينًا عامًا مساعداً للجبهة العربية المشاركة للثورة الفلسطينية.

ـ عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـ عضو اتحاد كتاب المغرب.

ـ ساهم في عدة مؤتمرات إسلامية عالمية في أندونيسيا وباكستان وقبرص وسيريلانكا واليابان وتركيا والمملكة العربية السعودية والأردن والسنيغال.

ـ اهتم بقضايا الأقليات الإسلامية ومشاكلها في كثير من أنحاء العالم.

ـ ربط علاقات مع كثير من أقطار العالم الإسلامي وقادتها، أمثال العلامة المودودي، والعلامة أبي الحسن الندوي، والدكتور معروف الدواليبي، والشيخ محمد علي الحركان.

ـ كان له اتصال وثيق بالملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود، وقدم له عدة تقارير حول مسلمي إفريقيا وقبرص وأرتيريا وغيرها.

ـ ألف عدة كتب وألقى عدة محاضرات في مواضيع إسلامية عالمية.

ـ كتب عدة رحلات درس فيها أحوال المسلمين في أوروبا وإفريقيا وآسيا.

ـ شارك في كثير من اجتماعات رابطة العالم الإسلامي ومؤتمراتها.

ـ ساهم مساهمة فعالة في المؤتمرات الإسلامية التي عقدت بموريتانيا والسينغال والمغرب.

ـ شارك في مؤتمر القمة الإسلامي الثالث الذي عقد بالطائف، والذي ترأسه الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله في عام 1981م، وقدم له تقارير حول القضية الفلسطينية».

كما كتب الدكتور محمد معروف الدواليبي رئيس مؤتمر العالم الإسلامي، الذي يوجد مقر أمانته العامة في كراتشي بباكستان، رسالة تزكية إلى الأمير خالد الفيصل رئيس جائزة الملك فيصل العالمية، أنشر صورة للنص الذي وافاني به كاتبُها فيما يلي :



محمد معروف الدواليبي

ص.ب ٨٣٨٣
الرياض ١١٤٨٢
المملكة العربية السعودية

الرياض/١٤١٢/٦/٢٢هـ
/١٩٩١/١٢/٢٨م

الى صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل آل سعود حفظه الله
رئيس جائزة الملك فيصل العالمية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فأنني الموقع أدناه رئيس مؤتمر العالم الإسلامي في (كراتشي) المنظمة الدولية الإسلامية الأولى المسجلة لدى الأمم المتحدة بصفة عضوٍ إستشاري مراقب، يسرني أن أتقدم لسموكم بترشيح الاستاذ أبي بكر القادري - عضو { أكاديمية المملكة المغربية} - لجائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام، وذلك لما عرفنا فيه من الإنصراف بكل طاقاته وجهده لخدمة الإسلام والمسلمين في مختلف المجالات، وذلك منذ مطالع شبابه حتى الآن ، كما ستجدون تفصيل ذلك في الوثيقتين المرفقتين صحبة هذا الخطاب حول ترجمة حياته وسيرته الذاتيه اولاً ، ثم حول خدماته للإسلام والمسلمين في تقرير خاص.....

وأختم بأطيب تحياتي وتمنياتي لسموكم الكريم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس مؤتمر العالم الإسلامي
في كراتشي (باكستان)
الدكتور/م. معروف الدواليبي
معروف الدواليبي

(*) صورة من رسالة في دعم ترشيح الأستاذ أبي بكر القادري بعث بها الدكتور محمد معروف الدواليبي إلى رئيس جائزة الملك فيصل العالمية.

وكما وصلتني من الدكتور محمد معروف الدواليبي رسالة كريمة في هذا الشأن ردّاً على الرسالة التي كنت قد بعثتها إليه، فيما يلي نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الكريم السيد عبد القادر الإدريسي المحترم مسئول اللجنة الإعلامية في الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فقد عدت من سفر ووجدت خطابكم المؤرخ في 1991/11/26م ينتظرني مصحوباً بوثيقتين هما :

1- ترجمة الأستاذ أبي بكر القادري... 2- خدماته في سبيل خدمة الإسلام... فسارعت ورفعت بتاريخ البارحة 1991/12/28م خطاباً لدعم ترشيحه لدى «رئيس جائزة الملك فيصل العالمية» سمو الأمير خالد الفيصل، وأصحبت خطابي بالوثيقتين المرسلتين إليّ... وتجدون صحبة رسالتي هذه صورة من خطابي لسمو الأمير. وقد زرت اليوم الأمين العام للجنة الجائزة بتاريخه أعلاه، وسلمته باليد خطاب الترشيح، وتحدثت طويلاً عن مزايا الأخ الأستاذ أبي بكر القادري... وأفادني الأمين العام بأنه قد وصلهم ترشيح سابق، وأنهم سيضمون ترشيحي للأستاذ القادري إلى ملفه، وأنهم يعتبرون هذا الترشيح الجديد تزكية للترشيح السابق، فشكرتهم على ذلك...

وأنتهز هذه الفرصة والمناسبة لتقديم أطيب تحياتي للأخ الصديق المفضال الأستاذ أبي بكر القادري، مع أخلص تمنياتي الأخوية له...

وأختم بأطيب تحياتي لكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته من أخيكم :

م. معروف الدواليبي
رئيس مؤتمر العالم الإسلامي بكراتشي

وإذا كان الأستاذ أبو بكر القادري لم ينل جائزة الملك فيصل العالمية التي كان قد رشح لها، وتقاطرت على الأمانة العامة للجائزة رسائل تزكية لهذا الترشيح من شخصيات إسلامية ذات مكانة واعتبار من عديد من الأقطار الإسلامية، فإن هذا لم ينل من قيمة هذا المجاهد باعتباره أحد أقطاب الفكر والعلم والثقافة والعمل الإسلامي العام خدمة للمصالح العليا للأمة الإسلامية ؛ فمقام الأستاذ القادري أسمى وأرفع من أي جائزة مهما تكن أهميتها وقيمتها، ويكفيه فخراً أنه حمل وسام العرش مرتين، ووسام أكاديمية المملكة المغربية، وجائزة الاستحقاق الكبرى في خدمة الثقافة المغربية، ووسام نجمة القدس من الدرجة الأولى.

أبو بكر القادري في رحاب صاحبة الجلالة

كانت مجلة (**الإيمان**) فتحًا في الصحافة الإسلامية في المغرب وفي البلاد العربية الإسلامية، صدرت في وقت تفاقمت فيه الأزمة الفكرية والعقائدية في العالم الإسلامي برمته، وانتشرت فيه الأفكار والعقائد والمذاهب والإيديولوجيات المعادية للدين جملةً وتفصيلاً، والمناهضة للقيم والمبادئ الإنسانية التي استمدت منها الحضارات المتعاقبة عناصرها وخصائصها ومميزاتها. وعلى الصعيد الوطني المغربي، ظهرت (**الإيمان**) في أواخر سنة 1963، بينما كانت الفكرة الدينية تلاقي معارضة مكشوفة من القوى اليسارية متعددة المنازع والمشارب، التي ظهرت وتمركزت في أواخر الخمسينيات، وكشفت عن وجهها وأبانت عن حقيقتها، في مطلع الستينيات، حيث كان الجهر بالكفر والإلحاد ومناصبة الإسلام العداء، سياسة يتبعها قومٌ من المغاربة، ويدخلون بها في صراع مع المجتمع المغربي، ومع الدولة المغربية، بشكل علني مكشوف.

وعلى الصعيد العربي الإسلامي، كانت الأفكار الإلحادية والعلمانية سائدة ومنتشرة بصورة مكشوفة، في الفترة التي صدرت فيها (**الإيمان**)، حيث كان الإسلام يُحارب محاربة شديدة على أكثر من صعيد، وكان الإلحاد مهيمنًا على الفكر العربي، وفارضًا وجوده في وسائل الإعلام، وفي الجامعات، وفي المدارس والمعاهد، وفي العديد من المواقع ذات التأثير على الرأي العام وفي توجيه المجتمع وصياغة الأفكار وبناء وجهات النظر والأحكام والتصورات التي تروج في أوساطه المختلفة.

لقد دخل العالم العربي الإسلامي في مطلع الستينيات، مرحلة عصيبة من جراء انتشار موجة من الإلحاد والفكر اليساري والعلماني المعادي للعقيدة الدينية وللعقائد جميعًا ما عدا العقيدة الفاسدة التي يقوم عليها وينطلق منها. وكان المغرب غارقًا في لجة من التحولات العميقة، تتجاذبه التيارات العنيفة، وتتقاذفه الأمواج الهوج من كل جانب. وكانت الدولة المغربية مهددة، وكان الإسلام مهددًا، وكان الإنسان المغربي ضائعًا حائرًا إلا من رحم ربك. وأمام هذا الوضع الخطير، كان يتوجَّب القيام بمبادرة شجاعة للتصدّي لهذه التيارات المهددة لاستقرار المغرب ولتماسكه ولسلامته وأمنه الفكري والثقافي والديني. ولذلك جاء القرار الذي اتخذه الأستاذ المجاهد أبو بكر القادري في عام 1963 بإصدار مجلة إسلامية تحمل اسم (**الإيمان**)، ملبيًا للحاجة الملحة التي كانت قائمة، ومستجيبًا للضرورة التي كانت تقتضي ذلك.

صدر العدد الأول من مجلة (**الإيمان**) في رجب 1383 – ديسمبر 1963 مصدَّرًا بهذه العبارة : (مجلة الثقافة الإسلامية والدعوة العقائدية، مجلة الشباب المسلم المعتزّ بدينه المؤمن بمثله). وصدرت المجلة عن (جمعية شباب النهضة الإسلامية) التي تأسست في الفترة نفسها، وكان مؤسسها ورئيسها هو الأستاذ أبو بكر القادري مدير (**الإيمان**). وصدرت المجلة بمقاس 15/24، في 64 صفحة. ومن كتاب العدد الأول : أبو بكر القادري وعلال الفاسي والدكتور المهدي بنعبود وعبد الكريم غلاب ومحمد بلبشير وقدور الورطاسي وعبد اللطيف خالص وزهور الزرقاء وحسن السائح وأحمد القادري وعبد الجبار السحيمي. وصدر العدد الأخير من (**الإيمان**) – وهو العدد الذي يحمل رقم : 138 – في جمادى الثانية 1405، فبراير/مايو 1985.

وتوقفت المجلة عن الصدور خلال الفترة من مارس 1971 إلى أبريل 1975. وكان العدد العاشر من السنة الخامسة (محرم 1391 – مارس 1971) الخاص بذكرى الإمام مالك بن أنس، هو آخر عدد صدر خلال المرحلة الأولى من عمر

المجلة. وبدأت المرحلة الثانية بالعدد الأول من السنة السادسة (ربيع الأول 1395 – أبريل 1975).

وصدرت من المجلة أعداد ممتازة تعدُّ اليوم من المراجع المعتمدة في الجامعات ولدى الباحثين والدارسين، عن (الإمام مالك)، و(القاضي عياض)، و(محمد المختار السوسي)، و(الإعلام الإسلامي)، و(الدعوة الإسلامية)[1].

وامتازت المجلة باستقطاب الكتاب من مختلف البلدان العربية الإسلامية في أفريقيا وآسيا وأوروبا، فقد كتب في (**الإيمان**) أبو الأعلى المودودي من باكستان، وأبو الحسن علي الندوي من الهند، وعبد الله عبد القادر بلفقيه الحسيني من أندونيسيا، وطائفة كبيرة من الكتاب والعلماء والمفكرين والباحثين من مصر ولبنان وسوريا والعراق والسعودية وتونس وليبيا والجزائر وتركيا ويوغوسلافيا (البوسنة والهرسك).

كما امتازت المجلة بنشر مقالات وكلمات كتبها لها خصيصًا، قادة بعض الدول العربية الإسلامية من ملوك ورؤساء وأمراء، في بعض الأعداد الخاصة التي صدرت في مناسبات إسلامية.

ونشرت المجلة مرتين، كلمتين كتبهما خصيصاً لها، جلالة الملك الحسن الثاني، رحمه الله، وهي سابقة في الصحافة المغربية على وجه العموم (العدد المزدوج 7-8، يونيو – يوليو 1964 السنة الأولى، والعدد المزدوج 8-9، يوليو – اغسطس 1965 السنة الثانية).

---

(1) صدر العدد الخاص عن الإمام مالك بن أنس في سنة 1971، العدد العاشر، السنة الخامسة، وصدر العدد الخاص عن القاضي عياض في سنة 1978، العدد المزدوج 72-73، السنة الثامنة، وصدر العدد الخاص عن (الندوة العالمية حول عالمية الإسلام) في كولومبو في سنة 1982، السنة الثانية عشرة، العدد المزدوج : 119-120، وصدر العدد الخاص عن (المؤتمر التأسيسي للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة) – إيسيسكو – في سنة 1982، السنة الثانية عشرة، العدد 116، وصدر العدد الخاص عن (المؤتمر الإسلامي في اليابان) في سنة 1981، السنة الثانية عشرة، العدد 111.

واهتمت (**الإيمان**) بقضايا الإسلام والمسلمين في العالم، وعالجت موضوعات متنوعة في مجالات الفكر والعلم والدعوة والثقافة الإسلامية، وخصصت حيزًا لنشر أخبار العالم الإسلامي والتعليق عليها، وسلطت الضوء على المشكلات والأزمات التي تعاني منها بعض المجتمعات الإسلامية، خاصة الجاليات والأقليات الإسلامية التي تعاني من القمع والاضطهاد. وتناولت المجلة قضايا إسلامية تقتضي إعادة النظر وعمق التحليل ومزيدًا من التأصيل والاجتهاد في معالجتها، وركزت على إبراز سماحة الإسلام واعتداله وَوَسَطيته وشموله وعالميته، وتقديم الصورة الصحيحة للإسلام عقيدة وثقافة وحضارة وأمة.

وكانت (**الإيمان**) منبرًا للفكر الإسلامي وللثقافة العربية الإسلامية ومنتدى لأقلام النخبة من المفكرين من ذوي المقامات العالية في الفكر والعلم والثقافة والبحث والدراسة والتعمق في القضايا ذات الصلة بحاضر الأمة الإسلامية وبمستقبلها. والتزمت المجلة دائمًا بالمنهج الوَسَطي المعتدل وبالرؤية المستنيرة وبالمفاهيم الصحيحة وبأخلاقيات العمل الصحافي الملتزم بقيم الإسلام ومبادئه، فلم تدخل في معارك فكرية وثقافية لا طائل تحتها ولا منفعة فيها تعود على الأمة الإسلامية، وإن كانت قد التزمت الدفاع عن الإسلام بلا هوادة، والانتصار لقضايا الأمة الإسلامية، والردّ على أباطيل خصومها ودحض الشبهات وتفنيد التخرّصات والأوهام والمزاعم الباطلة، والتصدّي للانحرافات، وتوضيح الحقائق وتصحيح المفاهيم، والدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة وبالدفع بالتي هي أحسن في القضايا الفكرية التي تعالجها وتتناولها وتعرض لها.

وصدرت مجلة (**الإيمان**) في وقت كانت تصدر في المغرب مجلة (**دعوة الحق**) عن وزارة الأوقاف والشوؤن الإسلامية، وبعد فترة وجيزة من توقف مجلة (**البيّنة**) التي كانت تصدر باللغة العربية عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية مع جريدة (**الحسنى**) التي كانت تصدر عن الوزارة نفسها. ويمكن

القول إن (**الإيمان**) صدرت في الوقت المناسب، لتسدَّ ثغرة وتملأ فراغًا في الساحة الإسلامية في المغرب. وتجدر الإشارة في هذا السياق، إلى أن (**الإيمان**) هي رابع مجلة إسلامية صدرت في المغرب، وكانت الأولى هي مجلة أصدرها الفقيه محمد الطنجي في تطوان في أواخر عام 1939 بعنوان (**الإرشاد الديني**) وصدرت منها ستة أعداد فقط، أحتفظ بها في مكتبتي الخاصة، والثانية هي مجلة (**لسان الدين**) التي أصدرها الدكتور محمد تقي الدين الهلالي في تطوان في عام 1946، ثم تولى إدارتها من بعده الأستاذ عبد الله كنون ابتداءاً من السنة الثانية في عام 1947، واستمرت المجلة في الصدور إلى نهاية عام 1955، وأحتفظ بأعداد سنتها الأولى كاملة، وهي من حجم كتاب الجيب قبل أن تصبح في الحجم المتوسط مثل حجم مجلة (**العربي**)، وبأعداد متفرقة منها، والثالثة هي مجلة (**دعوة الحق**) التي صدر العدد الأول منها في يوليو عام 1957، وهي المجلة المغربية الوحيدة التي لا تزال مستمرة في الصدور منذ ذلك العهد وإلى اليوم.

أما على المستوى العربي الإسلامي، فقد صدرت (**الإيمان**) في فترة تراجعت فيها المجلات الإسلامية. وكانت أبرز المجلات الإسلامية التي كانت تصدر في تلك الفترة، هي (**مجلة الأزهر**)، و(**منبر الإسلام**)، و(**لواء الإسلام**) في مصر، و(**حضارة الإسلام**) في سوريا، و(**المجتمع**) في لبنان، و(**الحج**) في المملكة العربية السعودية، و(**البعث الإسلامي**) في الهند، و(**المسلمون**) في جنيف، و(**الأصالة**) في الجزائر، و(**الميثاق الإسلامي**) في السودان، و(**جوهر الإسلام**) في تونس. وكانت (**الإيمان**) متميزة وسط تلك المجلات، وتنفرد بكثير من المميزات، خاصة على مستوى حرية التعبير وتناول الموضوعات ومعالجة القضايا ومتابعة شؤون العالم الإسلامي بالتعليق والتحليل، وبقدر كبير من النقد النزيه المبرأ من الهوى والملتزم بأخلاقيات الإعلام الإسلامي.

في هذا المناخ الفكري والصحافي، صدرت (**الإيمان**) لتكون مجلة (للثقافة الإسلامية وللدعوة العقائدية ومنبرًا للشباب المسلم المعتزّ بدينه المؤمن بمثله) عن جدارة واستحقاق، كما جاء على غلاف العدد الأول.

ولقد أدار الأستاذ أبو بكر القادري مجلة **(الإيمان)** بحكمة وحصافة، وتولى شؤونها في ظروف دقيقة باقتدار وبعزم وحزم، وعانى كثيرًا من شح الموارد، واستطاع أن يتغلَّب على بعض المعوّقات والصعوبات، حتى جعل من المجلة منبرًا للفكر الإسلامي المستنير، ومنتدى للمفكرين والعلماء والكتاب من المغرب والمشرق، وكان ناجحًا في استقطاب صفوة من هؤلاء واستكتابهم والاحتفاء بهم.

وكان الأستاذ أبو بكر القادري صحافيًا ناجحًا في مجلة **(الإيمان)**، ومثالاً للمفكر صاحب الرسالة الإيمانية، والمجاهد بالكلمة الحكيمة الرشيدة.

وعلى الرغم من أن أبا بكر القادري انصرف بكليته وبكل مواهبه ومقدراته إلى العمل الوطني اليومي الحثيث، منذ باكورة حياته العملية، وانخرط في معارك الحركة الوطنية على شتى الجبهات السياسية والاجتماعية والتعليمية والثقافية، فلم يبق له وقت للاشتغال بالكتابة والتحرير - على الرغم من ذلك، فإنه اقترب من بلاط صاحبة الجلالة منذ مرحلة مبكرة من عمره النضالي، فكان على موعد مع جريدة **(الحياة)**، وهي أول جريدة وطنية عربية يومية صدرت في المغرب سنة 1934 من تطوان، بحيث ربط أسبابه بها، وأقام علاقة تعاون وثيق مع صاحبها الأستاذ عبد الخالق الطريس، وقام بعمل الدعاية لها وجمع الاشتراكات فيها، في مدينتي سلا والرباط، دعمًا للصحافة الوطنية الوليدة، وتقوية لأواصر التعاون بين شطري الوطن الخاضعين للحمايتين الفرنسية والإسبانية. وقد نشر أبو بكر القادري في **(الحياة)** تحت اسم (خبير).

غير أن الظهور المبكر لأبي بكر القادري في ميدان الصحافة في الثلاثينيات، كان على صفحات جريدة **(المغرب)**، التي كان يصدرها في سلا رفيقُ صباه سعيد حجي في سنة 1937، إذ كان يتولى الإشراف على قسم العالم الإسلامي فيها، ويقوم بتحرير المقالات وانتقاء الأخبار التي تبرز التضامن الإسلامي بين أطراف الأمة الإسلامية. وكانت جريدة **(المغرب)** تصدر ثلاث مرات في الأسبوع في أول عهدها بالصدور، ثم صارت تصدر يوميًا. وهي مدرسة متميزة

في الصحافة المغربية في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، وذلك نظرًا إلى الخبرة الواسعة التي اكتسبها سعيد حجي من خلال عمله في الصحافة العربية في المشرق أثناء فترة طلبه للعلم، فقد كان على صلة وطيدة بأكبر الصحافيين العرب في دمشق والقدس وبيروت والقاهرة، خصوصًا الصحافي الرائد عجاج نويهض صاحب جريدة (**العرب**) التي كان يصدرها من القدس، والتي كان ينشر فيها سعيد حجي مقالاته وأعماله الصحافية المبكرة.

ولذلك فإن احتكاك أبي بكر القادري بسعيد حجي وتعاونهما معًا في إصدار (**المغرب**)، كان لهما تأثير في صقل موهبة القادري واكتسابه الخبرة المواتية لممارسته العمل الصحافي بأبسط الإمكانات وبأقل الوسائل، وفي تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الحركة الوطنية المغربية.

ومن (**المغرب**) إلى (**الأطلس**)، قطع أبو بكر القادري رحلة بالغة التميز في حياته الوطنية، فلقد كانت جريدة (**الأطلس**) أول جريدة وطنية عربية تصدر في منطقة الحماية الفرنسية، وثاني جريدة وطنية عربية تصدر في المغرب بصفة عامة بعد (**الحياة**) التي صدرت في مارس سنة 1934 بتطوان. وكانت (**الأطلس**) لسان كتلة العمل الوطني، قد صدرت سنة 1937 بإدارة محمد اليزيدي، والحاج أحمد بلافريج، وكانت منتدى للأقلام الوطنية، وفيها نشر أبو بكر القادري موضوعات اجتماعية عن سلا، إذ كان مراسلاً للجريدة من هذه المدينة[2].

وتبلور قلم أبو بكر القادري في جريدة (**التقدم**) التي كان يصدرها في سلا أحمد بلحسين النجار في الفترة من 1937 إلى 1939، إذ نشر بها مقالات في الإصلاح الاجتماعي في هذه المرحلة التي كان الحظر مفروضًا فيها على الحزب الوطني (نواة الاستقلال فيما بعد)، وكان الاتجاه إلى الموضوعات الاجتماعية العامة، أسلوباً للتحايل على الرقابة الفرنسية. وفي جريدة (**التقدم**) الأسبوعية وفي جريدتي (**المغرب**) و(**الأطلس**)، تعمقت تجربة أبي بكر القادري الصحافية.

---

(2) للمؤلف دراسة توثيقية مفصلة عن جريدة (الأطلس) نشرت في جريدة «العلم» بتاريخ 8 فبراير 1991.

وفي هذه المرحلة كان أبو بكر القادري يكتب في صحف المغرب العربي والمشرق، فنشر في جريدة (**تونس الفتاة**) التي كانت تصدر بتونس، وفي مجلة (**الإسلام**) التي كانت تصدر من القاهرة، وفي مجلة (**الرابطة الإسلامية**) التي كانت تصدر من دمشق. وهذا الانفتاح على الصحافة العربية في الثلاثينيات، أكسب قلمَ أبي بكر القادري وفكره وتجربته الصحافية عمقًا وأصالة، وإن كان لم يتفرغ بالقدر الكافي للكتابة، وظل دائمًا مقبلاً على العمل السياسي الوطني اليومي الذي يستنزف الجهد كلَّه.

وفي سنة 1946، وبعد أن صدرت جريدة (**العلم**)، ربط أبو بكر القادري نفسه بها، وإن كانت كتاباته في فترة ما قبل الاستقلال، في هذه الجريدة بالخصوص، كانت محدودة، لاستغراقه بالكامل في النضال الوطني، ولتحمله مسؤوليات عديدة في الحزب لم تكن تترك له فرصة للكتابة الصحافية. ولكن قلم أبي بكر القادري نشط في مرحلة ما بعد الاستقلال في جريدة «**العلم**»، بحيث نجده ينشر مقالات عديدة، سواء بتوقيعه، أو بأسماء مستعارة. وتحفل مجموعات جريدة «**العلم**» بمقالات بقلم (أبو خالد)، و(أبو محمد)، و(أبو سلمى)، و(الصدّيق)، وهي الأسماء المستعارة التي كان يوقع بها أبو بكر مقالاته في «**العلم**»، هذا إضافة إلى سلسلات من المقالات التي نشرها بالاسم الصريح. وكثيرٌ من هذه المقالات لم تجمع في كتب.

ولما أصدرت وزارة الدولة المكلفة بالشوؤن الإسلامية، التي كان على رأسها زعيم التحرير الأستاذ علال الفاسي، جريدة (**الحسنى**) بإدارة الأستاذ محمد المدور، في مطلع الستينيات، كان أبو بكر القادري من الأقلام التي تواظب على الكتابة فيها. وفي هذه المرحلة تبلورت فلسفة الإعلام الثقافي عند أبي بكر القادري، وظهر التوجه العام للخط الذي سيسير فيه في المرحلة المقبلة، والتي بدأت مع صدور مجلة (**الإيمان**).

لذلك كله، كانت مجلة (**الإيمان**) التي أصدرها أبو بكر القادري، فتحًا جديدًا في الصحافة العربية الإسلامية، ليس على مستوى المغرب فحسب، وإنما على صعيد العالم الإسلامي، فلقد كانت هذه المجلة التي صدر منها خمسة عشر مجلدًا، مدرسة متميزة في الصحافة العربية الإسلامية ذات الاهتمام بقضايا الفكر والثقافة وحركة البعث الإسلامي في أرجاء العالم الإسلامي كله.

وبعد (**الإيمان**)، كانت جريدة (**الرسالة**) التي صدرت في محرم 1401 (نوفمبر 1980) وكانت جريدة اسبوعية إسلامية جامعة، جعلها أبو بكر القادري منبرًا لبلورة «الصحوة الإسلامية» الحديثة العهد بالظهور، وتوقفت عن الصدور في 1986. وقد شَرُفْتُ باختيار الأستاذ أبي بكر القادري لي رئيسًا لتحرير جريدة (**الرسالة**) التي كانت هي الأخرى فتحًا في الصحافة الإسلامية المغربية.

ويضم الكتاب الذي صدر سنة 2002 بعنوان (**من وحي الإيمان**) الافتتاحيات التي كتبها الأستاذ أبو بكر القادري في هذه المجلة، مع بعض المقالات والدراسات التي كان ينشرها فيها من وقت لآخر، وتبلغ في مجموعها مائة واثنتين (102) من الافتتاحيات والمقالات والدراسات وكلمات التقديم، وهي تشكل مادة فكرية ثقافية علمية غزيرة متنوعة الموضوعات، عميقة الفكرة، سديدة الرأي، تَابَعَ فيها الأستاذ أبو بكر القادري أحداث العالم الإسلامي وشؤونه وقضاياه والمشاكل التي تعاني منها شعوبه، وواكب أهم القضايا الفكرية والمذهبية المطروحة، وعالج موضوعات وطنية مغربية من منطلق الفكرة الإسلامية، وكان في جميع الأحوال مفكرًا، ومحلّلاً، ودارسًا متعمّقًا للأفكار وللأوضاع وللأحداث، مما يعدُّ نموذجًا لرجل الإعلام الإسلامي الراقي والمستنير.

السياسة والأخلاق خطان متوازيان عند أبي بكر القادري

استحضرت روح المجاهد أبي بكر القادري، عليه رحمة الله، وأنا أتأمل في كثير من الحزن، الأحوال التي نـمرّ بها في هذه المرحلة. لقد كان من الدروس العظيمة التي استفدتها من صلتي القريبة بهذا القيادي الوطني الاستقلالي الكبير، أن السياسة والأخلاق خطان متوازيان، وأن السياسة بدون أخلاق ضياع وعبث ومخاطرة وخيانة للمبادئ التي قامت عليها الحركة الوطنية المغربية، وأن الأخلاق بدون سياسة انهزامٌ أمام الواقع، وفرارٌ من المعركة، واعتقادٌ بلا عمل.

كان يقول دائماً إن الحركة الوطنية المغربية قام بها رجال مؤمنون أتقياء صالحون، أخلصوا لله ثم للوطن، ونذروا أنفسهم لمهمة مقدسة تتمثل في تحرير الوطن من الاستعمار، وتحرير المواطن من الجهل ومن الخضوع للأمر المفروض عليه، ومن الحرمان وبؤس العيش، وهو الذي يعيش على أرض حباها الله بكل الخيرات. كانت مقاومة السياسة الاستعمارية عملاً من أعمال الطاعات التي يتقرب بها المرء إلى ربه، وكان النضال السياسي من أجل الحرية والاستقلال عبادة يرجى الثواب منها، وكان الإخلاص في هذه المقاومة وفي هذا النضال من المبادئ الثابتة، وكان هذا الإخلاص سجية راسخة لدى الجميع دون استثناء، وكان من معانيه الإيثار والتضحية والمثابرة وجعل مصلحة الوطن هي العليا فوق مصلحة الذات، ومصلحة الحركة الوطنية هي مصلحة الوطن لا مصلحة الأشخاص مهما ارتفعت منزلتهم في النضال.

- نشر في 2012/8/28.

لقد تعلمت من أستاذي المجاهد أبي بكر القادري أن التفاني في خدمة مبادئ حزب الاستقلال، يعني أن يفني الوطنيُّ الاستقلاليُّ ذاتَه في الحزب، بحيث تكون مصلحة الحزب هي الأَوْلَى بالاعتبار والأسبق في الحسبان، وأن العمل النضالي الوطني الاستقلالي ينطلق، أولاً وقبل كل شيء، من النضال ضد النفس الأمارة بالسوء النزّاعة للشر الميَّالة مع الهوى، بحيث تكون المبادئ والقيم والمثل والثوابت في المقام الأول، لها الهيمنة على القول والفعل والسلوك والتصرف وكل ضروب المعاملة. وبذلك يكون الاستقلاليُّ مواطناً متميزاً، ومناضلاً متميزاً، ويكون الحزب حزباً قيادياً متميزاً أيضاً.

كان رحمه الله يتحسر ويتألم ويحزن كثيراً حين ينتهي إلى علمه أن فلاناً يعمل من أجل مصلحته متجاوزاً مصلحة الحزب، وأن هدفه هو الحصول على مغنم والوصول إلى منصب، أو أن فلاناً غضب واحتج لأن زميله في الحزب ظفر بما لم يظفر هو به، أو رشح لمنصب كان يطمع فيه ويسعى إليه عبر نضاله الحزبي. وكان غضب الأستاذ أبي بكر القادري يصل الذروة لما يقع التفريط في مبدإ واحد من مبادئ الحزب، أو يحصل تجاوز لقرار من قراراته من خلال تصرف غير مدروس يبدر من هذا أو ذاك، ويعرب في مثل هذه الحالات عن قلقه على المستقبل، ليس مستقبل الحزب فحسب، بل مستقبل الوطن.

كان شديد الحرص على أن يبقى حزب الاستقلال في الطليعة التي يستحقها بنضاله التاريخي الطويل، قوةً في الأخلاق، وقوةً في الانتماء، وقوةً في الثبات على المبادئ. وكان يقول دائماً إن قوة حزب الاستقلال في قوة الأخلاق لدى مناضليه ومناضلاته ؛ لأن الثبات على المبادئ أخلاق، والحرص على الانتماء الى الحزب أخلاق، وإيثار المصلحة العليا للوطن من خلال الحفاظ على قوة الحزب أخلاق. وبهذا الفهم العميق الواسع الرشيد للأخلاق، كان يصل إلى مستوى عال في ربط السياسة بالأخلاق. وكان يرى أن هذا المستوى الراقي من السلوك النضالي والعمل السياسي، هو ثقافةٌ أولاً

وقبل كل شيء، تسري في المجتمع وتنتشر، فيعمّ الوعي السليم، ويرقى العمل السياسي الوطني إلى المستوى الذي يخدم الأهداف الوطنية ويرفع من قيمة السياسة عقيدةً ومبادئ وثقافةً وسلوكاً والتزاماً.

ولم يكن هذا الموقف من السياسة ومن ارتباطها بالأخلاق منه، موقفاً مثالياً متجاوزاً للواقع القائم، ولكنه كان مثالياً واقعياً مرتبطاً بالواقع، بالمفهوم الموضوعي للمثالية، لا بالمفهوم المادي الذي ينكر المثالية في السياسة وفي السلوك الإنساني وفي الفكر والثقافة والإبداع من حيث هو. كان رحمه الله واقعياً يمتلك الوعي الرشيد، والفهم السليم، والرؤية الشمولية للعمل السياسي الذي يخدم أهداف الحزب التي هي أهداف الشعب ومطالب جماهيره. وكان يستمد واقعيته تلك من تاريخه النضالي، ومن تجاربه المتراكمة في العمل الوطني السياسي والتربوي والثقافي والديني، ومن ارتباطه بجموع الشعب ونزوله الى الشارع وعلاقاته الوثيقة بمختلف الفئات. ولذلك كان يرى أن الشعب المغربي لا تلبي طموحه وتستجيب لمطالبه سياسةٌ بدون أخلاق، لأن في ذلك مجافاةً لطبيعته، وتعارضاً مع خصوصياته الروحية والثقافية والحضارية. والسياسة إذا انحرفت عن هذه السبيل، تاهت وضاعت وفسدت وباءت بالفشل.

تعلمت من أستاذي المجاهد أبي بكر القادري أن الايمان بالله وبالإسلام ديناً ومنهجاً وشريعةً، هو أعظم قيمةً في حياة الإنسان المغربي، تأتي بعدها قيمة حبّ الوطن والانتماء إليه والإخلاص له والعمل من أجله والدفاع عنه، وأن الإيمان يقترن بالعمل، وأن العمل من أجل الوطن هو قمة العمل الذي ينهض به الإنسان، وأن هذا الضرب من العمل يتم عبر الانتماء الى الوطن من خلال العمل الحزبي الشريف الهادف إلى خدمة الشعب والنهوض به.

في الأزمات التي مرَّ بها حزب الاستقلال، سواء في عهد الحماية، أو في مطلع عهد الاستقلال، أو فيما وقع بعد ذلك من أحداث، كان التمسك بالمبادئ هو

العاصم من الزلل والمنقذ من الضلال – إن صح القول –، وكان الحرص على العودة إلى الأصول والثوابت والقواعد المذهبية والأخلاقية، هو سفينة الإنقاذ من الغرق. في سنة 1958، هبت رياح عاصفة كانت تهزّ الأوتاد ولكنها لم تقـوَ على اقتلاعها، فاستطاع حزب الاستقلال أن ينتصر على المؤامرة – ولابد أن نصفها بالمؤامرة لا بأي وصف آخر – وأن يبقى شامخاً قوياً، وأن يواصل المسيرة لبناء الدولة المغربية المستقلة الجديدة. وكانت العودة إلى مبادئ الحزب، أي العودة إلى أخلاق الحزب، هي مصدر القوة والمناعة والقدرة على الصمود وردّ التحدي.

استحضرت ما كان يقوله لي المجاهد الأستاذ أبو بكر القادري عن العلاقة بين السياسة والأخلاق، أثناء استغراقي في تأمل الوضع السياسي العام، ليس على مستوى حزب الاستقلال فحسب، ولكن على المستوى الوطني بصورة عامة. ولست أريد أن أكون متشائماً، فإن التشاؤم ليس من شيم المناضلين والمناضلات في حزب الاستقلال، ولكنني أجنح إلى الواقعية في الحكم على الأشياء وتقييم الأوضاع وتفسير الظواهر، ومن الواقعية أن يكون المرء متفائلاً، لأن الأزمات تمر والعوارض تزول، وتبقى المبادئ الثابتة والأخلاق السامية والمثل العليا التي قامت عليها الحركة الوطنية التي يُعدُّ حزب الاستقلال مؤتمناً عليها. ولذلك، وكما تعلمت من المجاهد أبي بكر القادري الذي كان بحق ضمير حزب الاستقلال، فإنني متفائل وعلى يقين أن السحابة ستنقشع، وأن الصفاء سيعود، وأن الحزب سينتصر على الأزمة العابرة العارضة، وستعلو المبادئ الوطنية الاستقلالية فوق كل اعتبار، لأنه لا يصح إلا الصحيح.

ما أشد حاجتنا اليوم وغداً إلى الرجوع للدروس العظيمة التي نستخلصها من حياة بُناة الحركة الوطنية ورواد حزب الاستقلال، فهذه الدروس ليست من تراث الماضي، ولكنها معالم على الطريق نحو بناء المستقبل. ولا مستقبل لمن لا يستفيد من دروس الماضي ومن التراث النضالي المتراكم، وينطلق في العمل الوطني من القاعدة الأخلاقية.

لقد عبر الأستاذ محمد بوستة عن هذه المعاني السامية في الكلمة المؤثرة العميقة التي ألقاها في وداع رفيق دربه المجاهد أبي بكر القادري، فجمع وأوعى وكان بليغاً في مفرداته، حيث قال : «إن سيدي بوبكر - رحمه الله - وباستمرار وإلحاح وإصرار، كان يعتبر أن رسالة الحزب، لا ينبغي أن تقتصر على العمل السياسي أو الاقتصادي أو الجمعوي، أو على انتخابات للحصول على مؤسسات محلية بلدية أو مجالس إقليمية أو جهوية أو حتى وطنية، ولكن يجب أن تكون من مهام الحزب، بل مهمته الرئيسَة، الدعوة للتمسك بالدين الإسلامي بقيمه ومبادئه في سلوكنا، في تعاملنا بيننا، ومع غيرنا. وهذا ما كان يلح عليه ويردده في كل اجتماعات الحزب وهياكله ومؤسساته، وفي كل المناسبات».

في الجزء الرابع من (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**) - القسم الثاني : الصادر سنة 2005 - نقرأ للمجاهد أبي بكر القادري ثلاث مذكرات رفعها إلى الأمين العام وإلى اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال، كلها دعوة إلى الالتزام بالأخلاق في السياسة، وتصحيحٌ لمسار العمل الوطني على قاعدة القيم الدينية. وهي مذكرات ثلاث بالغة الأهمية تنشر للمرة الأولى، وجديرة بأن تقرأ في هذه الأيام، ويتدبرها ويتأملها ويتعمق فيها المناضلون والمناضلات الاستقلاليون.

دروس من أبي بكر القادري في الوحدة الوطنية

من الدروس التي تعلمتها من الأستاذ المجاهد أبي بكر القادري، سواء من خلال الاحتكاك المباشر به لمدة تزيد عن ربع قرن، أو من خلال قراءة مؤلفاته ومقالاته وأوراقه، أن الوحدة الوطنية قضية مقدسة، وأن قوة الدولة المغربية في وحدتها الوطنية الجامعة لفئات الشعب وراء جلالة الملك، وأن مستقبل المغرب في وحدته الوطنية. ولذلك وجب التمسك بالوحدة في جميع الأحوال، واتخاذها وسيلةً لمواجهة الأفكار التي يسعى أصحابها لتمزيق المغرب وإضعافه.

إنّ إذكاء روح العصبية والتعصب لا يخدم هدفاً نبيلاً، ولا يحقق غاية شريفة يسعى إليها المجتمع. وإن إضرام نيران الفتنة العنصرية عملٌ من أعمال الاستعمار الذي ولّى وانقضى عهده؛ فلقد كانت سلطات الحماية المفروضة على المغرب من 30 مارس 1912 إلى 2 مارس 1956، تسعى دائماً إلى التفرقة بين عناصر الشعب المغربي. وللأسف لم يتوقف هذا السعي حتى بعد الاستقلال. ولاتزال بعض العناصر المحسوبة على أهل العلم والمعرفة، تمارس السياسة التي فشل المستعمرون فيها، فهم ينتهزون كل مناسبة للنفخ في هذه القِرْبَة المثقوبة، ولإحياء الخرافات التي قضى عليها نضال الشعب المغربي في كل بقعة من بقاع الوطن. بل إن النشاط الذي تقوم به هذه العناصر يفوق ما قام به المستعمرون في الماضي، فهي جادّة في مساعيها لإحداث شرخ في الكيان الوطني المغربي، وهي تتحرك خارج دائرة الدستور، وبعيداً عن طبيعة الشعب المغربي.

- نشر في 2005/3/2.

لقد قامت الحركة الوطنية المغربية على قاعدة الوحدة، حيث كان الشعب المغربي بجميع عناصره على قلب رجل واحد. والوحدة الوطنية المغربية تقوم على الإسلام الذي هو دين المغاربة، ومن ليس على دين الإسلام من اليهود المغاربة، ينضوي تحت لواء هذه الوحدة، فهؤلاء من النسيج الوطني. ولا مجال لأي كان لأن يزايد علينا أو يتهمنا بما ليس من أخلاقنا ومن خصوصياتنا الحضارية. كما تقوم الوحدة الوطنية بعد الدين الحنيف، على الارتباط بالعرش، فالجميع يدين بالولاء والطاعة والمحبة لجلالة الملك، فالملك في المغرب هو رمز وحدة البلاد، والممثل الأسمى للأمة، وضامن دوام الدولة واستمرارها، وهو حامي حمَى الدين والساهر على احترام الدستور. وقبل هذا وذاك، فإن الملك في المغرب هو أمير المؤمنين، وهو الضامن لاستقلال البلاد وحوزة المملكة في دائرة حدودها الحقة. وإذا كان الملك رمز الوحدة، فإن ذلك يعني كما هو واضح بداهةً، الوحدة الترابية، الوحدة الوطنية، أي النسيج الوطني الذي يجمع ألوان الطيف العِرقي على تنوّعها. وبهذا الإيمان، وبهذه الروح، ناضل المغاربة من أجل الحرية والاستقلال، وبهذا الإيمان وبهذه الروح يحفظ المغاربة كيانهم من التلاشي والانهيار، إذ لا سبيل إلى تقوية الجبهة الداخلية، إلاّ سبيل التشبث بهذه المبادئ وبتلك القيم.

ومن يَسِرْ في الإتجاه المعاكس، يخرج عن الصف الوطني.

إن الشعب المغربي يجتمع على الإسلام أولاً وقبل كل شيء، فهو حجر الزاوية في كيانه الوطني. والإسلام واحد لا تعدد فيه، وقد آمن المغاربة بالإسلام الواحد الذي لا تطرف فيه، ولا تزمت، ولا تزيُّد، ولا تشدّد. وليس في الإسلام ما هو نوري وما هو ظلامي، فالإسلام نور على نور، ومبادئه كلها أنوار، وهو يخرج الناس من الظلمات إلى النور. ومن الدجل والتخريف أن يُوصَف المسلمون بأنهم ظلاميون. فمن يطلق هذا الوصف الذي لا معنى له، هو من أهل الظلمات. وهنا ملاحظة جديرة بالانتباه، فلم يرد في القرآن الكريم

لفظ (النور) إلا مفرداً، بينما وردت (الظلمات) جمعاً. لأن النور واحد، والظلام ظلمات في الدنيا والآخرة.

هكذا آمن المغاربة، ومن يؤمن بغير ذلك، يخرج عن الجادّة التي سلكها هذا الشعب.

ثم إن ما يجمع الشعب المغربي، هو حبّ الوطن، والتعلّق به، والاستعداد الدائم للتضحية من أجله، من منطلق الوحدة الوطنية الجامعة لأشتات الشعب الشاملة لجميع عناصره وفئاته. وهذه المبادئ والقيم والمقدسات، متجذرة في وجدان الشعب المغربي، متأصلة في حياته.

ولقد كان الملك محمد الخامس رمزاً لهذه المبادئ والقيم والمقدسات، وهو الذي وحَّد الشعب الذي ربط بينه وبين الاستقلال، وهو الذي جمع الحركة الوطنية، فكان قائداً لها. ولم يحدث في أي عصر، ولا في أي شعب، أن قاد ملك متوّج ثورةً من أجلِ الوطن، كما قاد الملك محمد الخامس ثورة الملك والشعب. ثم إن الملك الحسن الثاني قاد الشعب نحو الصحراء حتى تحررت، وردّ عن البلاد كوارث كثيرة، سياسية، وإيديولوجية، فحفظ البلاد من المكاره والفتن، وحافظ على الوحدة الوطنية، وكان رائداً للتحديث والتطوير، وحمى الوطن من الزلازل العاتية. ولذلك يجب أن نستحضر ما قام به محمد الخامس والحسن الثاني من أجل تعزيز الوحدة الوطنية، واسترجاع الوحدة الترابية، والدفاع عن حوزة البلاد، يجب أن نستحضر ذلك كلَّه في كل حين.

وجاء جلالة الملك محمد السادس ليسير على نهج جده ووالده في حماية الوحدة الوطنية، وفي تقوية الكيان الوطني المغربي، وفي تجديد الدولة المغربية، من منطلق المبادئ والقيم والمقدسات. وها نحن نسير في هذه السبيل التي اختطها العرش، نحو دعم الوحدة الوطنية الجامعة الشاملة، فالملك هو الرمز المضيء، وهو الممثل الأسمى للأمة، أي للشعب المغربي الموحد.

لذلك فإن من يسعى لإثارة الفتنة، إنما يسير في الخط المعاكس. وقد ترددت أقوال زاعقة بمناسبة إحياء ذكرى الزعيم المغربي الفذ محمد بن عبد الكريم الخطابي، تنطلق من روح العصبية والعنصرية. والرد على أصحاب هذه الأصوات الزاعقة، يقتضي منا أن نقول إن الزعيم الخطابي مِلْكٌ للمغاربة أجمعين، وهو ليس مِلْكاً لفئة دون أخرى، لأنه زعيم مغربي، ورائد من رواد النضال ضد المستعمرين. لقد بدأ الزعيم الكبير حركته النضالية بجمع الصفوف، وبمحاربة العنصرية والعصبية والروح القبلية التي كانت تمزق البيئة التي تحرك في وسطها. فقد وحّد قبائل الريف، وامتدّ نفوذه إلى قبائل اجبالة، وكان عمله في هذا المجال، هو مصدر قوته وسطوته والطاقة التي حارب بها المستعمرين الإسبان. فهو قائدٌ مغربيٌّ جمع حوله الشعب المغربي في الشمال، وكان واعياً بضرورة تقوية الصف الداخلي، وحريصاً على أن يُحبط المحاولات التي كان يقوم بها الإسبان للتفرقة بين المواطنين سعياً وراء اختراق الجبهة الوطنية.

وما قام به الزعيم الخطابي كان نابعاً من إيمانه بالإسلام الذي يوحد بين المغاربة أجمعين، ومن إيمانه أيضاً بأن المغاربة شعب واحد. وللذين لا يعرفون، وهم كثْرٌ، أقول إن قبائل الريف اختلطت فيها الدماء البربرية والعربية، كما اختلطت في المناطق الأخرى. بل إن الزعيم الخطابي يعود في أصوله إلى العرب الذين نشروا الإسلام في هذا الوطن. وقبل الخطابي قام الزعيم أمزيان في المنطقة الشرقية من الريف في بداية العقد الثاني من القرن العشرين، بحركة مناهضة للاستعمار، وجمع حوله القبائل الريفية. وأمزيان شريف إدريسي حسني من آل البيت.

لقد كان بنعبد الكريم زعيماً وحدوياً، مغربياً قحاً، ولم يكن عنصرياً متزمتاً، جمع المواطنين على أخوة الإسلام، وما عرف عنه قط أنه عبر عن انحيازه لجهة من المغرب على أساس العرق واللسان. فقد عاش في فاس دارساً في القرويين التي كانت تجمع طلاب العلم من أنحاء المغرب وإفريقيا، وأقام مع أسرته فترة

في تطوان قبل دخول الحماية. فهو أبعد الناس عن العنصرية. بل كان نموذجاً مُشعاً في العالم العربي الإسلامي وفي العالم الثالث عموماً.

وأذكر أنني التقيت ذات يوم مصادفة في دمشق، مع الأستاذ منصور الأطرش، الوزير السوري السابق[1]، ونجل الزعيم السوري المجاهد سلطان الأطرش، الذي كان قائداً للثورة العربية السورية ضد فرنسا في منتصف العشرينيات من القرن الماضي. فقال لي إن والده الأمير سلطان الأطرش، تعلم من محمد بن عبد الكريم الخطابي درساً في توحيد صفوف الشعب على مبادئ النضال ضد المستعمر الفرنسي، وأضاف قائلاً : «إن المجاهدين العرب السوريين بقيادة والده سلطان الأطرش، كانوا يتابعون باهتمام أخبار الانتصارات التي كان يحققها بنعبد الكريم». وأخبرني أنه لما كان طالباً في فرنسا، قرأ كتباً عن الخطابي صدرت باللغة الفرنسية، جلُّها تؤكد على أن من مصادر قوة الزعيم المغربي حفاظه على الوحدة الوطنية في بيئته.

وثمة جانب في حياة بنعبد الكريم تقع الغفلة عنه في معظم الأحوال، وهو أنه عالم فقيه درس في القرويين، وفي المعهد الديني بتطوان الذي كان مقره في الجامع الكبير قبل عهد الحماية لفترة قصيرة، فهو قائد مغربي مسلم معتز بإسلامه. فهل نقول عنه إنه كان ظلامياً ؟، أو نقول عنه إنه كان زعيماً عنصرياً متعصباً ؟، أو نقول عنه إنه قاد الثورة لتحرير البربر من العرب ؟، أو نقول عنه إنه كان يبغض العرب والعروبة ؟.

هذا كله هراء، ومن يقل بذلك أنصحه بأن يعرض نفسه على طبيب للعلاج.

نعم قيل هذا الكلام، ويقال، وسيبقى يتردّد. إن المغرب للمغاربة أجمعين، وليس لفئة دون أخرى. ثم كيف نفرق بين البربري والعربي، إن جل المغاربة اختلط فيهم الدم البربري (الأمازيغي) بالدم العربي. ألم يحتضن البربر

---

(1) لمنصور سلطان الأطرش مذكرات شخصية بعنوان (الجيل المدان : سيرة ذاتية)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت–لندن، الطبعة الأولى، 2008.

الأمازيغ إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن سيدنا علي بن أبي طالب، وبايعوه ملكاً عليهم ؟. ألم يكن أخوال إدريس من البربر الأمازيغ؟. ثم، وهذه مسألة في غاية الأهمية، أليس جل ملوك المغرب وسلاطينه من أمهات بربرية أمازيغية ؟. أليس في ذلك كله ما يؤكد أن القول بالنعرة العنصرية، خروج عن الصف الوطني، لأننا كلنا شعب مسلم يجمعنا عرشٌ امتزجت فيه الدماء العربية والبربرية والأمازيغية والإفريقية والإيبرية.

إن قوة المغرب في وحدته الوطنية، فهل هؤلاء يسعون إلى النيل من قوة المغرب ؟!.

إنني أستحضر أمامي الآن نصائح المجاهد أبي بكر القادري، وأتمثّل الدروس التي استفدتها منه، كلما حزب الأمر، وادلهمت الخطوب، وشاع في مجتمعنا الفكر الهدّام لوحدة الصف الممزّق للنسيج الوطني المتآمر ضد سيادة الوطن ومقدساته.

لقد تعلمت من أستاذي أبي بكر القادري أن الخطر الذي يحدق بالمغرب في حاضره وفي مستقبله، هو السعي لتمزيق وحدته الوطنية واختراق جبهته الداخلية، وإضعاف نسيجه الوطني. لقد كان يقول، رحمه الله، «أنا قادري مريني صنهاجي»، لأن والدته من الأسرة المرينية، والمرينيون برابرة من صنهاجة، وكانت لهم دولة عظمى في المغرب خدمت الإسلام والثقافة العربية الإسلامية. ويعدّ العصر المريني في تاريخ المغرب من أزهى عصورنا التاريخية، توطدت فيه أركان الثقافة العربية الإسلامية، وامتدَّ الإشعاع المغربي الثقافي والحضاري إلى أبعد المدى.

أبو بكر القادري شاهد على مرحلة حرجة من تاريخ المغرب

تعدُّ (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**) للأستاذ المجاهد أبي بكر القادري، إضافة قيّمة المستوى بالغة التميز رفيعة القدر، إلى المكتبة التاريخية السياسية المغربية، فلقد كشف المؤلف في الجزء الثالث من هذه المذكرات التي صدرت أخيراً[1]، الحقائق المتعلقة بمرحلة حرجة من تاريخ المغرب، وذلك بصفته شاهداً على تلك الفترة الدقيقة من تاريخ الحركة الوطنية المغربية في الطور الثاني من أطوار نضالها في عهد الاستقلال.

والمؤلف شاهدُ صدق في هذه المذكرات، يروي الحقائق ويسرد الوقائع، ويستعرض المراحل التي عاشها عن قرب، والتي شارك في صنع بعضها.

وتسري في المذكرات روح وطنية انطبعت بها حياة الأستاذ المجاهد أبي بكر القادري منذ مطلع شبابه المبكر، في أوائل الثلاثينيات، حينما تصدى مع إخوانه في الحركة الوطنية، من كتلة العمل الوطني، إلى الحزب الوطني، إلى حزب الاستقلال، لمواجهة المستعمر بالوسائل التي كانت متاحة عهدئذ، وهي النضال الوطني السياسي والفكري والثقافي والتعليمي، للدفاع عن هوية المغرب وسيادته والعمل من أجل استقلاله.

وبهذه الروح كتب المؤلف هذا السفر النفيس من أسفار تاريخ الحركة الوطنية المغربية في النصف الثاني من الخمسينيات، فجاء كتابه (الجزء الثالث

- نشر في 2000/5/4.

(1) صدر من هذه المذكرات ستة أجزاء في ثمانية كتب.

من مذكراته) نابضاً بالصدق والنضال، وبالحق الذي لا غبار عليه والذي يدمغ الباطل ويكشف عن بطلانه ويفضح عواره.

ولعل أحسن من يقدم هذا الجزء من مذكرات الأستاذ أبي بكر القادري، هو المؤلف نفسه الذي يقول في المقدمة الضافية المهمة والمفيدة جدّاً التي أحسبها وثيقة بالغة الأهمية، والتي لا بأس أن أنقل منها فقرات بكاملها، حتى تتضح الحقيقة أمام القارئ، خاصة الأجيال الجديدة التي وقعت فريسة للتضليل والكذب وقلب الحقائق :

(لدى اهتمامي بكتابة مذكراتي في الحركة الوطنية، دعتني بعض الظروف لكتابة فصل خاص عن حركة الانفصال التي قام بها بعض الإخوة في يناير 1959، والتي أعطوها اسم الانتفاضة، وهكذا شرعت في كتابة ما بقي في ذاكرتي عن تلك الفترة. كتبت بروح موضوعية، مستنداً ومستدلاً فيما كتبته وحررته في الغالب، ببعض الوثائق ومحاضر الجلسات والبيانات والرسائل، التي كنا نوجهها من اللجنة التنفيذية أو من المركز العام للحزب للفروع).

(ولا أخفي أنني في تلك الفترة كنت - وأرجو أن أبقى دائماً - أنظر إلى إخواني الذين تعاونت معهم في السراء والضراء، بروح الأخوة التي جمعتني بهم طوال السنوات العديدات، وأخوف ما كنت أخاف منه، أن يتمزق الشمل، وتتفرق الجماعة، وتفتح الأبواب أمام الأعداء المتربصين من الخونة المارقين، الذين كانوا يتربصون الدوائر بالحركة الوطنية جميعها، وبالمواطنين كيفما كانت اتجاهاتهم وألوانهم).

(ولا أحتاج أن أذكّر بالرجوع إلى الأحداث والوقائع التي ابتدأت بعد إعلان الاستقلال، والتي حُضّر لها من طرف الاستعماريين، لدى الشروع في مفاوضات إكس ليبان، والتي تكاثرت وتتابعت خلال السنوات التي أعقبت سنة إعلان الاستقلال. فلقد عشنا فترات حالكة لدى وجود الحكومة الأولى، ثم زادت واستفحلت في الحكومات التي أعقبتها. ولا أحتاج أن آتي بالأمثلة،

فحركة عدي وبيهي، ومآسي الريف، وتأسيس وتكوين حركة (فديك)، إن هي إلا أمثلة صادعة بأن المتآمرين على المغرب من استعماريين ومعاونيهم، جادون في خلق المشاكل لنا في الطريق، حتى لا نستطيع أن نبني استقلالنا على أسس قوية. وكنت موقناً ومؤمناً تمام اليقين والإيمان، بأن الشرط الأول في نجاحنا، هو في وحدة صفنا وتعاوننا التام الوثيق مع بعضنا، وشد أزر إخواننا الذين عهدنا إليهم بمهمات متعددة، سواء أكانت مهمات حكومية أو شعبية. ولقد زدنا إيماناً بأن هذا التعاون الوثيق، هو الضمان الأول للنجاح، وأن العمل الوحدوي كفيل بتحقيق الآمال، والتغلب على الصعوبات).

(لقد كنت أرى وأدرك، ونحن في معمعة الكفاح، أن الطريق شائك وصعب، وأن الأفكار والإدراكات تكون أحياناً متباينة، وقد تكون متضاربة، ولكننا تعودنا على ذلك خلال فترات كفاحنا الطويل في فترة الاستعمار).

(وجاء الاستقلال ليمتحننا من جديد، ولكنه الامتحان الصعب الذي سمّاه الرسول عليه السلام بالجهاد الأكبر، فدخلناه أولاً بنفس الروح، ونفس العزيمة، ونفس الإرادة، وتوضّح لدينا أن معركة البناء ليست كمعركة الإعداد للبناء، وأنه إذا ما كانت لدينا قوة إيمانية، فإنها يجب أن تتضاعف وتتقوى، لنواجه الأحداث بما تستحقه من عناية وصبر، ودأب وتخطيط، ونظر إلى المستقبل بعين الواقع، وبالفكر المتبصر، وبالتضحية اللازمة، والتغاضي عن الجانبيات).

(لقد لاحظنا أن جيلاً جديداً التحق بنا، ومن الواجب الاستفادة منه، والاعتماد عليه، والتعاون معه، والثقة به. وهكذا صرنا معه يداً في يد، وأسندنا إليه كثيراً من المهام الكبرى، سواء في الميدان الحكومي، أو الميدان الشعبي، فأصبح جزءاً صحيحاً منا لا يتجزأ، وبرهن بالمحسوس، على مقدرته وكفاءته وتحركاته وتحمله لمسؤولياته، بما كان يدعو إلى الفخر والاعتزاز).

(ومن الطبيعي أن تحدث اجتهادات واختلافات في بعض الأنظار، خصوصاً ونحن في تجارب جديدة في مجال البناء، ولكن هذه الاختلافات والاجتهادات، يتغلب عليها بالمناقشة والحوار، والمذاكرة والإقناع، وما لا يدرك كله يدرك بعضه، فتتابع الظروف وتعاقبها، يكشفان كثيراً من الحقائق التي لا تدرك في الوهلة الأولى، والتقديرات وما يحيط بالقضايا والمشاكل من تنوعات، وقد تختلف الأنظار إليها اختلافاً لا ينبغي أن يؤدي إلى القطيعة، والآراء لا تفرض بالقوة ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة**﴾ والتحلي بالصبر والمداومة على طرق الإقناع، هما اللذان يوصلان إلى الطريق السليم).

(ولقد سار حزبنا طوال مدة كفاحه، في وحدة متناسقة، وليس معنى هذا أنه لم تكن اختلافات في الآراء في بعض الأحيان، واختلافات في التحليلات، ولكن الأمر كان ينتهي في الأخير إلى وحدة، ولربما إلى تنازل اختياري من بعض الأطراف، إلى الطرف الآخر، حفاظاً على وحدة العمل، وعلى وحدة المواجهة للخصم، وقفلاً للأبواب التي ينتظر الخصوم أن تشرع أمامهم).

(والشيء الذي لابد أن أسجله بمنتهى الارتياح، أن تلك الاختلافات في الرأي، كنا نتغلب عليها بأمرين اثنين : أولهما، أن تبقى داخلية فيما بيننا فلا تخرج إلى الشارع ليستفيد منها الخصوم، وثانيهما : أن نلتجئ إلى الأغلبية التي لها الحق في التقرير، إن لم نصل إلى الإقناع، فيد الله مع الجماعة. وهكذا لا تمر فترة وجيزة، حتى ترجع المياه إلى مجاريها، ونجد أنفسنا صفاً واحداً، وجسماً متحداً، نواجه الاستعمار بجبهة متراصة).

(هكذا عشنا طوال فترة مواجهتنا للاستعمار، وهكذا ساهمنا المساهمة العملية - والحمد لله - في تحقيق استقلال بلادنا، وتحريرها من ربقة الاستعمار. ولكن الأمر تغير بعد الاستقلال، فأنظار بعض إخواننا وتطلعاتهم المستقبلية، جعلتهم ينظرون إلى المشاكل نظرات استعجالية غير سليمة من الآفات التي يستحضرها إخوانهم، ويريدون الاحتياط لها، وتفكيرهم في بعض القضايا

والمشاكل، لم يكن بالقدر الكافي في التفكير المستقيم. وبالإضافة إلى ذلك كله، لقد تأثر بضهم ببعض النظريات والمذهبيات التي كانت تدفعهم إلى اتخاذ آراء وخطط لا يؤمن بها ولا يسلمها لهم إخوانهم).

(وإذا كانت حرية الرأي يجب أن تكون مضمونة للجميع دون استثناء، فإنه لا يصوغ بحال من الأحوال، أن يفرض رأي أو آراء على جماعة من الناس، دون رضى أو قبول منهم، فالميثاق الوطني، والمبادئ الوطنية والسياسية، لا تتغير بين عشية وضحاها دون تقرير وإقرار من الجميع. والتجديد في التفكير، وتطوير خطة العمل، والاستفادة من الأحداث والظروف، كل ذلك ضروري وأكيد وواجب حتمي، ولكن بشرط أساسي، هو الاتفاق على ذلك).

(لقد سرنا في المراحل الأولى من الاستقلال في خط واحد مستقيم، وكانت لنا مفاهيم ومقاييس متقاربة، إن لم تكن متحدة، سواء في الميدان الاجتماعي أو الاقتصادي أو غيرهما، والمفاهيم الاجتماعية والاقتصادية في نظرنا، ترجع إلى القيم الأساسية التي أتى بها ديننا الحنيف، ككليات لا تقبل التغيير في عمقها، كقيمة العدالة الاجتماعية مثلاً، ولا يمكنها أن يدخل عليها أي تغيير، وإن كان تطبيقها وتشكلاتها تتبع تطور الظروف والملابسات المجتمعية، فتوزيع الثروات، يجب أن ينظر إليه نظرة اجتماعية عادلة، ينظر فيها إلى مصالح مختلف الطبقات الاجتماعية، سواء منها الأغنياء أو الفقراء. ويظهر أن تغيير المفاهيم والقيم، أصبح ينظر إليهما في نظر بعض إخواننا، نظرات غربية محضة، دون أن تكون محصّنة بالعمق الإسلامي، بل ربما تنوسي البعد أو العمق الديني الإسلامي كدافع أساسي إسلامي في النظرة إلى الحياة، وإلى تكوين كيان المجتمع المغربي، كمجتمع إسلامي أولاً وبالذات. فالإصلاح مقبول ومرغوب فيه، وتكوين المجتمع وتطويره لما هو أفضل، من الضروريات الأساسية التي لابد منها، ولكن المنبع والمرجع الذي نستمد منه، ومن أجله نخدم مجتمعنا، هو المرجع الإسلامي الحقيقي الداعي إلى العدل والحق، لا يمكن أن نغفل عنه

أبداً، مهما كانت الظروف والتقلبات. ومن هنا يتبين اختلاف نظرة بعض إخواننا إلى إخوانهم المؤسسين، فليست القضية، قضية زعامة، أو قضية أبوة، أو صداقة شخصية، ولكنها قضية مبادئ ندين بها ربنا الخالق سبحانه).

(ولقد سبق لي شخصياً، أن أجريت حواراً طويلاً مع أخي المرحوم عبد الرحيم بوعبيد، ونحن جميعاً بسجن القنيطرة، وذلك سنة 1954، وكان عبد الرحيم متشبثاً بعد رجوعه من باريس، ببعض الأفكار الاشتراكية الغربية، فناقشته في أصولها الأصلية، والتمست منه أن يطعمها بالمراجع الإسلامية، كما كنت أفهمها إذ ذاك، فأجابني – على ما أذكر – لا بإجابة الرفض المطلق، ولكنه قال : إنه لم يدرس هذا الموضوع أثناء دراسته الاقتصادية).

(أقول هذا الذي قلته ولأول مرة، لأني قرأت أخيراً، كتابات لبعض الأساتذة الذين أحترمهم لعمق تفكيرهم، وصدقهم فيما يعبرون عنه ويشرحونه. فلقد تحدث الأخ الدكتور محمد عابد الجابري عن الرجعية والتقدمية، والرجعي والتقدمي، وشرح ما يفيد أن التقدمي هو المتشبث بالفكرة، والمدافع عنها، والمتجرد عن عبادة الشخص الطائع له، والرجعي هو غير ذلك، أي الذي لا يؤمن بفكرة ويقلد الشخص، ويسير في هديه بتقليد أعمى. ولعله يشير بهذين المثالين إلى المنفصلين عن الحزب، من جهة، وإلى مؤسسيه وقيادييه من جهة أخرى. وإني أريد أن أؤكد له أنه لم يكن ولن تكون هناك طاعة عمياء لأي كان، وإنما هناك أفكار ومبادئ لابد من الرجوع إليها والتشبث بها، فالجميع والحمد لله تقدمي، إن كان هناك ضرورة لهذا التعريف. ودليلي على ما قلت وأقوله الآن، إن إخواننا الذين انفصلوا عن الحزب، وبالأخص الأخوين اللذين كانا عضوين في اللجنة التنفيذية، هما : عبد الرحيم بوعبيد والمهدي بن بركة، كانا سائرين خلال فترة الاستقلال كلها، ضمن إخوانهم الآخرين الذي عددهم تسعة أفراد، لا أربعة كما جاء في بعض التصريحات، وأنه خلال سنة 1958 بالذات، أي بعد ثلاث سنوات من السير

العادي الموحد، صارت تبرز بعض الاجتهادات الخاصة في الصحافة المتحدثة بلسان الحزب، فوقع اعتراض على ذلك، بأن الآراء الشخصية شيء والآراء والتوجهات الجماعية شيء آخر، وأنه إذا كان من حق الشخص، سواء كان في اللجنة التنفيذية أو غيرها، أن يتحدث أو يكتب ما يؤمن به من أفكار، فله ذلك، ولكن لا يصوغ له مطلقاً أن يحمّل إخوانه أفكاره وتوجّهاته، دون أن يعطوه هذا التفويض، فليس له ذلك. ومن أجل ما ذكر، فإن صحافة الحزب، سواء منها المتحدثة باللسان العربي أو باللسان الفرنسي، لا تعبّر إلا عن الخط الذي قررته الجماعة ككل، وفي حالة ما إذا كان لأي عضو رأي شخصي، أو اجتهاد خاص، فعليه أن يمضي ما كتب باسمه الخاص، ليعلم الجميع أنه رأي خاص).

(أوضح هذا لأؤكد أنه ليس هناك تدجين ولا فرض رأي من أي شخص معين، كيفما كانت حيثيته، فالالتزام بخط وقرار الجماعة، واجب حتمي، لا ينبغي الاعتراض عليه، وعلى الذي تكون له آراء واجتهادات خاصة في قضية من القضايا أو مشكلة من المشاكل، أن يعرضها على إخوانه الملتزم معهم، ولهم أن يناقشوها، ويقبلوا منها ما يوافقون عليه، ولهم أن يرفضوها إذا لم يقتنعوا بها، وفي هذه الحالة يكون على صاحب الرأي، إما أن يخضع لرأي الجماعة المنتمي إليها، وإما أن يكاشفهم برأيه الذي يؤمن به، ثم يأخذ طريقه وحده دون اعتراض من أحد، لأن الحرية لابد أن تكون مضمونة للجميع. وفي هذه الحالة يكتب ما يشاء، ويحلل كيف يشاء، ولكن باسمه أو اسم من يوافقه على آرائه واجتهاداته، لا بلسان الحزب الذي ينتمي إليه، أو الذي كان ينتمي إليه. ومن هنا فواجب الكاتب لمذكراته أن يكون خبيراً بأسباب النزول، مستوعباً للمشاكل التي كانت، عالماً بخفاياها وحقائقها، حتى إذا ما عرض لها، تكون أحكامه متسمة بالعدل والنزاهة والموضوعية، غير متحيز إلا للحقيقة وحدها).

هكذا، وبهذا الوضوح الصادق وبهذه الصراحة الشفافة، وبهذه الشجاعة الفكرية والجسارة العقلية، عبّر المجاهد أبو بكر القادري عن رأيه في موضوع

حسّاس طالما أعرض غيره عن الخوض فيه بهذه الصراحة، وهو موضوع تمزيق الصف الوطني والانقسام الذي حدث في سنة 1959.

إننا بإزاء شهادة تاريخية ذات قيمة رفيعة، يتعيّن علينا أن نتدبرها ونتعمق في فهم مقاصدها ومراميها، لأن فهم ما يجري في وقتنا الراهن في الساحة الوطنية، يتوقف على معرفة حقائق تاريخنا المعاصر، وهي الحقائق التي يروي الأستاذ أبو بكر القادري جزءاً مهماً منها، ظل طيَّ الكتمان، أو تعرّض للمسخ والتشويه والتزييف والتحريف والتزوير.

إن تاريخ المغرب يجب أن تعاد كتابته على ضوء الحقائق التي يرويها المجاهد أبو بكر القادري. ولقد جاء هذا الجزء من المذكرات وافياً بالقصد، ومحققاً للغرض، في حدود الحقبة التي تعرض لها، وفي دائرة الأحداث التي تناولها.

إن القيمة الغالية لهذا الجزء من (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**) تأتي من الأهمية البالغة التي يكتسيها الدور الذي قام به المجاهد أبو بكر القادري في الحركة الوطنية، ومن شخصيته الفذة الأسرة النافذة، التي تجعل منه أباً متميزاً من آباء الحركة الوطنية ومن أُباتها المخلصين ومن بُناتها المناضلين. وقد خصص المؤلف هذا الجزء لمؤتمر طنجة لوحدة المغرب العربي الذي عقد في شهر أبريل 1958، وكان الأستاذ أبو بكر القادري من أركانه ومن العاملين على تنظيمه وإنجاحه.

لقد نشرت هذا المقال في مايو سنة 2000. وبعد الرجوع إليه لضمّه إلى هذا الكتاب، تبيّن لي أنه يعبر عن المرحلة الراهنة أَوْفَى ما يكون التعبير. فلقد تعرضت خلال هذه المرحلة، المبادئ الوطنية لهزة شديدة، واختلطت الأوراق وساد جوّ من الارتباك بحيث راج إفك كثير وفَشَا دَجَلٌ كبير، فتراجعت الحقائق التي كانت القاعدة الصلبة للحركة الوطنية. وفي ظل هذه الأجواء، ما أحرانا إلى الرجوع لكتابات المجاهد أبي بكر القادري، حتى تتبين لنا معالم الطريق، ونميز بين الحق والباطل.

تواصل الأجيال
وجسور نحو المستقبل

إن موضوع تواصل الأجيال وإقامة جسور الانتقال من مرحلة تاريخية إلى أخرى، في سلاسة وتلقائية ومن دون تصادم بين الأفكار والاختيارات ونظم الحياة، شغل مفكري النهضة في العالم العربي الإسلامي منذ القرن التاسع عشر. ولايزال هذا الموضوع المهم يشغل المفكرين والمربين والمخططين الاستراتيجيين في هذا العصر، لارتباطه الوثيق بتطور الأفكار ونمّو المجتمعات وتحديثها والنهوض بها، خاصة في هذه المرحلة العصيبة التي تكتسح فيها عواصف العولمة الحياة الاجتماعية وتغزوها غزواً عارماً، نتيجة للمتغيّرات العميقة التي تهزّ ثوابت المجتمعات الإنسانية هزّاً عنيفاً.

فكرت على هذا النحو، بعد أن فرغت من قراءة كتاب الأستاذ المجاهد أبي بكر القادري (**رسائل أبوية من والد إلى أولاده**) الذي صدر أخيراً[1] في 575 صفحة من الحجم الكبير، وطبع في مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء. لقد رسم الأستاذ أبو بكر في هذا الكتاب الفريد من نوعه في المكتبة المغربية، بل أكاد أن أقول في المكتبة العربية، منهجاً رشيداً للتربية والتوجيه على المستويات الثلاثة ؛ الديني والأخلاقي، والسياسي والوطني، والإنساني العام، ووضع أسس منهجه استناداً إلى تجربته وخبرته، وتربيته وثقافته، ونضاله ووطنيته، وإن كان قدم لنا هذا المنهج القويم في صيغة غير مباشرة، ولكنها واضحة المعالم، مُحكمة النسيج، مترابطة ومتناغمة ومنسجمة. فإذا بنا بإزاء جنس من السيرة

- نشر في 2004/4/4.

(1) في سنة 2005.

الذاتية، ونمط من أدب السجون، وشكل متميز من أدب الرحلات، وكتابٍ في التربية المنهجية والتوجيه الحكيم غير مسبوق.

وفضلاً عن أن هذا الكتاب هو إضافة إلى مذكرات الأستاذ أبي بكر القادري التي صدرت منها ثلاثة أجزاء[2]، فإنه بالمقياس المنهجي، إسهام بالغ القيمة والأهمية في الفكر التربوي، وفي الفكر السياسي، وفي التاريخ الوطني، وفي التسجيل الأمين لوقائع وأحداث وتحولات ومتغيرات عاشها المغرب منذ مطلع الأربعينيات إلى أوائل الثمانينيات من القرن العشرين. فهو كتاب جامع، وليس مجرد رسائل أبوية عادية من والد إلى أولاده كما جاء في الغلاف ؛ ففيه الرأي والتعليق، وفيه الشهادة على العصر، وفيه عصارة حياة ورحيق عمر، وفيه الحكمة المستخلصة من الكفاح من أجل الحرية والكرامة والعزة والاستقلال.

ولقد بسط لنا هذا الكتاب صفحات من تاريخ المغرب في عهد الحماية، وفي بداية عهد الاستقلال، وفي مرحلة المخاض الصعبة التي مرّ بها المغرب في الفترة الممتدة من عام 1959 إلى عام 1975. فلقد كان المجاهد أبو بكر القادري حريصاً على الخوض في الشؤون الوطنية العامة في الرسائل التي كان يوجهها إلى أبنائه وبناته، سواء وهو في السجن، في عام 1944 بعد الأحداث التي أعقبت تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال، وفي عام 1952 على إثر الأزمة التي وقعت في ديسمبر من ذلك العام بمناسبة الاحتجاج على اغتيال الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد، أو وهو يقوم بزيارات متعددة إلى العديد من الأقطار، من الصين وأندونسيا وماليزيا والاتحاد السوفياتي السابق شرقاً، إلى الولايات المتحدة الأمريكية غرباً، ومن البلاد العربية والإفريقية، إلى الدول الأوروبية، أو من المغرب حيث كان - ولايزال - يخوض المعارك الوطنية من أجل وطن حرّ ومواطنين أحرار. ففي كل هذه المراحل، ومن كل هذه الجهات، كان يرسل رسائله إلى أبنائه وبناته، ويعيش معهم، ويشاركهم كل صغيرة وكبيرة، ويُشركهم

---

(2) صدرت في ستة أجزاء من ثمانية كتب.

فيما يعيشه من أحداث، ومشاهدات، ولقاءات، وزيارات، وقراءات، ويضعهم حيثما كان، في صورة الواقع الذي يحياه، وفي الأجواء التي يعيش فيها.

ولـذلك نجد في هـذا الـكـتـاب آراء وتحليـلات وأفكـاراً وتـأمـلات، وردوداً واستنتاجات، نصائح وإشادات، ونقرأ فيما كتبه الأستاذ القادري إلى أولاده من رسائل، الحكمة والأدب، والتاريخ والجغرافية، والسياسة والوطنية، والأخلاق والتربية، كما نقرأ في تأثر شديد، مشاعر تفيض رقة ودفئاً، وخفقات قلب حنون، ودفقات الروح ونبضات الضمير وارتعاشات الوجدان، في رسائل أبوية هي قطعة من الأدب الراقي الذي هو جدير بالقراءة وبالتأمل وبإمعان النظر فيه، لأنه يخاطب كل قارئ خطاباً مباشراً.

في الكتاب ثماني عشرة رسالة وجهها المجاهد أبو بكر القادري من السجن المدني بالرباط والسجن المدني بالدار البيضاء والسجن المركزي بالقنيطرة، إلى ابنه البكر الأستاذ خالد القادري، فقد وجّه الرسالة الأولى إليه يوم 15 يوليو 1944، وهو بعدئذ لم يبلغ السنتين من عمره، ثم وجه إليه رسائل أخرى في الفترة الممتدة من 23 فبراير إلى 17 يوليو 1954. وفي الكتاب رسالتان وجههما الأستاذ أبو بكر إلى زوجته الفاضلة الصبور - تغمدها الله بواسع رحمته - من السجن؛ الأولى من السجن المدني بالرباط في 19 فبراير 1944، والثانية من السجن المدني بالدار البيضاء في 26 فبراير 1954. وهما رسالتان مؤثرتان جداً، وقد أبى الأستاذ أبو بكر إلا أن ينشرهما في مستهل الكتاب.

ونقرأ في الكتاب أيضاً، ثلاث رسائل موجهة من السجن إلى ابنته الأستاذة كريمة القادري، الأولى في 10 مارس 1953 من سجن الدار البيضاء، والثانية في 7 يوليو 1953 من سجن الرباط، والثالثة في 20 أغسطس 1953 من سجن الدار البيضاء أيضاً. وللقارئ أن يتصوّر الأستاذ المجاهد أبا بكر القادري يكتب إلى ابنته رسالة من السجن في اليوم المشهود : 20 أغسطس من عام 1953. ففي هذا اليوم أقدمت سلطات الاستعمار الفرنسي على نفي جلالة الملك محمد

الخامس وولي عهده وأسرته الملكية إلى خارج الوطن. وأنا أميل إلى أن خبر هذه الجريمة النكراء لم يكن قد وصل بعدُ إلى السجن المدني بالدار البيضاء في الساعة التي كتب فيها المجاهد أبو بكر رسالته تلك إلى إبنته، لأن الجريمة كانت من القوة والهول بحيث تذهل الجميع.

واللافت للنظر وللانتباه العقلي المركز، أن الرسائل الواردة في هذا الكتاب والموجهة من السجن، لا نجد فيها عبارات التأسي والتألم والشعور بالضيق، بل نجد فيها قوة الأمل، والثقة العالية بالنصر وقرب الفرج، وسكينة القلب وطمأنينة النفس ورضا الضمير. كما نجد فيها التوجيه السديد، والاهتمام الدقيق بأمور الأسرة، وبأحداث الوطن، مع التركيز على تربية الأولاد وتعليمهم وتوجيههم الوجهة الصالحة، فهي رسائل مناضل صبور رابط الجأش ثابت الجنان مطمئن النفس، لا يخشى شيئاً، ولا يضجر ولا يتبرم، وإنما يفكر في مستقبل أولاده، وفي مستقبل وطنه. ومن هنا تأتي أهمية هذه الرسائل.

ونقرأ في هذه الرسائل تحليلات سياسية عميقة للأوضاع في المغرب في الخمسينيات والستينيات بشكل خاص، وهي تحليلات ترقى إلى مستوى عال من الفهم والوعي والإحاطة بالمسائل وإدراك أبعادها، ذلك أن الأستاذ أبا بكر لم يكن يترك شأناً من الشؤون العامة إلا ويخوض فيه في رسائله إلى أولاده، وبصورة خاصة في الرسائل الموجهة إلى الإبن البكر الأستاذ خالد أثناء فترة دراسته العليا في باريس. ونشعر في بعض هذه الرسائل، أن الكاتب يسعى بكل السبل إلى شرح وجهة نظره في قضايا يهمه أن تكون واضحة بالقدر الكافي لدى ولده الطالب في فرنسا، في المرحلة الدقيقة التي تموج بالأفكار والإيديولوجيات، معظمها كان معادياً للمغرب عقيدة وثقافة وحضارة ونظاماً. وأشهد أن هذه الرسائل قد كتبت بعقل متفتح، وذهن صاف، وبروح أبوية آسرة، بحيث كان لها التأثير القوي، وأتت أكلها. فلم تكن رسائل متزمتة، متشددة، كلها نصائح وإرشادات، ولكنها كانت رسائل تنبض بالحياة، وبالفكر المستنير، وبالفهم الموضوعي للقضايا والشؤون التي تناولتها.

وكذلك كان شأن الأستاذ أبي بكر القادري في جميع رسائله إلى أولاده، وإلى بعض أحفاده.

ولم يُنشر في هذا الكتاب أيّ ردّ من أولاد المؤلف على هذه الرسائل، ما عدا الرسالة التي وجهها الحفيد إبراهيم محمد الناصر القادري إلى جده في 11 أغسطس 2000، والتي بها ختمت رسائل الكتاب. ولقد وقفت أمام هذه الرسالة وأعدت قراءتها مرتين، لأنها تمثل عندي إحدى الثمار الناضجة لهذه الرسائل المفعمة بالحب والأمل والثقة في نصر الله والإيمان والإقبال على الحياة والتعلق بالعلم. إن هذه الرسالة، من الحفيد إبراهيم إلى جده أبي بكر، مثال لتواصل الأجيال. ولقد شعرت بالارتياح العميق بقراءتي لهذه الرسالة، لاطمئناني إلى أن البذرة التي زرعها المجاهد أبو بكر القادري قد أثمرت وأينعت.

وقد وجه الأستاذ أبو بكر القادري في مطلع الكتاب وفي ختامه، رسالتين عامتين إلى أولاده، أعدَّهما موجهتين إلى كل المغاربة، وهما جديرتان بالقراءة المتأنية، ففيهما من النصائح والحكمة والموعظة الحسنة، ما يهزّ المشاعر وينير الطريق أمام المستقبل.

ولابد أن أشيد بما كتبه المجاهد أبو بكر القادري، عن زوجته ورفيقة حياته وأم أولاده، الحاجة زينب الجعيدي، رحمها الله، فهي أم مثالية وشريكة حياةٍ امتدت أكثر من نصف قرن حافلةٍ بالنضال والتضحيات وبالعشرة الطيبة وبالذرية المباركة.

إننا أمام كتاب ذي منهج تربوي، أعدَّه شخصياً رسالةً من المجاهد أبي بكر القادري إلى كل مغربي اليوم وغداً.

رحيق الوطنية في إنتاج أبي بكر القادري

في عصر العولمة التي تمحو الهويات والخصوصيات، وفي عصر الحداثة التي تكسر الثوابت وتحطم المكونات، يصبح الحديث عن الوطنية ضرورة مؤكدة تبشيراً بها، وتأكيداً عليها، وترسيخاً لها، ودعوةً إليها، وانغماساً فيها. والوطنية في المفهوم المغربي، هي حب الوطن، والتعلق به، والانتماء إليه، والدفاع عن مصالحه، وحماية أمنه وسلامته، والتشبث بمقدساته، لا يُستثنى مقدس واحد منها. والوطني هو من يتشبع بهذه المفاهيم، ويتشربها، ويؤمن بها إيماناً ثابتاً، ويتصرف في حياته وفقها، فتكون حياته عملاً مسترسلاً من أجل الوطن، وتعلو عنده قيمة الوطن فوق كل قيمة، على اعتبار أن الوطن ليس تراباً فحسب، ولكنه إلى ذلك عقيدة دينية، ولسان، ونظام للحكم يحمي الوطن والمواطنين.

والأستاذ المجاهد أبو بكر القادري هو أحد أركان الوطنية المغربية، وهو الحصن المنيع الذي يُلجأ إليه حينما تتعرض الوطنية للهجوم الكاسح، كما تتعرض له اليوم، في هذه المرحلة التي يتنكر فيها البعض للوطنية، سواء أكان يدري أم لا يدري، لأن كثيراً من الناس يردد عبارات ومصطلحات ويدعو إليها من حيث يحسب أنها بريئة، بينما هي نقيض الوطنية. ولذلك فإن الوطني الكبير الرائد الباني، عندما يكتب عن رفيق له في الكفاح الوطني، يجب علينا أن نقرأ ما كتبه، لأن فيه روح الوطنية التي نحتاج إليها لنجتاز هذه المرحلة بسلام، ولنزداد قوة في وطنيتنا.

- نشر في 2005/12/28.

لقد أفرد الأستاذ أبو بكر القادري كتباً لشخصيات وطنية مغربية، وأصدر كتباً أخرى عن شخصيات غيرها. فصدرت له كتب عن محمد حصار، وسعيد حجي، والحاج عمر بن عبد الجليل، ومحمد اليزيدي، والحاج أحمد بلافريج[1]، وهؤلاء رواد الحركة الوطنية المغربية. ثم واصل الكتابة والتأليف، فأخرج لنا كتاباً جديداً عن قاسم الزهيري بهذا العنوان الجميل : (**قاسم الزهيري وإخاء سبعين سنة : مسيرة حياة في النضال الوطني والسياسي والصحافي**). وهو يحمل رقم 14 ضمن سلسلة (**رجال عرفتهم**).

وقاسم الزهيري من رواد الحركة الوطنية، ومن طلائع الصحافيين المغاربة، وهو شخصية وطنية فذة، تلقى الدروس الأولى في الوطنية على يد الأستاذ أبي بكر القادري، الذي ارتبط به، ودام هذا الارتباط الحميم أكثر من سبعين سنة. وقد قدم لنا المؤلف في هذا الكتاب صورة مشرقة الملامح لقاسم الزهيري الوطني الصادق، والكاتب الصحافي المدافع عن قضايا الوطن، ورجل الدولة الذي لم تبعده الوظائف التي تقلدها عن مبادئ الوطنية التي هي مبادئ حزب الاستقلال. وقاسم الزهيري من القادة المؤسسين لحزب الاستقلال، وكان من شباب (الطائفة)، التنظيم السري الوطني الذي تأسست منه كتلة العمل الوطني، ثم الحزب الوطني الذي منه انبثق حزب الاستقلال. وعلى الرغم من أن ظروفاً خاصة أبعدت قاسم الزهيري عن العمل في إطار حزب الاستقلال، في منتصف الستينيات، فإنه عاش حياته وطنياً على مبادئ حزب الاستقلال، يخدم وطنه من المواقع الوزارية والسفارية التي شغلها، بروح الوطنية الحق. وفي الرسائل التي نشرها المؤلف في هذا الكتاب، يظهر لنا قاسم الزهيري بروحه الوطنية الوثابة التي لازمته طيلة حياته.

يقول قاسم الزهيري في رسالة كتبها إلى أخيه أبي بكر القادري من بلغراد في يونيو سنة 1963، حين كان سفيراً لبلاده في يوغوسلافيا : «... وقد تسابقت

---

(1) صدر فيما بعد كتابان للمؤلف عن الأستاذ محمد الفاسي وعن الدكتور عبد الرحمن القادري.

الأحداث بسرعة فائقة، أثناء غيبتي، وبصورة لا أعتقدها وافية بالمصلحة. وسبق لي أن عبرت لك عن قلقي الشديد. وكل يوم يمر أزداد قلقاً، إن كثيراً من الملابسات تعوزني لإصدار حكم فيما يجري بالداخل. لكن القرائن وما يكتب في الصحافة التي تصلني، يدل على أن جوّاً من الحماقة والجنون، قد استولى على بلادنا». ومعروف أن تلك الفترة كانت فترة غليان مهدت لإعلان حالة الطوارئ. وقد أثبتت الأيام أن القلق الذي استولى على قاسم الزهيري، وهو في موقعه الديبلوماسي، كان قلقاً حقيقياً.

وفي رسالة أخرى بعثها قاسم الزهيري إلى أخيه أبي بكر القادري من بيكين، حيث كان سفيراً لبلاده في الصين، بتاريخ 8 فبراير سنة 1973، يقول : «إن الموضوع الذي أودّ التحدث إليك فيه، وهو وضع البلاد، وما يصلني من أخبار عما تتخبط فيه، وما يكتبه لي الأحبة والأصدقاء، وما تنشره الصحف من أخبار مزعجة. ومجرد الاطلاع على المواقف التي تتخذها الأطراف المعنية، يُشعر بصعوبة الوصول إلى حل، وبدون أن أوجه المسؤولية إلى أحد الأطراف دون الأخرى، أتساءل هل بقي في بلادنا من يزنون الأمور بميزان الحكمة، وتدبر العواقب، خاصة بعد الكوارث التي تعرضت إليها، والتي تنذر بمستقبل وخيم، والسياسة أخذ وعطاء، واتفاق على قاسم مشترك، لجلب المنافع ودفع الشرور المتوقعة، ومن يريد الاستئثار بكل شيء، يفقد كل شيء، وبالتالي تصبح المصلحة العامة في ضياع...».

ولست في حاجة إلى القول إن الفترة التي كتبت فيها هذه الرسالة كانت جد مضطربة، ولذلك فإن الأفكار والنصائح التي وردت في هذه الرسالة، تعبر عن الوطنية الحق. وفي الرسالة ذاتها يختم قاسم الزهيري بالقول : «إنه لمن المؤلم أن تفضي الحال في بلادنا، إلى ما آلت إليه، ألا يوجد بين صفوف العاملين، من يزن الموقف بميزان الحكمة، والمصلحة، لا بميزان العواطف الجامحة؟، فالعواطف – مهما تكن – غير صالحة لتقييم المواقف السياسية».

ومن موقعه الديبلوماسي في داكار، حيث كان سفيراً لبلاده في السينغال، يكتب قاسم الزهيري رسالة إلى أخيه أبي بكر القادري يعبر فيها عن رأي حكيم إزاء الحالة في المغرب، فيقول في هذه الرسالة المؤرخة في 30 أكتوبر سنة 1961 : «إنني أقرأ ما يكتب في الصحافة المغربية، وأطيل التفكير في كل ما يكتبه الجانبان، وأنتهي في كل مرة بالنتيجة الآتية : إن الحقيقة لا ينفرد بها جانب دون آخر، ولكن الجانب المخاصم لنا، إنما يتحرك عن سوء نية في كل ما يدعي، إن جل ما يصدر عنه من أفكار، حق أريد به باطل. إنني كلما فكرت، زدت اقتناعاً بأن المسؤولية فيما يشتكون منه اليوم من «حكم فردي» ترجع إلى تشتيت الكلمة الذين كانوا من أكبر العوامل فيه، والمعارضة البليدة التي يقومون بها اليوم، **ستؤدي إلى ما هو أدهى من الحكم الفردي**. كل ما نرتجي، هو أن يعود الجانبان إلى شيء من العقل، لتفهم المصلحة العامة على حقيقتها». وهذا كلام دقيق، وفكر حصيف، ورأي حكيم، لو عُمل به في تلك الأزمة التي زجت فيها البلاد، لما كانت كثير من الأزمات والمآسي. وواضح أن «الجانبين» المشار إليهما في هذا السياق هما من نعلم جميعاً.

ولاشك أن القراءة في هذه الرسالة التي كتبها قاسم الزهيري إلى أخيه أبي بكر القادري، تنير لنا الفهم السليم لكثير من الأزمات التي عرفها المغرب في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. ولذلك فإن نشر هذه الرسائل في كتاب (**قاسم الزهيري وإخاء سبعين سنة**) يحقق هدفاً نبيلاً دأب المؤلف على تحقيقه فيما يصدره من كتب. ولعل القسم الذي نشره الأستاذ أبو بكر القادري من (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**)[1] عن أزمة الانفصال في سنة 1959، يعبر عن هذا الهدف ويجسمه في الواقع. فقد كان ما حدث في سنة 1959 وبالاً على المغرب، وسبباً في دخول بلادنا متاهات سحيقة أشار إليها الأستاذ قاسم الزهيري في رسائله.

---

(1) الجزء الثالث الصادر في سنة 2000.

ومن الوثائق التاريخية المهمة التي نشرها المؤلف في هذا الكتاب، التقرير الذي كتبه الأستاذ قاسم الزهيري في سنة 1951 عن (**الأزمة المغربية : أسبابها وتطوراتها**). ويتعلق الأمر بالأزمة الحادة التي وقعت بين جلالة الملك محمد الخامس قدس الله روحه، والجنرال جوان، والتي ترجع إلى السنتين 1950-1951، والتي أدت إلى توقيع جلالة الملك على البروتوكول الذي وضعته الإقامة العامة، بموافقة رئيس الجمهورية الفرنسية، تحت الضغط والإكراه. وفي هذا التقرير تفاصيل ضافية، عن تطورات هذه الأزمة، التي - يقول الأستاذ القادري - يجب أن يطلع عليها المهتمون بقضايا معارك تحرير المغرب من قبضة الاستعمار.

والترجمة التي حررها المؤلف لأخيه الزهيري، على قصرها، تعطي لنا صورة عن بطل وطني، تسري الوطنية في دمه، عشق الوطن، وناضل في سبيله، وعاش حياته مكافحاً من أجل شرف الوطن وكرامته وعزة أهله.

وإذا كان لكل كتاب رحيق، فإن رحيق الكتاب الجديد للأستاذ أبي بكر القادري، هو رحيق الوطنية.

نعم، إنه رحيق الوطنية الحلو اللذيذ، نستطيبه ونستمتع به في زمن العولمة والحداثة الماحيتين لكل هوية، ولكل خصوصية، ولكل وطنية.

وحدة المرجعية ووحدة الهدف

من الأفكار النيّرة التي يرددها الأستاذ المجاهد أبو بكر القادري دائماً، أن السبب في نجاح الحركة الوطنية المغربية في تحقيق أهدافها، يعود إلى وحدة المرجعية، ووحدة الهدف والمصير. فمن حيث وحدة المرجعية، قامت الحركة الوطنية المغربية على أصول ثابتة، وانطلقت من قواعد راسخة، واستندت إلى مبادئ سامية. ومن حيث وحدة الهدف والمصير، فقد جعلت من استقلال المغرب وتحريره بإلغاء معاهدة الحماية وإبطال مفعولها، غاية مقدسة، ناضلت من أجلها، وكافحت على مختلف الجبهات في سبيلها.

فلقد كانت وحدة المرجعية حجر الأساس الذي انطلق منه الفكر الوطني المغربي مع مطالع القرن العشرين، قبل أن يتبلور في حركة وطنية انبثقت، في وسط شباب مغربي، عن وعي وطني مبكر، كان يقود خطى تلك العصبة الطيبة الأولى من الوطنيين في عدد من المدن المغربية، منها على الخصوص، فاس والرباط وسلا ومراكش وآسفي وتطوان وطنجة. لقد كانت الفكرة الوطنية أصيلة في منبتها، واضحة في منطلقها، ولم تكن تشوبها شوائب، ولذلك عملت عملها في إيقاظ الوعي الوطني، وفي إنارة معالم الطريق أمام طلائع الوطنيين الذين كان عليهم أن يقودوا الحركة على مدى ربع قرن، من عام 1925 إلى عام 1950، وأن يواصلوا المعركة في النصف الأول من الخمسينيات في طور جديد من المواجهة مع المستعمر، وأن يخوضوا المعركة الجديدة في عهد الاستقلال على المبادئ ذاتها التي انطلقوا منها.

- نشر في 2003/6/20.

كانت وحدة المرجعية تتمثل في التشبث بالمقدسات، الإسلام في الطليعة، ثم بالوطن المغربي بوحدته الترابية الكاملة غير القابلة للتجزئة، فبالعرش الذي هو رمز الوطن والجامع بين أبنائه والموحد لأطرافه، ثم بالوحدة الوطنية التي تجعل من الشعب المغربي بجميع أعراقه وأصوله، شعباً واحداً وكياناً بشرياً موحداً.

ولم تكن هذه المرجعية قيداً على الحركة الوطنية المغربية، ولكنها كانت مصدر قوة لها وطاقة لنضالها والقاعدة الصلبة التي قامت عليها. وكانت وحدة المرجعية مصدراً للوضوح الفكري والوضوح الحركي، بحيث كان المناضل الوطني واضحاً في فكره، واضحاً في ممارسته للعمل الوطني، وواضحاً في توجهاته، واضحاً في هدفه الذي يسعى من أجله. وكان هذا الوضوح المذهبي من الأسباب التي دعمت الوحدة الوطنية، وقوت ثقة الشعب في الطليعة الوطنية، وفي الحزب القائد للحركة الوطنية التي تطور من كتلة العمل الوطني، إلى الحزب الوطني، ثم إلى حزب الاستقلال، ابتداءاً من يوم الحادي عشر من يناير عام 1944، عندما قدم هذا الحزب وثيقة المطالبة بالاستقلال إلى سلطات الحماية، ليضع حداً بين مرحلة المطالب الوطنية المستعجلة وغير المستعجلة، وبين مرحلة الكفاح من أجل إنهاء عهد الحماية الأجنبية وإلغاء معاهدة فاس لعام 1912، والمطالبة الصريحة باستقلال المغرب وبناء أسس الدولة المغربية المستقلة.

وبوحدة المرجعية ووحدة الهدف والمصير، وبوحدة العمل الوطني، حقق المغرب الهدف الوطني المقدس، وهو الاستقلال بقيادة العرش، وبكفاح الحركة الوطنية الاستقلالية المنضوية تحت لوائه والمتضامنة مع الملك الذي كان رمزاً للكفاح الوطني، وملاذاً للوطنيين، وملهماً لهم وموحد الوطن حول قيادته. ولذلك سارت الحركة الوطنية المغربية في الطريق الواضحة المستقيمة التي لا اعوجاج فيها، وبلغت الغاية التي وضعتها وخططت لها، واجتمعت حولها، فلم تنحرف كما انحرفت الحركات الوطنية في بلدان أخرى، ولكنها واصلت النضال استناداً إلى المرجعية الواحدة، إلى أن استقل المغرب.

ولما تعدّدت المرجعيات واختلطت السبل في أواخل الخمسينيات، تاهت الخطى، وغامت الرؤية، ودخل المغرب في مرحلة طويلة من الارتباط والتخبط في المتاهات، فضاعت فرص ثمينة للبناء والنماء، إذ لم تعد المفاهيم الوطنية ذات مدلول واحد، بحيث تعددت المعاني واختلطت فيما بينها وسادها الغموض، حتى صار لكل فصيل مرجعيته، فجلب ذلك على المغرب الكوارث، وانخرطنا في الفعل المغرض وردّ الفعل العنيف، والتحدي ورد التحدي، والمواجهات والخصومات، وكان الضحية هو الشعب الذي ظل غارقاً في مشاكل وأزمات تفاقمت وتكاثرت وتضخمت، حتى إذا حان وقت المواجهة الحاسمة والعمل الجدي، صعب العلاج وأصبح ثمنه باهظاً، وثقلت الأعباء على كاهل العاملين للإنقاذ. وكان ذلك كله نتيجة لتعدد المرجعيات بعد أن افتقدت الحركة الوطنية وحدة المرجعية، وافتقدت معها وحدة الهدف والمصير.

ولقد كان المغرب عبر عصور التاريخ، دولة قوية ذات مرجعية واحدة، ففي القرن السابع عشر الميلادي، كان المولى اسماعيل عاهلاً عظيماً تنخلع له قلوب ملوك أوروبا، ويحسب له الخليفة العثماني حسابه. ويكاد أن يكون القرن السابع عشر في هذه المنطقة، قرن السلطان المغربي مولاي اسماعيل، إلاّ أن أبناءه الذي تولوا الملك من بعده، لم يكونوا في مستواه، فضعفت في عهدهم الدولة المغربية، إلى أن جاء حفيد مولاي اسماعيل السلطان سيدي محمد بن عبد الله، في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، ليرفع من منزلة المغرب في العالم، وليكون أول رئيس دولة في العالم بأسره، يعترف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية. وفي تلك المرحلة كان المغرب دولة ذات قوة وشوكة ونفوذ ووزن دولي، وكانت مرجعية الدولة المغربية واحدة لا تتعدد ولا تتغير.

وفي القرن الثامن عشر عرف المغرب عاهلين عظيمين، هما سيدي محمد بن عبد الله والمولى سليمان، اللذين كانا يجمعان بين الملك وبين العلم، وكانا بحق، من رواد النهضة العلمية الإسلامية في العالم الإسلامي في ذلك القرن.

والسلطان مولاي سليمان هو الذي تخطى أبناءه واختار الأمير عبد الرحمان ابن أخيه مولاي هشام، لولاية عهده، وليتولّى الملك في عهده متنازلاً له عن العرش، في سابقة عظيمة تنم عن عبقرية هذا العاهل، وتعبر عن ورعه وتقواه وفطنته وذكائه.

وكان هذا الاختيار الحكيم من مولاي سليمان لابن شقيقه عبد الرحمان بن هشام لولاية العهد ثم للجلوس على العرش في حياته، هو الذي أدى إلى تسلسل الملك في هذا الفرع المبارك من الأسرة العلوية من عهدئذ إلى هذا العهد. ذلك أن مولاي عبد الرحمان بن هشام هو الذي تولى العرش في مطالع القرن التاسع عشر، في تلك الفترة الحرجة التي تزايدت فيها المؤامرات الخارجية ضد المغرب. ففي بداية القرن التاسع عشر احتلت البلدان العربية والإسلامية جميعاً، من الهند وأندونيسيا إلى مصر وتونس فالجزائر، وضعفت الدولة العثمانية. وفي منتصف هذا القرن، عرف المغرب حربين ضروسين، هما حرب إيسلي في عام 1844، وحرب تطوان في عام 1860. وكان المولى عبد الرحمان بن هشام، ثم إبنه سيدي محمد بن عبد الرحمان، عاهلين عظيمين، يستمدان قوة لهما من المرجعية الواحدة. وجاء في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، المولى الحسن بن سيدي محمد بن عبد الرحمان، ليكون ثالث ثلاثة من عظماء ملوك المغرب، بل ملوك العالم العربي الإسلامي بلا مبالغة، الذين تركوا بصماتهم في القرن التاسع عشر الميلادي. وكان مولاي الحسن الأول آية في رجاحة العقل وقوة العزيمة والفطنة والذكاء، ولو امتد به العمر إلي مطلع القرن العشرين، لتغير تاريخ المغرب، لأنه انتقل، إلى عفو ربه في ظروف دقيقة مريبة، وخلفه من بعده نجله الأصغر مولاي عبد العزيز الذي كانت المرحلة أكبر من مؤهلاته وقدراته ومن إمكانات الدولة حينئذ، حيث استمر في الملك أربع عشرة سنة كانت أسوأ مرحلة من تاريخ المغرب الحديث من حيث التآمر الدولي ضد المغرب وضعف النظام وقصوره عن المواجهة المتكافئة.

وفي تلك الفترة حافظ المغرب على وحدة المرجعية، ولكنه لم يحافظ على وحدة الهدف والمصير، فتمهدت السبل نتيجة لذلك، نحو الحماية الأجنبية.

وخلف المولى عبد العزيز شقيقُه المولى عبد الحفيظ، الذي كان ثاني ملوك المغرب في العقد الأول من القرن العشرين، عاش على أريكة الحكم أربع سنوات، حيث تنازل عن العرش لشقيقه المولي يوسف بن الحسن الأول، في فترة عصيبة، عرف فيها المغرب ضعفاً عاماً سرى في كيان الدولة. ولعل من أهم ما يذكر في عهد مولاي يوسف (1912-1927) ظهور البوادر الأولى للحركة الوطنية، وقيام الحرب التحريرية في الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي (1921-1926)، وبروز التيار التحريري الفكري الذي ترعرعت في أجوائه طلائع الحركة الوطنية. في هذه المرحلة تبلور الشعور بوحدة المرجعية، وبوحدة الهدف والمصير، حتى إذا جلس على عرش المغرب الإبن الأصغر للسلطان مولاي يوسف، سيدي محمد بن يوسف، تمهدت السبل إلى نهضة وطنية انطلقت من حركة سياسية ناشئة، امتلك أقطابها الوعي الوطني. وكأن القدر كان يهيئ المغرب لانطلاقة جديدة يقودها ملك شاب هو السلطان سيدي محمد بن يوسف، (محمد الخامس) يسانده ويدعمه وطنيون شباب نشأوا في ظروف الحماية، وتشربوا أفكار النهضة وروح الانبعاث التي انطلقت من المشرق العربي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

وهذا التلاحم الفكري والوجداني والعملي بين الحركة الوطنية المغربية وبين العرش المغربي، كان من أكبر العوامل التي رسخت الإيمان بأهمية الحفاظ على وحدة المرجعية في العمل الوطني، وهو الأمر الدي أكسب الحركة قوة ومناعة وقدرة على دخول المعارك الوطنية في مراحل متعددة التي شقت الطريق أمام الاستقلال.

وهكذا كان تاريخ المغرب في جميع العصور، منذ أن قامت في المغرب دولة في الثلث الأخير من القرن الثاني للهجرة : شعباً موحداً بالإسلام الذي

تنصهر في بوتقته كل الأعراق والأجناس، وملتفاً حول العرش الذي هو النظام المغربي منذ إدريس الأول الفاتح، ثم من بعده إدريس الثاني الذي احتضنه أخواله البربر الأمازيغ الأحرار، وكان صورة مثلى لامتزاج الدم العربي بالدم البربري والأمازيغي في هذه البلاد، وإلى يومنا هذا.

وتتمثل وحدة المرجعية المغربية في جلالة الملك بصورة أشد وضوحاً، لأن جلالته، ومثلما هو الأمر في كل العهود، يمثل الخصوصيات المغربية الدينية والثقافية والحضارية. وهذه الصورة الواضحة المشرقة هي التي رآها الوطنيون المغاربة في الملك محمد الخامس في عهد الحماية، ثم في عهد الاستقلال، وهي التي رأوها في الملك الحسن الثاني الذي عمل على استكمال بناء الدولة المغربية العصرية، ووحد البلاد وحرر الصحراء، ووضع الأسس لدولة المؤسسات قبل أن يلقى الله. وهي الصورة الواضحة المشرقة التي يراها الشعب المغربي اليوم في جلالة الملك محمد السادس، الذي يجمع السجايا الوطنية والخصال المغربية المنبثقة من وحدة المرجعية ووحدة الهدف والمصير، ومن رصيد تاريخ المغرب.

من هنا تبدو الأهمية البالغة لقضية العودة إلى ترسيخ وحدة المرجعية، وإعادة تجميع قوى الشعب حول هذه الوحدة، وتجاوز كل الخلافات التي أدت إلى تعدد المرجعيات وإلى الضياع في دنيا المتاهات والأوهام.

إن ثمة ثوابت راسخة لا سبيل إلى تجاوزها، ولا يمكن التفريط فيها بأي حال من الأحوال، وتحت أي ظرف من الظروف. ولقد أثبتت التجارب أن المغاربة لما فرطوا في بعض هذه الثوابت مع نهاية الخمسينيات، تفرقت بهم السبل، وضاعت من بين أيديهم فرص التقدم.

إن وحدة المرجعية ووحدة الهدف والمصير من الثوابت الوطنية. ولقد كان دستور المملكة وفياً لهذه الثوابت، كما كانت الحركة الوطنية في جميع مراحلها

وفيةً كل الوفاء لها. ولا تتعارض هذه الثوابت مع شروط التقدم الحقيقي نحو الأرقى والأفضل والأحسن. كما لا تتعارض وحدة المرجعية مع التعددية في جميع مشاربها وتوجهاتها، لأن هذه المرجعية المغربية تمثل الإطار الأرحب والأوسع لتمازج الأفكار وتلاقحها وتفاعلها. وجلالة الملك هو الرمز الأمثل لهذه المرجعية أمس واليوم وغداً.

إن هذه هي السبيل نحو المستقبل الآمن المستقر المزدهر بإذن الله. ولا سبيل أمامنا غيرها. وهي السبيل الذي سار فيه المجاهد أبو بكر القادري وصحبُه، مناضلين من أجل تحرير المغرب، وبناء الدولة المغربية المستقلة. وتلك هي خلاصة الأفكار التي كان يرددها دائماً هذا المناضل الوطني الفذ.

أبو بكر القادري في مذكراته
حول الحركة الوطنية المغربية

لماذا يكتب القادة والزعماء وكبار الساسة والشعراء والأدباء والفنانون مذكراتهم ؟. ولمذا يقبل الناس على قراءة هذه المذكرات، والاهتمام بها، والتأمل فيها، والرجوع إليها بين الحين والآخر ؟. الجواب عن هذا السؤال الذي سقتُه في جملة طويلة، يمكن أن يختزل في جملة صغيرة ؛ إن الناس تقرأ مذكرات الشخصيات الكبيرة لتتعلم، ولتأخذ العبرة، من أجل أن تعيش بصورة أفضل، وفي سبيل أن توفر على أبنائها مشقة بناء المستقبل على غير أساس.

وحينما ينشر المجاهد أبو بكر القادري مذكراته تباعاً، في نَفَس منتظم، وكأنه يقف أمام محكمة التاريخ يقدم شهادته على عصر حافل بالأحداث وبالأزمات عاشَهُ، وشارك في صنعه، وناضل خلاله النضال الطوِّيل، حينما يفعل هذا المجاهد الوطني ذلك، فليس علينا إلا أن نُصيخ السمع، ونُطيل التأمل، ونراجع أنفسنا ونحاسبها، ونجدد العهد، ونقارن بين الماضي وبين الحاضر، ونستشرف المستقبل على ضوء ما نقرأه في هذه المذكرات.

إن قيمة المذكرات السياسية تُستمد من قيمة كاتبها، وكلما كان كاتب المذكرات مشهوداً له بالصدق والنزاهة والأمانة والنضال المستميت من أجل المبادئ التي آمن بها وانطلق للعمل مع إخوانه الوطنيين من أجلها، وجب علينا أن نتعامل مع ما يكتبه بروح من التجاوب والاندماج. ومثل مذكرات المجاهد

- نشر في 2005/2/16.

أبي بكر القادري قليلٌ ونادرٌ في تاريخنا المعاصر، إنْ على الصعيد الوطني، أو على الصعيد العربي بصورة عامة. ولذلك فمن حسن حظنا، وحسن حظ الأجيال المقبلة، أن وطنياً كبيراً ومناضلاً فذاً، قدم لنا عصارة حياته العملية لنقرأ ونستمتع، ولنتدبّر ونتأمل، ولنقارن بين ماكان، وبين ما هو كائن، ونتطلع من خلالها إلى ما سيكون.

وفي هذه المرحلة التي التبست فيها السبل، وكثر الهرج وعلاَ الصراخ، وفَشَا فيها خلطُ الأوراق، ووقع فيها التطاول على المقدسات، وامتهان الدستور، وأصبح فيها كل من هبّ ودبّ شاهداً على التاريخ، يروي ويحكي ويتجرأ على المساس بالثوابت وقلب الحقائق، ويفتي في التاريخ والسياسة وفي تقييم الرجال، تصبح قراءة مذكرات راقية نزيهة وأمينة يكتبها مناضل مغربي عالي القامة مثل الأستاذ أبي بكر القادري، ضرورةً وطنية، وليس فحسب متعة ذهنية، ونزهة فكرية في رياض مخضرة فيها قطوف دانية. هذه الضرورة الوطنية هي التي تدفعنا إلى الاحتفاء بما يكتبه المجاهد أبو بكر القادري، لنجدّد الثقة بالنفس، ولنحيي في نفوسنا الأمل، ولنتبيّن معالم الطريق إلى المستقبل. وبذلك تكتسب **(مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية)** للأستاذ أبي بكرٍ القادري، أهمية كبرى، ويُعدُّ اكتمال الجزء الرابع بقسميه الأول والثاني، حدثاً ثقافياً يتوجب علينا أن نحتفي به الاحتفاء الذي يليق به. فقد صدر أخيراً القسم الثاني من الجزء الرابع من هذه المذكرات، وبذلك يكون المؤلف قد أصدر مذكراته في 2014 صفحة من القطع الكبير، فالجزء الأول صدر في 519 صفحة، والثاني في 599، وصدر الجزء الثالث في قسمين أيضاً ؛ الأول في 134 صفحة والثاني في 381 صفحة، بينما صدر الجزء الرابع في قسمين كذلك ؛ أولهما من 160 صفحة، وثانيهما من 220 صفحة. ولم يُطاوعْني قلمي أن أكتب (الجزء الأخير) أمام كلمة (الرابع)، لأن المؤلف بصدد استكمال المذكرات بإصدار الجزء الخامس، متعه الله بالصحة وطول العمر[1].

(1) كتب هذا في سنة 2005، وقد صدرت (مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية) في ستة أجزاء من ثمانية كتب.

ولكني أرى - وأرجو أن أكون مصيباً - أن مذكرات المؤلف ليست هي تلك المنشورة تحت عنوان (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**) بأجزائها الأربعة فحسب، فقد صدرت للأستاذ أبي بكر القادري مجموعة من الكتب لا أتردد في اعتبارها من مذكراته الوطنية، وعلى سبيل المثال، أذكر منها كتاب (**قصة النهضة : سجل كفاح الحركة الوطنية المغربية من أجل مدرسة وطنية عربية إسلامية**) الذي صدر في عام 1984، فهو كتاب من صميم المذكرات، ويشتمل على نبذة وافية من حياة المجاهد أبي بكر في الطفولة والشباب المبكر، إضافة إلى صفحات النضال الذي قام به من أجل إرساء قواعد المدرسة المغربية في زمن الحماية، حينما كان المستعمرون يحاربون الشخصية المغربية والهوية الوطنية واللغة العربية والإسلام، ويضعون العراقيل أمام تلقين هذه المبادئ والثوابت للناشئة المغربية. والكتاب زاخر بالمعلومات والأحداث وجوانب مهمة من تاريخ المغرب في الثلث الأول من القرن العشرين، فهو إذن، جزء لا يتجزأ من المذكرات الوطنية لهذا المناضل.

كذلك يُعدُّ كتاب (**أبو بكر القادري : سيرة ذاتية في حوارات صحافية**) الذي صدر في عام 2001، قسماً من المذكرات. أما السلسلة التي أصدرها المؤلف بعنوان (**رجال عرفتهم في المغرب والمشرق**)، والتي تقع في اثني عشر جزءاً[2] متفاوتة الأحجام، فهي أيضاً من صميم المذكرات، لأن الكاتب يحكي فيها عن معرفته بطائفة من الشخصيات الكبيرة، ويورد قصصاً مليئة بالمعلومات والحكم والدروس، عن هذه الشخصيات، مع تحليل لأبعادها، وتعريف بالأدوار التي قامت بها. وهذا عمل من صميم المذكرات. ومما يرتبط بذلك كتب الرحلات التي نشرها، خاصة (**رحلاتي الحجازية : ارتسامات وذكريات عن ثلاث رحلات إلى الديار المقدسة**). وهو كتاب شيق صدر في عام 1995، أراه مكملاً للمذكرات. بل إنني أعدُّ الكتابَ الذي نشره المؤلف في العام الماضي (2004) تحت عنوان (**رسائل أبوية من والد إلى أولاده**)، ويقع في 573 صفحة من

---

(2) صدرت المجموعة في سبعة عشر جزءاً.

القطع الكبير، جزءاً لا يتجزأ من المذكرات، على الأقل في قسم كبير منه، لما اشتمل عليه من ارتسامات عن رحلات قام بها الكاتب إلى أقطار عديدة، وانطباعات عن الأحداث والوقائع التي عاشها، وتحليلات للأوضاع في المغرب والمشرق، وفي دول العالم الأخرى، من الصين والاتحاد السوفياتي السابق شرقاً، إلى الولايات المتحدة الأمريكية غرباً، وحرص على أن يكتب منها رسائل إلى أبنائه وبناته حفظهم الله. وفي هذه الرسائل نظرات عميقة، وتوجيهات وأفكار وانطباعات وعرض للأحوال ووصف للمعالم وتحليل للشخصيات، وفيها جوانب من حياته في السجن. وهي بذلك جزء لا يتجزأ من مذكرات الكاتب.

وفي القسم الثاني والأخير من الجزء الرابع الذي صدر أخيراً[3]، يطالعنا المؤلف بوثائق سياسية على قدر كبير من القيمة والأهمية، تتمثل في تسع مذكرات سياسية كتبها المجاهد أبو بكر القادري إلى كل من الأمين العام الأسبق لحزب الاستقلال الأستاذ امحمد بوستة، والأمين العام السابق لحزب الاستقلال الأستاذ عباس الفاسي، حول قضايا وطنية عامة استدعت أن يسجل الكاتب رأيه الوطني حيالها. إلى جانب المذكرة التي كتبها إلى رفيق الكفاح الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد الكاتب الأول الأسبق للاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، في 11 يناير عام 1962، وفيها تذكير بالمبادئ التي قامت عليها الحركة الوطنية، والتي اجتمع حولها الرجلان في مدينة سلا مع إخوانهما الوطنيين. أما المذكرات الأخرى فتتنوع بتنوع الشخصيات التي كتبت لها في مراحل سابقة، ولكنها تدخل ضمن اهتمامات المؤلف بالقضايا الإسلامية وانخراطه في العمل الإسلامي المشترك الهادف إلى خدمة الأمة الإسلامية وتعزيز وحدة العالم الإسلامي. فقد كتبت هذه المذكرات إلى كل من الأمين العام للمجلس الأعلى للمساجد، والرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين، ورئيس مجلس التنسيق الإسلامي الإفريقي، ورئيس مجلس النواب العراقي

(3) في سنة 2005.

السيد نعيم حداد الذي يصفه المؤلف بأنه كان من خيرة الوطنيين العراقيين، والذي لقيَ مصيره بالحكم عليه بالإعدام في عهد الطاغية صدام حسين وأعدم بالفعل. وكان قد التقى به الكاتب في بيروت في إطار الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية. والمذكرة التاسعة وجهها المؤلف إلى الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي الأسبق الشيخ محمد صالح القزاز في عام 1976.

وتتوضح لنا معالم شخصية الأستاذ أبي بكر القادري من خلال هذه المذكرات، فهو دائم الاهتمام بالإصلاح الوطني على مبادئ الحركة الوطنية التي تتمثل في حزب الاستقلال، وهو إلى ذلك عميق التفكير في شؤون العالم العربي الإسلامي، يربط أوثق العلاقات مع العاملين من أجل نصرة قضايا العرب والمسلمين، وهو بذلك قطب من أقطاب الفكر الإسلامي، ومناضل من أجل الإسلام والعروبة، له مكانته مع المناضلين من مختلف الأقطار والاتجاهات والمدارس، من دون أن يفقد خصائصه الثابتة، باعتباره وطنياً مغربياً متشبثاً بالمقدسات الدينية والوطنية المغربية.

إلى جانب هذه المذكرات السياسية، يشتمل هذا القسم على ست دراسات كتبها المؤلف في فترات متعددة، تتناول قضايا إسلامية من زوايا إنسانية منفتحة على العصر، إلى جانب قضايا عامة حرص المؤلف على أن يضمّها إلى هذا القسم، من ذلك المقدمة التي كتبها أبو بكر القادري للكتاب الذي يضمّ افتتاحيات جريدة **(الاستقلال)** لسان حزب الاستقلال الناطقة بالفرنسية التي كتبها الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد. وهي مقدمة مفيدة تُلقي الضوء على جوانب من شخصية المناضل الوطني عبد الرحيم بوعبيد.

وفي الكتاب فصول أخرى، منها حواران صحافيان مع المؤلف، أحدهما نشر في جريدة **(الشرق الأوسط)** في عام 1998، وثلاثة موضوعات، عن **(مهدي المرابطين : عبد الله بن ياسين)** ، و**(سيدي محمد بن عبد الله ودوره في الإصلاح)**، و**(الذكرى المائوية لوفاة صاحب كتاب الاستقصا)**. أما الموضوع

الذي تناول فيه المؤلف عبد الله بن ياسين، فقد كتبه في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي. وهو من إنتاجه القلمي المبكر جداً. وهناك خيط سميك يربط بين هذه الفصول جميعاً، يجعلها من صميم المذكرات، فهي ليست موضوعات جامدة، ولكنها تعبر عن شخصية المجاهد القادري أقوى ما يكون التعبير، وتعكس وجه المغرب الذي يشرق بالمبادئ التي يؤمن بها، وبالقيم التي ارتضاها لنفسه معياراً للتمييز بين النور والظلام، وبين الحق والباطل، وبين الفضيلة والرذيلة، وبين ما يصلح وما يفسد في الأرض.

وتلك هي القيمة الغالية لكتاب **(مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية)** بأجزائه الأربعة، التي صدرت في الوقت المناسب، والتي هي ليست مذكرات شخصية فحسب، ولكنها مذكرات في تاريخ المغرب المعاصر.

مع (رجال عرفتهم في المغرب والمشرق)

بصدور الجزء السادس من كتاب (رجال عرفتهم في المغرب والمشرق) للأستاذ أبي بكر القادري، يكون المؤلف قد قطع شوطًا بعيدًا في إنجاز المشروع الثقافي الذي نهض به، وتحمَّل أعباءه في صبر وجلد ودأب، سواء في شقه الأول الخاص بالدراسات الإسلامية ذات المحتوى الوطني والبعد الحضاري، أو في شقه الثاني الخاص بالتراجم والسِّيَر التي تقدم خلاصة العصر من خلال نضال جيل الرواد والأعلام والشخصيات التي عرفها المؤلف واحتك بها وارتبط معها بالعمل الوطني والإسلامي من أجل عزة المغرب واستقلاله ووحدته، وفي سبيل نصرة قضايا العالم الإسلامي والدفاع عن مصلحته.

وتعكس الأجزاء الصادرة من سلسلة (رجال عرفتهم في المغرب والمشرق)، التي صدر الجزء الأول منها في سنة 1983، روحَ المؤلف السمحة، وشخصيته ذاتَ الحضور القوي، وعقيدته وإيمانه وإخلاصه في الدفاع عن القضايا التي نَذَرَ نفسه لها. فهو في هذا الجزء، كما في الأجزاء الأخرى، يكتب عن رجالاتٍ بعضُهم اتخذ له منحى سياسيًا وفكريًا مختلفًا عن منحاه في مراحل سابقة من العمل الوطني، ولكنه يوفيهم حقهم، ويبرز ملامح من حياتهم بكل الحب والمودة والتقدير. كما يكتب عن أساتذة تتلمذ لهم في المراحل الأولى من حياته، مثل أحمد بن عبد النبي، علامة سلا، وأحد الفقهاء الذين كانوا يحافظون على شعلة الثقافة الإسلامية متقدة وهاجة في فترة من الظلام الاستعماري المفروض على المغرب، كما يكتب عن رجل من الرواد انقطعت صلته بالعمل الوطني منذ الثلاثينيات، ولكنه بقي رائدًا يُشهد له بالسبق في العمل الأدبي والثقافي، هو عبد الرحمن حجي، ويكتب عن الزعيم الفلسطيني خالد الحسن، وكأنه أحد

- نشر في 2007/8/3.

قادة الحركة الوطنية المغربية، ويكتب أيضاً، في الجزء الرابع من هذه السلسلة، عن محمد بن الحسن الوزاني زعيم حزب الشورى بروح الزمالة والتقدير والاعتراف له بسبق الجهاد وحسن البلاء، وبمستوى رفيع من التجرد والموضوعية. وفي جميع هذه التراجم المركزة التي كتبها المؤلف، يقدم للقارئ الجديدَ المفيد، حتى عندما يكرر الكتابة عن بعض هذه الشخصيات، فهو مثلا نشر خمسة فصول في الجزء الأول من رجال عرفتهم عن زعيم التحرير علال الفاسي، ونشر في الجزء السادس فصلاً ضافياً عنه أيضًا، كما نشر في الجزء الرابع ستة فصول عنه. وتشكل هذه الفصول جميعُها كتابًا قائم الذات عن علال الفاسي، بعضها يكمل بعضًا. كذلك كتب المؤلف عن الحاج أحمد بلافريج، والحاج عمر بن عبد الجليل، كتابين مستقلين، هما الجزءان الثالث والخامس من هذه السلسلة، ونشر عنهما فصولاً في أجزاء أخرى. وليس فيما كتب عن الرجلين تكرار أو إعادة، وإنما فيه إضافة غنية وفائدة مجددة.

وبصدور الجزء السادس يكون قد بلغ عدد الشخصيات التي كتب عنها المؤلف خمسًا وأربعين شخصية ، إثنتان منها كتب عنهما فصولاً في بعض الأجزاء، وأصدر كتابين مستقلين عنهما، وهما الحاج عمر بن عبد الجليل، والحاج أحمد بلافريج. وإحدى هذه الشخصيات، وهي سعيد حجي، كتب عنها في الجزء الأول، وكان قبل ذلك قد ألف عن سعيد حجي كتابًا مستقلاً من جزءين صدر قبل ظهور الجزء الأول من السلسلة.

ويشتمل الجزء السادس على إحدى عشرة شخصية عرفها المؤلف وكتب عنها، منها ثلاث شخصيات من المشرق، وهي بهاء الدين الأميري، وخالد الحسن، والدكتور إنعام الله خان، الأمين العام لمؤتمر العالم الإسلامي. وهي المنظمة الإسلامية العالمية التي كان علال الفاسي عضواً عاملاً في مجلسها التنفيذي، وبعد وفاته انتخب الأستاذ أبو بكر القادري عضواً عاملاً في هذا المجلس، وهو أعلى سلطة في مؤتمر العالم الإسلامي الذي أسس في القدس في سنة 1932.

ويعـدّ ما كتبه المؤلف في هذا الجزء عن عبد الرحيم بوعبيد والمهدي بنبركة، شهادة حق ذات قيمة عن قائدين من قادة الحركة الوطنية المغربية. ولا غرو في ذلك، فقد عرف المؤلف عبد الرحيم والمهدي معرفة موسعة، وعايشهما في مراحل مختلفة من العمر. ويكفي أن أذكر هنا أن أبا بكر القادري وعبد الرحيم بوعبيد والمهدي بنبركة ترافقوا في السجن في عهد الحماية، وعاشوا معًا تجربة نضالية عميقة، كتب عنها المؤلف بحرارة وشفافية وعذوبة في الجزء الثاني من (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**) (صدر في سنة 1997).

وكذلك كتب المؤلف عن بعض هؤلاء الرجال الذين عرفهم في مواضع متفرقة ومناسبات مختلفة في الجزء الأول من مذكراته. ولكنه في هذه السلسلة يركز قدر الإمكان، وحسب ما تقتضيه المناسبة، على إبراز الجوانب الإنسانية الخاصة والمحطات البارزة في حياة هؤلاء الرجال الكبار. وكان هذا صنيع المؤلف مع العلامة أحمد بن عبد النبي الذي يُعـد من شيوخه الذين أخذ عنهم العلم في مسقط رأسه سلا. والحق أنه لولا هذا الفصل المطول (30 صفحة) الذي كتبه المؤلف عن الفقيه أحمد بن عبد النبي، لَـضَاعَ اسم الرجل وعلمه وفضله ومساهماته في خدمة العلم والثقافة العربية الإسلامية، كما ضاعت أسماء رجال كبار وأسدل الستار على جهودهم وطواهم النسيان.

والمؤلف ينطلق على سجيته في الكتابة عن الرجال الذين عرفهم، فهو لا يتقيَّد بمنهج من مناهج كتابة التراجم، لأنه لا يكتب ترجمة لأحد من هؤلاء، كما هو متعارف عليه في هذا الجنس من أجناس الكتابة والتأليف، ولكنه يكتب من واقع معرفته الشخصية بهذا أو ذاك، ومن خلال تجربته وخبرته وصلته القريبة بمن يكتب عنه. ولذلك جاءت هذه الفصول مترعة بروح الأخوة والألفة وحرارة العلاقة الإنسانية في صدقها وعفويتها وشفافيتها.

وقد تنبه المؤلف إلى ما يمكن أن يطرحه القارئ من سؤال يدور حول هذا المعنى، فبادر في مقدمة الجزء السادس إلى توضيح معالم المنهج الذي سلكه، فكتب يقول : «وكتابتي عن الشخصيات التي عرفت، لا تنحصر في نوع خاص من الرجال، ولا تتعلق بنماذج موحدة من نماذجهم أو توجّهاتهم، ولكنها تشمل المتوجّه التوجه السياسي، والمتوجه التوجه الثقافي، والمتوجه التوجه التعليمي، والناصب نفسه للدعوة الإسلامية السلفية، إلى غير ذلك من التوجهات التي ترمي إلى حماية الذاتية الإسلامية والتحرر من جميع التبعيات السياسية والثقافية، والحفاظ كل الحفاظ على القيم الإسلامية المثلى في الحياة».

وزاد في تبيان خصائص هذا المنهج الذي اتبعه في كتابه، فقال : «إنني لا أخصُّ بكتابتي أو شهاداتي أو تعريفي، الشخصيات التي تعاونتُ معها في المجال السياسي والنضال في معركة التحرير، ولكني اعترافًا مني لأهل الفضل بفضلهم، أكتب عن العلماء الذين أخذت عنهم واستفدت من معلوماتهم ودروسهم، وعن القادة السياسيين الذين كنت مقتنعًا بصدق وطنيتهم وحبهم لوطنهم، وعن الأصدقاء الذين وإن كانوا لم يشاركوني في معركة الكفاح، فإنهم شاركوني واتفقوا معي في مجال الدفاع عن الأفكار والمبادئ والقيم التي يدعو إليها الإسلام. ومن هنا فأنا لا أكتب وأباهي بأصدقائي وإخواني الذين تعاونت وإياهم في معركة التحرير الوطني فحسب، ولكني أكتب أيضًا، عن إخواني وأصدقائي في البلاد العربية والإسلامية الذين ساهمت معهم في معركة التحرير الكبرى، لتتطهر كل بقعة من بقاع البلدان الإسلامية والعربية من رجس الاستعمار البغيض، سواء منه الاستعمار السياسي أو الفكري، أو غيرهما، إذ وطنيتي والحمد لله، ليست بالوطنية الضيقة، ولا بالوطنية المحلية، ولكني أعتبر الوطن الإسلامي كله وطنًا لي، سواء كان قريبًا مني كأقطار المغرب العربي، أو بعيدًا عني كالقطرين الأندونيسي والماليزي، وكل رقعة

يوجد فيها مسلمون، سواء في إفريقيا أو آسيا أو أوروبا أو أمريكا. فالمسلمون أمة واحدة، والإسلام آخَى بين المسلمين في كل مكان من البسيطة، والاهتمام بقضايا الإسلام والمسلمين في كل الأقطار والأصقاع، واجب عيني وحتمي على كل مسلم، فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

وبهذه الروح تناول المؤلف خمسًا وأربعين شخصية في سلسلة (رجال عرفتهم في المغرب والمشرق) بأجزائه الستة، منها إحدى عشرة شخصية يضمّها الجزء السادس. وبذلك جاءت الفصول التي كتبها عن هؤلاء الرجال معبّرة عن سعة الأفق ورحابة الرؤية. وهي جميعُها قِطَعٌ نفيسة من الأدب السياسي والاجتماعي، وهي نسيج وحدها في أدب التراجم من غير تقيّد بمنهج فني محدّد. وأعتقد أن هذا الأسلوب يجدي وينفع أكثر من غيره من الأساليب، لأن قارئ هذه الأجزاء من السلسلة يخرج بحصيلة وافرة من الفوائد والمعلومات، وبشحنة قوية من التفاعل والتجاوب مع هؤلاء الرجال، لأنه يشعر بالصدق فيما يقرأ، لدرجة أنه يزداد تقديرًا لهذه الشخصيات وإعجابًا بها، سواء أكان يعرف عنها شيئًا من قبل، أم لم يكن يعرف.

وأشهد أني تأثرت غاية التأثر بما كتبه الأستاذ أبو بكر القادري عن رفيقيْه في الكفاح الأستاذين عبد الرحيم بوعبيد والمهدي بنبركة. وأحسب أن كل من يقرأ الفصلين اللذين كتبهما المؤلف في هذا الجزء عن الزعيمين المغربيين بوعبيد وبنبركة، يخرج بهذا الانطباع.

والحق أن ما كتبه المؤلف في هذا الجزء عن علال الفاسي ومحمد الفاسي ومحمد بلعربي العلوي وعبد الرحيم بوعبيد والمهدي بنبركة والصديق بلعربي، يجلي صفحات مشرقة من حياة هؤلاء الرواد الأعلام، ويقدم للقارئ لمحات مضيئة من تاريخ الحركة الوطنية المغربية، لأن هؤلاء الرجال هم من المناضلين المشاركين في صنع تاريخ المغرب المعاصر.

ولعل الميزة التي تمتاز بها هذه السلسلة تكمن في أن المؤلف يساهم بها مساهمة بالغة الأهمية في كتابة تاريخ المغرب المعاصر، بطريقة غير مباشرة، ومن خلال كتابته عن هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين عمل معهم من أجل تحرير المغرب والدفاع عن سيادته وكرامته واستقلاله، والذين عرفهم معرفة عميقة وارتبطت حياته بحياتهم في مراحل مهمة من تاريخ الوطن، فقد أوفاهم حقهم كلهم دون استثناء، وشهد لهم بالحق وبصدق الكفاح وحسن البلاء، وخلد صفحات من حياتهم بأسلوب الكاتب النزيه المنصف الصادق في روايته والمخلص في كتابته، وبروح الأخوة والزمالة والصداقة التي تهيمن على السلسلة كلها.

ماذا قال أبو بكر القادري للعاهلين محمد الخامس والحسن الثاني ؟

لا يمكن لدولة تنشد التقدم وتعمل من أجل التطوير والتحديث وتسلك سبيل الإصلاح الشامل القائم على أسس صحيحة، أن تستغني عن حكمة الحكماء وتجربة العقلاء وخبرة الأوفياء النبلاء. ذلك أن الجيل الجديد، مهما تسلح بالعلم والمعرفة وبالحماسة وبالإرادة القوية في العمل والمبادرة والابتكار والتطلع الدائم إلى التجديد، سيظل يفتقر إلى تلك الفئة من الرواد الذي صقلتهم التجارب، وصنعتهم المعارك، وأنضجتهم المحن والتضحيات والاختبارات، والذي ساهموا في بناء الدولة، وكافحوا في زمن الاستعمار من أجل التحرير والاستقلال.

إن الدول تتطور بتراكم الخبرات، وبتواصل الأجيال، وبتلاقح الأفكار، وبالاستفادة ممن كان له فضلُ السبق في مضمار الكفاح والعطاء والوفاء والبناء. وليس في الإمكان تجاهل أصوات الحكمة وعدم الاستجابة لنداء الضمير الذي يتمثل في هذه الصفوة من الرواد البُناة الذين أعطونا فأجزلوا العطاء، والذين أخلصوا وأوفوا فصدقوا في الإخلاص والوفاء.

ونحن في المرحلة الحالية، أحوج ما نكون إلى التأمّل في تجارب الجيل القائد الرائد الذي كافح من أجل الاستقلال مع جلالة الملك محمد الخامس، وناضل في سبيل الوحدة وإرساء قواعد الدولة المغربية الحديثة مع جلالة الملك الحسن الثاني، عليهما رحمة الله تعالى. فلا خير في أبناء اليوم، بلغوا من العلم

- نشر في 2004/10/10.

والدراية والطموح والإصرار على ردّ التحدي والتفاني في العمل ما بلغوا، ما لم يُصيخوا السمع إلى ما يقوله هذا الجيل الرائد الذي ندين له بأشياء كثيرة ننعم ونستمتع بها اليوم.

ومن حسن حظنا، بل من نعم الله علينا، أن رهطاً كريماً من الجيل الرائد في الكفاح الوطني، ينشر بين الفينة والأخرى مذكراته، ويُسمعنا كلمته الطافحة بالصدق والأمانة والنزاهة. وفي المقدمة من هذه الصفوة الأستاذ المجاهد أبو بكر القادري، الذي لم يشأ أن يعتكف وينعزل ويسلّم لواء الكفاح إلى الجيل الجديد راضياً بما قدم وأعطى وقام به من جلائل الأعمال، وإنما صمم في قوة عزيـمة، مغالباً المرض الذي يفرض نفسه أحياناً بحكم الطبيعة، على أن يكتب ويدوّن ويسجّل مذكراته التي هي بكل المقاييس، شهادة موثقة على عصر مليء بالكفاح، وبالتضحية، وبالدماء والدموع، وعلى مراحل من النضال في صفوف الحركة الوطنية تقرر فيها مصير المغرب.

يحتوي الجزء الرابع من (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**) للأستاذ المجاهد أبي بكر القادري الذي صدر أخيراً[1]، على جملة من الوثائق المهمة والرسائل التاريخية التي تتعلق بالعلاقة الحميمة التي ربطت بين صاحب المذكرات وبين العاهلين المرحومين بمشيئة الله تعالى، جلالة الملك محمد الخامس، وجلالة الملك الحسن الثاني، والتي تربط بينه وبين جلالة الملك محمد السادس. وهي ليست وثائق خاصة أو رسائل شخصية، وإن كانت من حيث الشكل لا تخرج عن ذلك، ولكنها وثائق وأوراق ورسائل وطنية، من حق القارئ أن يطلع عليها بعد مضي هذه الفترة من الزمن. ولقد استوقفتني مذكرة كتبها الأستاذ أبو بكر القادري إلى جلالة الملك محمد الخامس، بعد انقضاء سنتين كاملتين على إعلان استقلال المغرب، حيث صارت تطفو على السطح بعض الشخصيات التي كان لها دور عدائي للقضية المغربية، وللشعب

(1) في سنة 2004.

المغربي، ولجلالة ملك البلاد. جاء في مستهل هذه المذكرة المهمة : «صاحب الجلالة : إن الظروف الدقيقة التي تجتازها بلادنا، والمسؤولية الخطيرة التي نتحملها إزاء ملكنا وأمتنا، كل ذلك يحتم علينا أن نتقدم إلى حضرتكم بهذه المذكرة، مؤكدين لسيدنا تعلقنا بعرشه، وإخلاصنا لسدته، وثقتنا بشخصه، ويقيننا في سعادة المغرب على يده».

ثم تقول المذكرة : «إننا نلاحظ يا مولاي، مع كل أسف، أن عناصر منبتة هنا وهناك، لم تبرهن في الماضي عن إخلاصها، ولا نطمئن إليها في مستقبلها، تحاول أن تحشر أنفها في صفوف العاملين، وتعطي لنفسها من الأهمية والشفوف، ما لم تعترف به طائفة المخلصين، مستعينة أحياناً بوسائل المكر والخديعة، ومستعملة تارة أخرى طرق التلبيس والتضليل، مظهرة الإخلاص المصطنع للملك والشعب، باذلة أقصى ما تستطيع لستر ما ارتكبته في الماضي من خيانة وإثم، معتمدةً على حلم سيدنا وعطفه وتسامحه ورأفته».

وتمضي المذكرة فتقول : «إننا نعتقد يا مولاي، وإخلاصُنا لملكنا يفرض علينا أن نصرح بذلك، أن بناء مستقبل المغرب على أسس متينة، يتطلب أولاً وقبل كل شيء، الاعتماد على المخلصين الذي برهنوا عن إخلاصهم في أوقات الشدة والرخاء، بغض الطرف عن نزعاتهم السياسية، وميولهم الحزبية، كما أنه يتطلب تطهيراً كاملاً في دواليب الإدارة، وأن لا يتولى أية مسؤولية خطيرة، إلا المتوفرون على الكفاءة اللازمة، والإخلاص الذي لا يتطرق إليه الإيهام، فبهذين الشرطين (الكفاءة والإخلاص) يمكننا أن نطمئن على استقلالنا، ونحافظ على سيادتنا ونصون كرامتنا وعرشنا».

ثم يخاطب المجاهد أبو بكر القادري جلالة الملك محمد الخامس في هذه المذكرة قائلاً : «وفي الأخير، نأمل من جلالة ملكنا المفدى أن يتفضل على هذه الفئة المخلصة من رعيته المتمسكة بعرشه، بساعة من تلك السويعات التي طالما درسنا معه وبجانبه فيها مشاكل وقضايا، كانت نتيجتها والحمد لله

التوفيق والسداد، حتى يمكننا أن نتدارس مع سيدنا الموقف السياسي بكل إمعان بما يتطلبه من دقة».

وفي سنة 1957، وبعد عودة الأستاذ أبي بكر القادري من أداء فريضة الحج ضمن الوفد الرسمي للحج الذي ترأسه الأستاذ عبد الله كنون، طلب جلالة الملك محمد الخامس منه أن يكتب تقريراً عن زيارته للديار المقدسة وللدول العربية الإسلامية التي زارها المجاهد القادري خلال رحلته الأولى إلى المشرق العربي. وفي هذا التقرير الذي يُعدُّ وثيقة بالغة الأهمية، يتحدث كاتبه عن لقاءاته بالمسؤولين والقادة ورجال الفكر والعلم والصحافة في كل من السعودية ومصر وسوريا ولبنان والأردن والعراق، ويسجل انطباعاته وملاحظاته عن الأوضاع العامة في تلك البلاد، ويدوّن مشاهداته والأحاديث التي أجراها مع الشخصيات التي التقى معها. ويلاحظ هنا أن الآراء الشخصية التي سجلها الأستاذ أبو بكر عن الدول التي زارها أثناء هذه الرحلة، جاءت الأيام فأكدت صحتها وسلامتها، وأثبتت أن كاتب التقرير المرفوع إلى جلالة الملك، كان ينظر بعين العقل إلى الأمور، ويستشرف المستقبل من خلال مشاهداته وانطباعاته والآراء التي استخلصها من الاتصالات التي أجراها مع كبار الشخصيات. ولنأخذ على سبيل المثال، ما كتبه عن العراق التي زارها ضمن هذه الجولة في عام 1957. يقول المجاهد أبو بكر القادري : «أما عن زيارتي للعراق، فلقد لاحظت أثناء مقامي بها، انعدام التجاوب بين الحكومة والشعب، بل يلاحظ أن هناك هوة سحيقة بين الطبقات الشعبية وقادتها، وبين المسؤولين في الحكومة، وتأكد لي أن كثيراً من العراقيين غير راضين عن السياسة التي تنهجها حكومتهم، بل إن الملك(2) نفسه أصبح يفقد من سمعته الشيء الكثير، نظراً لسيره في ركاب الوصي عبد الإله، الذي أصبح غير محبوب بدوره، كما أن كثيراً من المطلعين يلاحظون أن الإنجليز والأمير كانوا لا يزالون يتدخلون في شؤون البلاد، وأن اقتصاديات العراق تحت تصرفهم، يفعلون بها ما يشاؤون.

(2) الملك فيصل الثاني بن الملك غازي، حفيد الملك فيصل بن الحسين مؤسس المملكة العراقية سنة 1921.

ومن جهة أخرى فإن الحكومة العراقية آخذة بخناق الحريات، معتمدة على قوة الجيش ورؤساء العشائر، فالصحافة لا تستطيع أن تؤدي واجبها على الوجه الأكمل، ولا يمكنها أن تطرق كل المواضيع التي يتعين الحديث عنها...».

ثم يقول في فقرة أخرى من التقرير : «ويلذّ لي بهذه المناسبة، أن أسجل وأنا جد فخور، أن جلالتكم تحظى في البلاد العراقية بحب عظيم، وتقدير كبير، وأن أحد الصحفيين صرح بأن لو قدر لجلالتكم أن زرتم العراق لقابلكم الشعب العراقي أعظم اقتبال رأته العراق، ولو وُضعت الحكومة في خجل من نفسها، لأنها تستشعر أن مكانتكم تفوق مكانات كل الأشخاص والمسؤولين ورؤساء الدول الذي سبق لهم أن زاروا البلاد العراقية».

وينبغي أن نذكر أن هذا الكلام كتبه الأستاذ أبو بكر القادري في عام 1957، وأي قبل أقل من عام من الانقلاب العسكري الإنجليزي الذي أطاح بالملكية في العراق. وقد زار الملك محمد الخامس العراق في عام 1960، في عهد الدكتاتور عبد الكريم قاسم مدبّر ذلك الانقلاب المشؤوم، فاستقبل استقبالاً عظيماً، وهتفت الجماهير باسمه مقروناً بالهاشمي إشارةً إلى النسب الشريف لجلالة الملك، ورمزاً للأسرة الهاشمية المالكة التي كان قد أطيح بها قبل تلك الزيارة بأقل من سنتين.

ولا يزال الوضع في العراق كما وصفه الأستاذ أبو بكر القادري في عام 1957، بل إن الفترة الممتدة من عام 1958 إلى عام 1968، ثم من هذا العام الذي استولى فيه حزب البعث العراقي على زمام الحكم، وإلى سقوط نظام صدام البعثي الفاسد، كانت أسوأ فترات التاريخ العراقي على وجه الإطلاق، لأن ما حصل في يوليو من عام 1968 في العراق، هو أن الأمريكان حلّوا محل الإنجليز. وتلك قصة أخرى طويلة الفصول.

لقد أدرك الأستاذ أبو بكر القادري بحصافة رأيه، وفي وقت مبكر، أن الوضع في العراق يسير في خط معاكس لإرادة الشعب العراقي. ومن هنا تأتي أهمية هذه المذكرات التي هي شهادة على التاريخ العربي.

وبهذه الروح والغيرة والحرص على المصلحة العامة والسير في الطريق السوية، كتب المجاهد أبو بكر القادري رسالة بالغة الأهمية إلى جلالة الملك الحسن الثاني، يرحمه الله، مباشرة بعد توليه العرش في مارس من عام 1961. ولكنني أردت قبل أن أعرض لهذه الرسالة، أن أشير إلى التقديم الذي قدم به المؤلف هذه الوثيقة. يقول المجاهد أبو بكر القادري في كلمات مفعمة بالصدق نادراً ما قرأت مثلها فيما نشره السياسيون والمؤرخون المغاربة : «بعد وفاة جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله ورضي عنه، أصبت بصدمة عنيفة، كادت أن تدفعني إلى اليأس والعياذ بالله، والابتعاد عن أي نشاط وطني، وذلك لأن الظروف كانت ظروفاً قاسية، باعتبار أن المارقين كانوا يرون في وجوده (أي الملك محمد الخامس قدس الله روحه) عائقاً من العوائق التي تعوقهم عن تحقيق أهدافهم السائرة في الخط البعيد عن الخط السليم، وباعتبار أن الأيدي الاستعمارية الخفية، كانت تعمل من وراء ستار على إبعاد الوطنيين الأحرار من الإشراف الحقيقي على تسيير شؤون البلاد، ليخلو لهم الجوّ، ويجدوا الطريق فسيحة أمامهم، للكيد للوطن، وللملكية الدستورية، التي كان دائماً جلالة محمد الخامس يدعو إليها، لإصلاح شؤون المغرب ومواطنيه».

ويواصل المجاهد أبو بكر القادري تقديمه لهذه الرسالة المهمة جداً، فيقول (صفحة 69) : «... وهكذا ألهمني الله أن أطرد خواطر اليأس، وأخاطب جلالة الحسن الثاني الذي تولّى الأمر بعد والده، ناصحاً أن يسير في الخط الذي سار فيه والده من تقريب الوطنيين المخلصين، وإبعاد المنافقين المتربصين الدوائر بالوطن والوطنيين، والكيد حتى للمملكة الشريفة، فكان هذا الخطاب الذي وجهته إليه رحمه الله، بعد مبايعته مباشرة».

يقع هذا الخطاب المهمّ في ست صفحات (من 70 إلى 76). ومما جاء فيه : «... وإنني معتقد كل الاعتقاد، ومتيقن تمام اليقين، أن تغلّبكم على كل الصعوبات، ونجاحكم في أداء الأمانة التي طوقتم بها، متوقفٌ إلى حد بعيد،

على التجاوب الدائم والمستمر بينكم وبين شعبكم المتعلق بأهداب عرشكم وحنوّكم الدائم عليه واستجابتكم السريعة لمطامحه، وإن المحافظة على هذا التجاوب تقتضي منكم أن تضعوا دائماً نصب أعينكم، الآية الكريمة التي نزل بها وحي الله على نبيكم وجدكم، وهي قوله تعالى : ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾. ولذلك يتعين عليكم يا مولاي، أن تختاروا بطانة من شعبكم، تتوسمون فيها الصدق والإخلاص، وحسن الإدراك لسير الأحداث، مع التعبير عن أماني الشعب ومطامحه، للاستشارة معها في قضايا الأمة ومصالحها، وأخذ رأيها فيما شذ وفذ من المصالح والمسائل، حتى إذا أخذتم رأياً يا مولاي، تكون الأمة كلها من ورائكم، تؤيدكم وتناصر، وتبذل جهدها ودمها في سبيلكم، وهذا كله في انتظار انتخاب المؤسسات الوطنية التمثيلية الحقيقية التي كان يحرص والدكم على إخراجها لحيز الوجود، ووعد بتحقيقها، والتي ترون فيها أنتم بدوركم، السبيل الناجح والناجع في حكم البلاد حكماً إسلامياً ديمقراطياً سليماً».

وتمضي الرسالة التاريخية المهمة قائلة : «إن خطواتكم الأولى في الحكم، ستكون هي المعيار الذي ستُقاس به تصرفاتكم في المستقبل، ولذلك يجب يا مولاي أن تكونوا حذرين كل الحذر، فلا تبرموا أمراً إلا إذا درستموه دراسة فاحصة، وعرفتم أوجه النظر فيه، واخترتم الوسائل الناجعة لمعالجته طبق ما تتطلبه مصلحة البلاد، وتقدم العصر، وتطور الشعوب، وتحققتم أنه استجابة لرأي شعبكم. ولا يتيسر ذلك إلا إذا استشرتم فيه ذوي الرأي في الأمة الذين يعبرون عن مطامحها على اختلاف مشاربهم السياسية، ونزعاتهم المذهبية، وبذلك تستطيعون أن تحافظوا على وحدة الرأي في الأمة، وتقربوا وجهات النظر بين قادتها، وتكونون بعيدين كل البعد عن الاختلافات في الرأي، حتى تضمنوا لمركزكم صفة الحَكَم البار، الذي يسعى جهده ليلف شمل أبنائه حول فكرة العدل والحق، ويبقى العرش دائماً ملجأ في الملمّات، وجامعاً للشتات، ومنزهاً عن الطعون والاشتباكات، حتى يضمن له الخلود ويبقى دائماً ينظر إليه نظرة القداسة والتقدير من جميع الطبقات».

إن المتأمل الحصيف في هذه الوثائق التي نشرها الأستاذ أبو بكر القادري في مذكراته، يجد أنها ذات معان متواصلة وقيم ثابتة ونصائح مستمرة، إذ أن العبرة من هذه الرسائل والمذكرات والتقارير لا ترتبط بفترة زمنية محددة، بل تمتد وتشعٌّ إلى ما لا نهاية. وتلك هي القيمة الكبرى للحديث الذي يصدر من القلب، ويعبر عن تجربة السنين وخبرة العمر وعصارة الحياة. ولذلك يمكن لنا أن نقرأ هذه الوثائق بعين تنظر إلى الحاضر وتتطلع إلى المستقبل، في ظل العرش الجامع للشمل الموحد للصفوف الواقي من الزلل الباقي أبداً، بمشيئة الله تعالى.

وتلك هي أهمية هذا الجزء من مذكرات الأستاذ المجاهد أبي بكر القادري الشاهد على عصره بصدق وأمانة. وما أحوج المغرب في هذه المرحلة الدقيقة، إلى حكمة الحكماء وتجربة العقلاء وخبرة الأوفياء. وكل ذلك تجمَّع في (**مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**) في أجزائها الأربعة[3].

(1) صدرت في ستة أجزاء من ثمانية كتب. انظر فصل (مراجعات في التراث الفكري المكتوب لأبي بكر القادري) من هذا الكتاب ص : 73.

أبو بكر القادري يكتب عن أحمد بلافريج الديبلوماسي المحنك

بعد صدور كتابه الذي يعد الأول من نوعه عن (**الحاج عمر بن عبد الجليل**)، أحد أقطاب الحركة الوطنية المغربية، في سنة 1988، أخرج الأستاذ أبو بكر القادري كتاباً جديداً جامعاً شاملاً عن (**الحاج أحمد بلافريج : الديبلوماسي المحنك**) أحد أركان الكفاح الوطني، وأحد أبرز وجوه بناة الاستقلال، رسم فيه صورة مجلوة لملامح من سيرته، وقدم مختارات قيمة لنماذج من إنتاجه، واستعرض فصولاً من تاريخ نضاله، وسرد أطوارًا من المعارك الوطنية التي خاضها مع إخوانه في كتلة العمل الوطني، وفي الحزب الوطني، ثم في حزب الاستقلال، وفي مواقع عديدة شغلها الحاج أحمد بلافريج، وتقلد فيها المهام الثقيلة، وتحمل المسؤوليات الجسيمة، منذ مطالع الحركة الوطنية وبوادرها الأولى قبل حركة الظهير، وإلى بداية السبعينيات حين ألزمه المرض بالانعزال عن الحياة العامة.

وصدر كتاب أبي بكر القادري عن (**الحاج أحمد بلافريج : الديبلوماسي المحنك**)، في الوقت الذي حلت الذكرى الأربعون لتأسيس الديبلوماسية المغربية (أبريل 1956 - أبريل 1996). ومن المعروف أن الديبلوماسية المغربية قامت على جهود الحاج أحمد بلافريج الذي اختاره جلالة الملك محمد الخامس ليكون أول وزير للخارجية في عهد الاستقلال. وكأن الأقدار أجلت صدور هذا الكتاب حتى يتزامن ظهوره مع هذه الذكرى التي ترتبط بفترة مهمة من حياة الحاج أحمد بلافريج.

- نشر في 1996/10/8.

وليست هذه هي المرة الأولى التي يكتب فيها الأستاذ أبو بكر القادري عن رفيق كفاحه وزميله في النضال الوطني الحاج أحمد بلافريج، فقد نشر له فصل كتبه عنه في المجلد السادس من موسوعة (**مذكرات من التراث المغربي**)[1]، وأفرد له قسمًا في الجزء الرابع من كتابه (**رجال عرفتهم في المغرب والمشرق**)[2] من صفحة 47 إلى صفحة 76، وكتب عنه فصلاً نشر في الكتاب الذي أصدره حزب الاستقلال عن بلافريج[3]. ولكنه في كتابه الجديد، يفيض في الحديث الموسع المتشعب، عن الحاج أحمد بلافريج، ويوفيه حقه موفورًا، في فصول ممتعة تشد القارئ إليها شدًا، تفور فيها عاطفة الأخوة والصداقة والزمالة في الجهاد الوطني، مشبوبة متأججة، ويستفيض حديث الذكريات الوطنية عذبًا مستطابًا، وتسترسل فيه ملامح الكفاح التي صنعها الحاج أحمد بلافريج، أو شارك فيها مشاركة فعالة، أو ساهم فيها بالنصيب الأوفر، وهي كثيرة عددًا، وعظيمة جدًّا.

قسم المؤلف كتابه الذي يقع في أربعمائة صفحة من القطع الكبير، إلى قسمين؛ أفرد أولهما لِـ (**السيرة وتحليل الشخصية**)، وخصّص ثانيهما لِـ (**الملاحق**). والواقع أن ما أورده المؤلف في القسم الثاني يكمل ما كتبه في القسم الأول ؛ إذ يصعب الفصل بين ترجمة حياة الحاج أحمد بلافريج، وبين إنتاجه الفكري والثقافي والسياسي، الذي وفق المؤلف توفيقًا كبيرًا في إيراد نصوص منه منتقاة بدقة وعلم ومعرفة. كذلك يصعب الفصل بين حياة المترجم وبين بعض الوثائق التاريخية النادرة التي أتى بها المؤلف، ومنها على سبيل المثال، الوصية التي كتبها أمير البيان شكيب أرسلان (ت : 1946) إلى الحاج أحمد بلافريج، الذي كان يرحمه الله من أقرب الشباب المغربي الوطني المكافح إلى هذا القطب العربي الإسلامي الذي كان يشغل الناس ويملأ الدنيا،

(1) المجلد السادس، صفحات 65-71، طبعة 1986.

(2) صدر سنة 1991.

(3) صدر سنة 1990.

والذي كان يعد في شخصه وقلمه وفكره وجهاده السياسي، بمثابة جامعة عربية كاملة العدة، قبل أن تؤسس جامعة الدول العربية في سنة 1945، لاشتغاله بالدفاع عن القضايا العربية والإسلامية ودعم الحركات التحريرية الاستقلالية في الوطن العربي.

ولقد مهد المؤلف تمهيدًا مناسبًا للحديث عن حياة بلافريج، فأتى على ذكر العوامل التي أدت إلى نضوج الوعي الوطني في مرحلة العشرينيات، والتي تسببت في ظهور بوادر اليقظة الوطنية المغربية في بعض المدن، ومنها الرباط التي نشأ فيها بلافريج وترعرع. ويعرض المؤلف للاهتمامات الأدبية المبكرة عند المترجم، ويكشف عن جوانب من حياته في طورها الأول، ويأتي بنماذج من كتاباته في صحف القاهرة وبيروت في العشرينيات. فلقد كانت للحاج أحمد بلافريج كتابات أدبية مبكرة نشرها في الصحافة الأدبية في المشرق العربي، ومنها المقال الذي كتبه عن كتاب محمد بن العباس القباج (**الأدب العربي في المغرب الأقصى**) الذي صدر في سنة 1929، في الفترة التي كان فيها بلافريج يقيم في القاهرة. وقد نشر هذا المقال في مجلة (**الزهراء**) لصاحبها محب الدين الخطيب.

ويتناول المؤلف سيرة المترجم بقدر من الاستفاضة، فيتحدث عن ولادته في سنة 1908، وعن نشأته الأولى، ودراسته في الرباط وباريس والقاهرة، وعن اهتماماته بالأدب والتاريخ، ويقدم تلخيصًا وافياً للكتاب الذي ترجمه بلافريج بالاشتراك مع محمد الفاسي عن الفرنسية وأصدراه بعنوان (**أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين**)، وهو من تأليف جان وجيروم طارو، وقد صدر الكتاب سنة 1349هـ. كما يعرض المؤلف للكتاب الذي أصدره بلافريج بالتعاون مع عبد الجليل خليفة، وهو باحث مصري كان يقيم في مدريد، تحت عنوان (**الأدب الأندلسي**)، وقد صدر الكتاب عن مطبعة الوحدة المغربية في تطوان في مطلع الأربعينيات. ويستوفي المؤلف تحليل كتاب

(الأدب الأندلسي) على نحو يبرز النفس الأدبي والتاريخي للحاج أحمد بلافريج، ودقته في البحث والاستقصاء وفي رد الشبهات التي وجهت إلى الأدب العربي في الأندلس، وحرصه على الدفاع عن الثقافة العربية الإسلامية فيما كان يتناوله في مقالاته وبحوثه من موضوعات، وانتصاره للغة العربية ووقوفه في وجه الدعاة إلى العامية.

ويعنى المؤلف كذلك بإبراز الاهتمامات المبكرة للحاج أحمد بلافريج بالصحافة والنشر، فيتحدث عن إصداره مع ثلة من إخوانه مجلة **(مغرب)**، باللغة الفرنسية في باريس في يوليو سنة 1932[4]، وعن نشاطه المتميز في جريدة **(العمل الشعبي)** بالفرنسية، ثم في جريدة **(الأطلس)** لسان كتلة العمل الوطني التي صدرت في الرباط في فبراير سنة 1937، ويشير إلى أبرز المقالات والافتتاحيات التي كتبها المترجم له في هذه الجريدة. ويركز المؤلف على الجهود التي بذلها بلافريج في إصدار جريدة **(العلم)** لسان حزب الاستقلال، في سبتمبر سنة 1946، ويرسم صورة رائعة الملامح لهذه الفترة من حياة بلافريج ونضاله السياسي والصحافي، فيقول : «منذ صدور **(العلم)** والمرحوم يشرف يوميًا دون كلل أو ملل، على توجيه افتتاحياتها وسياستها العامة، يعينه أحيانًا المرحوم محمد اليزيدي. ولقد كان بلافريج هو الموجه والمخطط لسياسة جريدة **(العلم)**، ولا يتغيّب عنها إلا إذا كان في سفر، أو عاقه مرض، وكان بالإضافة إلى التوجيه والإرشاد، يأبى إلا أن يراقب الطباعة، فينزل إلى المطبعة، ويراقب التصفيف، وطريقة عرض العناوين، وتقديم المقال على الآخر، حسب الأهمية التي تفرضها الظروف، ويتصل بالمحررين على اختلافهم وتنوع تكوينهم، ويقترح عليهم أحياناً بعض المواضيع التي يرى ضرورة معالجتها، وكان رحمه الله، لا ينام إلا إذا تأكد أن عدد **(العلم)** اليومي مضمون الصدور».

---

(4) انظر عرضاً تحليلياً مفصلاً لمجلة (مغرب) في كتاب الأستاذ محمد العربي المساري (المغرب خارج سياج الحماية)، منشورات عكاظ، الرباط، 2012.

ويفرد المؤلف فصلاً عن (بلافريج والحركة التعليمية)، فيذكر تأسيسه لمعهد جسوس، وهو المعهد الذي فكر فيه الحاج أحمد بلافريج وهو لا يزال طالبًا في باريس في سنة 1927، وبعد رجوعه نهائيًا من باريس سنة 1934، قرر تنفيذ المشروع باتفاق مع خاله محمد جسوس الذي كان يرعى بلافريج كل الرعاية أثناء دراسته. ولقد كان معهد جسوس طفرة نوعية في منهج التعليم الخاص في المغرب. ويطيل المؤلف الحديث عن هذا المنهج، ويعرض الآثار التي أحدثها هذا المعهد، ويورد ما نشرته الصحافة عنه.

ويواصل المؤلف تناول سيرة بلافريج، فيعرض لجهاده الوطني، ويقول عنه إنه «كان من الرعيل الوطني الأول الذي أنار الله بصيرته، فأدرك ما عليه من واجبات نحو وطنه، وأن عليه أن يعدّ نفسه الإعداد اللازم لخدمة هذا الوطن والدفاع عنه وتحريره من قبضة الاستعمار».

ويبرز المؤلف أثر حرب التحرير الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي على بلافريج وإخوانه، وكيف أن هذه الحرب وما حققته من انتصارات، وما انتهت إليه من نتائج، أدت إلى بلورة الوعي الوطني لدى طائفة من الشباب الوطني المغربي، وكان من بينهم أحمد بلافريج. ويشير المؤلف هنا إلى الخلية التي تأسست في الرباط، والتي كانت تعقد اجتماعاتها في روض جسوس، وكانت تضم شبابًا من الرباط وفاس وتطوان وسلا.

ثم يذكر المؤلف أثر الأمير شكيب أرسلان في الفكر السياسي عند أحمد بلافريج، ويتحدث عن الاتصالات الأولى التي تمت بين الطرفين في جنيف حيث كان يقيم شكيب أرسلان في منفى اختياري. كما يشير إلى النشاط السياسي الذي كان يقوم به بلافريج أثناء إقامته في باريس للدراسة. وفي هذا النطاق يذكر المؤلف العلاقات القوية التي كانت تجمع بلافريج بالشباب العربي اليقظ في باريس، ومنهم محمد صلاح الدين، الطالب المصري، الذي سيبرز فيما بعد كمناضل نشيط في حزب الوفد، وكسكرتير خاص للزعيم

مصطفى النحاس باشا، ثم كوزير للخارجية في آخر حكومة وفدية قبل انقلاب 23 يوليو 1952. وفي هذا السياق أيضًا، يشير المؤلف إلى الصلات المتينة التي أقامها بلافريج مع النخبة السياسية والمثقفة أثناء إقامته في باريس، ومع طائفة الأحرار الفرنسيين، ومنهم (روبيرجان لونكى) الذي تعاون مع بلافريج وإخوانه في إصدار مجلة (مغرب) باللغة الفرنسية للدفاع عن القضية المغربية.

ويطيل المؤلف الحديث عن جهود بلافيج في الإعداد لوثيقة المطالبة بالاستقلال، أثناء الفترة التي أعقبت عودته من المنفى، مستعرضًا المراحل التمهيدية التي كانت تعقد فيها الاجتماعات السياسية، وتجرى المناقشات، ويتم اتخاذ الترتيبات اللازمة قبل الدخول في المعركة الجديدة. ويروي المؤلف عن هذه الفترة المهمة من حياة الحاج أحمد بلافريج، فيقول : «لقد كان بلافريج في هذه التحركات كلها هو قطب الدائرة، وروح حركتها، ولذلك اعتبره الفرنسيون المسؤول الأول عن هذه الحركة المطالبة بالاستقلال، فلم تمض إلا نحو العشرين يومًا على تقديمنا لوثيقة المطالبة بالاستقلال، حتى ألقي عليه القبض بتهمة اتصاله بالألمان».

وتتداخل الذكريات الشخصية للمؤلف، مع سرده لحوادث هذه الفترة، فيروي من هذه الذكريات اللقاء الذي تم بينه وبين بلافريج في سجن لعلو في شهر فبراير 1944، حيث كانا ينزلان فيه معًا. وكان هذا اللقاء من تدبير بلافريج بالتعاون مع أحد حراس السجن. وكان آخر لقاء جمع بين الرجلين، إلى أن أطلق سراحهما في سنة 1946، وعادا إلى مزاولة العمل الوطني.

ويحلل المؤلف شخصية بلافريج تحليل العارف المطلع المشارك والمختلط؛ فيقول إن كل من تعرف على بلافريج يجمع على أنه كان ذا شخصية فريدة متميزة بكثير من المميزات، وإن شخصيته برزت وهو لا يزال شابًا في مقتبل العمر. ويذكر أن من أبرز الصفات التي اتصف بها منذ شبابه المبكر، زيادة على وطنيته، تفكيره المستقيم، وفكره الناضج في القضايا السياسية، وعدم اندفاعه

مع فورة الشباب، واتزانه الفكري، وقابليته للاتصال مع مختلف الشخصيات، كيفما كان شأنها.

ويمضي المؤلف في إبراز جوانب مضيئة من حياة بلافريج، فيقول عنه إنه (أثناء اجتماعاتنا معه لا يخلو حديثه من دعابة وبسط وتعليق ومزاح مع الأصدقاء، الأمر الذي يجلبك إليه، ويحببك فيه، ويزيدك تعلقًا به، وأحاديثه وتحليلاته السياسية معك، فيها الكثير من العمق وقوة الإدراك، مع أكثر ما يكون من الإيجاز والاختصار، فهو لا يندفع في كلامه، ولكنه يزن الكلمات التي تصدر من فيه، بالميزان الدقيق حتى لا يندم على أية كلمة تصدر من فيه، وهو غير قاصد لها).

وفي مقارنة لطيفة بين شخصيتي الحاج أحمد بلافريج وعلال الفاسي، يقول المؤلف عن المترجم له : (أما اتصالاته مع عامة الناس، أي مع القواعد، فلم تكن متسعة مثل اتصالات الزعيم علال الفاسي، بل كانت محدودة، وفي المناسبات الوطنية مثلاً، ولم يسبق لي أن رأيته وقف خطيبًا في الجماهير، إلا أيامًا معدودات، كان يطالع كثيرًا، ويفكر كثيرًا، ويتابع الأحداث كثيرًا، ولذلك اكتسب حنكة سياسية لم يضاهه فيها إلا القليلون).

وفي كلمات تقطر وفاء، يروي المؤلف عن علاقته الحميمة بالحاج أحمد بلافريج، فيقول في الصفحة (117) : (وأشهد أنني استفدت كثيرًا وكثيرًا جدًا من تحليلاته وتعاليقه وآرائه ونظراته السياسية، وكانت أكثر تحليلاته تجذبني إليه، وتقربني إلى تفكيره، لأني لم ألاحظ، ولو مرة واحدة، اندفاعًا طائشًا، أو رأيًا مغرضًا. لقد كان رحمه الله، خامس خمسة استفدت منهم كثيراً في حياتي السياسية طوال فترة النضال، كل واحد منهم في جانب من الجوانب، أو ناحية من النواحي، أولهم السعيد حجي، وثانيهم محمد اليزيدي، وثالثهم أحمد بلافريج، ورابعهم علال الفاسي، وخامسهم عمر بن عبد الجليل). وهي شهادة ذات قيمة وأهمية، سواء بالنسبة لتقييم الشخصية المتفردة للحاج أحمد

بلافريج، أو بالنسبة للوقوف على جانب مهمّ من جوانب شخصية المؤلف الذي زامل بلافريج في النضال، ورافقه في ريادة الحركة الوطنية.

وبهذه الروح، وبهذه الشفافية يتناول الأستاذ أبو بكر القادري جوانب مختلفة من سيرة أخيه في الوطنية الحاج أحمد بلافريج، ويكشف بجلاء عن جهوده الوطنية، وعن أعماله التي خلدت اسمه، وعن المنجزات التي قدمها، وعن التضحيات التي قام بها، وعن العطاء الزاخر الذي تميزت به مشاركته في بناء الاستقلال، سواء في موقعه كرئيس للحكومة المغربية، ووزير للشؤون الخارجية، وممثل شخصي لصاحب الجلالة. وقد عقد المؤلف فصلاً عن (بلافريج الدبلوماسي)، استعرض فيه الجهود الكبيرة التي قام بها في تأسيس الديبلوماسية المغربية، وفي هذا يقول المؤلف : (إن إلقاء نظرة ولو وجيزة على ما قام به الحاج أحمد بلافريج طوال المدة التي كان فيها وزيرًا للخارجية، يعطي الدليل القاطع على أنه رحمه الله، كان المؤسس الأول للديبلوماسية المغربية في عهد الاستقلال الحديث، الحريص على ربط ماضي المغرب بحاضره، المتمسك بمقوماته التاريخية والحضارية).

ومن المعروف أن الحاج أحمد بلافريج تولى وزارة الشؤون الخارجية في أول حكومة تأسست في عهد الاستقلال، ثم بعد توليه رئاسة الحكومة في 12 مايو 1958، بقي محتفظًا بالخارجية إلى 24 ديسمبر 1958، ثم أسندت إليه وزارة الخارجية مرة أخرى في 5 يناير 1962 إلى 13 نوفمبر من السنة نفسها، ثم أصبح ممثلاً شخصيًا لجلالة الملك الحسن الثاني في 5 يناير 1963.

أما القسم الثاني الخاص بالملاحق، فهو في الواقع زاخر بالوثائق ذات القيمة التاريخية البالغة، منها مثلاً، برنامج حكومة بلافريج، وهو برنامج يستحق القراءة الآن، لقياس المسافة التي قطعها المغرب منذ 1958 إلى اليوم، ومنها أيضًا، المقالات التي نشرها بلافريج في جريدة **(الأطلس)** في سنة 1937، وهي تعكس الفكر السياسي الناضج، والرؤية الوطنية إلى قضايا الوطن والعالم،

والفهم المستنير للأحداث المحلية والدولية. ومن هذه المقالات الصحافية التي كتبها بلافريج في سنة 1937، المقال المهم الذي نشر في العدد (12) من **(الأطلس)** الصادر في 1937/5/7، تحت عنوان **(حول الثقافة الفرنسية والثقافة الإسلامية)**. وهو مقال جدير بأن يعاد نشره اليوم، وفيه يبدو لنا الكاتب في إهاب المفكر الإسلامي الوطني المعتز بالثقافة العربية الإسلامية أمام زحف الثقافة الفرنسية، مما يؤكد ريادة الحركة الوطنية المغربية في معالجة القضايا الثقافية العربية الإسلامية في الثلاثينيات من القرن الماضي، من منظور إسلامي حضاري واسع الأفق. إلى غير ذلك من الملاحق المهمة التي أعطت الكتاب أهمية بالغة، وجعلت منه أحد المراجع الأساس في تاريخ المغرب المعاصر. وهو جهد عظيم قام به المؤلف في تسجيل هذه الصفحات المشرقة في تاريخ الحركة الوطنية المغربية، وهو تعبير بالغ الدلالة عن الوفاء الذي أصبح عملة نادرة في هذا العصر، للصلات الحميمة والعلاقات المتينة التي جمعت بين المناضلين الوطنيين المجاهدين : أبي بكر القادري والحاج أحمد بلافريج، على المحبة في الله، وعلى الولاء للوطن ومقدساته، وعلى الجهاد الوطني من أجل الحرية والاستقلال، وعلى بناء القواعد الراسخة للمغرب الحر المستقل.

إن القارئ لهذا الكتاب، وقد قرأته بإمعان وتركيز وتأمل، يخرج بانطباع عام عن هذه الشخصية الوطنية الفذة، ويظفر بصورة جامعة لأعماله ومنجزاته ومواقفه ومعاركه التي هي جزء لا يتجزأ من تاريخ المغرب. وبذلك يكون هذا الكتاب تتميمًا لما كتبه المؤلف الأستاذ أبو بكر القادري عن رجالات الحركة الوطنية المغربية، واستكمالاً لما نشره من مذكراته في حقل العمل الوطني. والحق أن جوانب من شخصية المجاهد القادري تبدو لنا جلية في كتابه هذا، فهو حين يكتب عن رفيقه في الكفاح الحاج أحمد بلافريج، فكأنه يكتب عن نفسه. وتلك هي قيمة هذا الكتاب.

الخطاب الأول لأبي بكر القادري في أكاديمية المملكة المغربية(*)

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

حضرات السادة الزملاء الأفاضل،

أرى حقاً عليَّ، بادئء ذي بدء، وقد شرفني جلالة الملك المعظم، فأنعم علي بتعييني عضواً بأكاديمية المملكة المغربية، أن أزجي خالص الشكر والعرفان، ووافر الإجلال والاكبار، لرائد النهضة العلمية، وباعث أمجاد الأمة المغربية، وحارس الوحدة الترابية والعقائدية والفكرية، جلالة الملك الحسن الثاني، الذي أقام للفكر والعلم والمعرفة أركاناً، وأبدع فأحسن الإبداع وأتى منه ألواناً، وما معقلنا الحصين هذا، وقلعة الفكر والثقافة والعلوم هذه، إلا مظهر واحد من مظاهر عبقريته التي لا تطال، ووجه من جوه رعايته بالعلم وأهله، وقادة الفكر والمبرزين فيه، سواء منهم رعايا مملكته المنيفة، أو غيرهم من علماء شتى الأقطار.

وإن نظرة سيدنا هذه، نظرة شمولية، وهي تدل على عبقريته المثالية، ونظرته السامية إلى تحقيق مبدأ من مبادئ الإسلام الذي يجعل التعارف والتعاون أساسين في التعايش بين بني الإنسان، مصداقاً للآية الشريفة التي تقول: ﴿يا أيُّها النّاس إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، والآية الكريمة الأخرى التي تقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى﴾.

(*) هذا الخطاب المسهب الجامع، هو أثر نفيس من آثار الأستاذ أبي بكر القادري، لم ينشره في كتاب من كتبه، ولذلك أجدني حريصاً على نشره لما يشتمل عليه من عظيم الفوائد، ولما يعكسه من نزعة إصلاحية عبر عنها من خلال إيراد أمثلة من تاريخ المغرب.

فإلى جلالته وهو العالم الفذ، والمفكر المبدع، أتوجه بما يليق بمقامه من آيات الامتنان والتقدير، والدعاء بإطراد النصر والتأييد والتوفيق.

حضرات السادة الزملاء،

إن من مقاصد أكاديمية المملكة المغربية، إثراء التفكير الإنساني في مختلف فروع النشاط الفكري والعقلي والديني، وإبراز القيم والمقومات التي قامت على أساسها الحضارة البشرية في شتى العصور والأحقاب، استمراراً للدور الريادي الذي اضطلع به المغرب المسلم على الدوام، إشعاعاً وهداية وتأثيراً في العلاقات بينه وبين مختلف الشعوب، سواء في ذلك الأشقاء والأصدقاء في إفريقيا وأوربا وآسيا الذين امتدت بيننا وبينهم جسور الإخاء والتعاون والتفاهم، ذوداً عن المثل العليا، وحماية المبادئ السامية، وصيانة التراث الحضاري المشترك.

وإن رسالة المفكرين المغاربة، ومسؤولية علمائنا الأعلام، ومواقف المصلحين منهم، لـمِمّا يقوم شاهداً على جلال الإسهام الحضاري، وشموخ العطاء الإنساني اللذين تميز بهما تاريخ المغرب، الأمر الذي بوّأه مكانة انفرد بها وما يزال.

فلقد كان هؤلاء الرجال القمم، نماذج يعتز بها تاريخنا الشاهد على اهتماماتهم المتعددة ونضالهم الناطق بعلو كعبهم في القيادة الفكرية، وسمو منزلتهم في الساحة الجهادية، بما كانوا يصدرون عنه من إيمان راسخ، ويقين ثابت، وما جمعوه من تبحر في العلوم، وتضلع في الفنون، واهتمامات بفروع المعرفة، والإبداع في حقولها المختلفة. وإن سعيهم الموصول لصياغة العلاقات الاجتماعية، وترشيد الاتجاهات العقلية والسياسية، وتبصير الناس بأمور دينهم، وإقامة شؤون دنياهم على أساسٍ من العقيدة والإيمان مكين، وعلى قاعدة من العلم والفهم والاستيعاب متينةً راسخة، لما يدل على أنهم كانوا هداة صادقين، وموجهين مخلصين، وواعين لمسؤولياتهم وناصحين، ضاربين

بسلوكهم الذي يمزج بين العلم والعمل، والمعرفة والجهاد، والنظرية والتطبيق، أروع الأمثلة على نحو هو غاية ما تسعى إليه الإنسانية اليوم، ومنتهى ما تشرئب إليه أعناق المفكرين والعلماء المناضلين.

ولا غرو، والأمر كما رأينا، أن يكون هؤلاء الرواد الأوائل، مصابيح على الطريق الطويل الممتد الذي سلكه المغرب طوال عهوده المختلفة، مؤثراً وفاعلا، ومسهماً في التحولات المتعاقبة التي عرفها الفكر الإنساني، أخذاً وعطاء وإفادة واستفادة.

حضرات السادة الزملاء،

إذا كان تألق المغرب وازدهاره، تواصلا دون انقطاع، في شتى حقول النشاط الإنساني، فإن حضوره الدائم في الساحات الفكرية، اصطبغ دائماً بالتميز والخصوصية.

ومن هذه الخصال الوطنية، والمثل العربية الإسلامية، وخصائص الإنسية المغربية، استمد رجال الفكر وقادته في هذه البلاد، حوافز الكفاح على شتى الأصعدة، ما جعلهم عنصر الاستقرار للكيان المغربي، وعامل تعميق لقيم الإسلام، ومصدر تنشيط وإنعاش للحركة الفكرية، سواء في المجال الفقهي والتشريعي، أو في ميادين الإبداع الثقافي والابتكار الأدبي والعلمي.

لقد كان علماء المغرب وفقهاؤه واثقين بأنفسهم في مجالات دراستهم، آخذين بمنهج النقد في درايتهم وروايتهم، معروفين بمرونتهم وقدرتهم على التكيف حسب العوامل البيئية والجغرافية والنفسية، بحيث كان العلماء المغاربة في طبقاتهم العليا، يماثلون إخوانهم المشارقة في أصالتهم وعراقتهم، ويتجاوبون مع ضمير الأمة الإسلامية التي تنظر إليهم باعتبار وإكبار. ولقد لاحظ ذلك كثير من الباحثين، ومن جملتهم الدكتور سامي النشار الذي كتب قائلاً : «إذا كان في المشرق كواكب أضاءت الفكر الإنساني في مختلف النطاقات العلمية، كذلك في المغرب كواكب لا تقل أصالة عن كواكب المشرق».

أيها الزملاء الكرام،

لقد أدرك كثير من علمائنا الأعلام خلال التاريخ ما نيط بهم من مسؤوليات، وما تحملوا من ميراث ثقيل، فأقبلوا يؤدون واجبهم بإخلاص وصدق يقين، وكتبوا صفحات سجلت في التاريخ بأحرف من نور، وعلموا أن مهمتهم لا تنحصر في مجال واحد من مجالات الحياة الإنسانية، ولكنها تشمل كل المجالات التي تصون الشخصية في المجتمع، وتصرف عنها كل ما من شأنه أن يشينها أو يعرضها للذوبان. وهكذا نراهم فرسان الميدان في الدفاع عن حقائق الدين، ومكافحة شبهات المبطلين، كما نراهم في مقدمة المجاهدين لصد عاديات المغيرين من الخصوم والأعداء المتربصين.

وإن في بعض مواقف هذه الصفوة من الشعور بالمسؤولية، والاهتمام بقضايا المجتمع الإسلامي، والشجاعة القلبية، وعمق الوعي وشدة الالتزام، ما ينير لنا الطريق، وما يدفعنا إلى تقصي جوانب من حقائق تاريخنا، وما يحثنا على الاعتزاز بنصاعة هذه التاريخ، ويقوي فينا الرغبة إلى الأخذ من عبره التي لا تنقضي، ودروسه التي لا تنتهي، استلهاماً واستمداداً، وتزوداً لما يفيدنا في حاضرنا ومستقبلنا.

وإذا كان المقام لا يسمح بالإسهاب، فلا أقل من إيجاز القول حول بعض النماذج من هؤلاء الأعلام، الذين أبلوا البلاء الحسن في الدفاع عن تراثنا الحضاري، وإننا كنا من أسبق الأمم والشعوب إلى معالجة قضايا وشؤون، على نحو هو مثار إعجاب وموضع اعتبار.

فهذا عالم من جلة علماء الأندلس والمغرب، وعلم من أعلام الفقه والدعوة والنصيحة والتربية، الإمام محمد بن ابراهيم النفزي الرُّندي المكنى بابن عباد والمتوفى بفاس سنة 792هـ، يعطي المثال على العالم الشاعر بمسؤولياته نحو أفراد مجتمعه. فعندما يلاحظ بعض الانحراف في بعض الولاة، والمظالم التي تصيب المواطنين من جراء تصرفاتهم، لا يطيق السكوت عن ذلك، بل يعتبر

السكوت خيانة للعهد الذي أعطاه لأمير المومنين، وتنكراً لأمانة التبليغ التي كلف بها، وإقراراً للظالمين على ظلمهم، وهو ما لا يرضاه أبداً، ولا تستسيغه ذمته وأمانته، فيكتب لسلطان المغرب في وقته، السلطان عبد العزيز الأول المريني، رسالة يمكن أن نعتبرها نموذجاً لما كان عليه العلماء من اهتمام بقضايا وشؤون المجتمع، ونضال مستميت في سبيل الذود عنه، ودفاع عن مصالح أفراد الأمة وجماعاتها، وعمل على رفع الحيف عنها، كما تدل على التجاوب الصادق الذي كان حاصلاً بين العلماء العاملين، والأمراء المخلصين.

لقد كتب ابن عباد رسالة طويلة إلى السلطان المريني، يشتكي فيها إليه من مظالم الرتب، وهي ما كان يؤخذ من المسافرين في الطرقات، ويطالب بزوالها. ثم يقول في رسالته : «وأنا الآن أجدد الرغبة إليكم، فاعلم يا أمير المومنين أن من تولى ذلك من أهل الفساد والشر، قد انتشروا في بسيط الأرض، وقطعوا طرقاتها على المساكين والمستضعفين، وحازوا منهم الأموال الحرام بالنصب والغصب، ما استعانوا به على ارتكاب الكبائر والفواحش».

ويغتنم هذه الفرصة ليبين الشروط التي لابد من توفرها في الولاة والعمال، فيقول : «واعلم يا أمير المومنين أن العدالة مشروطة في كل ولاية، كائنة ما كانت، لابد للمستولى من الاتصاف بها وهي أن يكون صادق اللسان، ظاهر الأمانة، عفيفاً عن المحارم، متوقياً للمآثم، بعيداً من التهم والريب، مأموناً في الرضى والغضب، مستعملاً لخصال المروءة الدينية والدنيوية. فهذه الخصال هي التي ذكر العلماء أن باجتماعها تكون العدالة في الولاة». ثم تقول الرسالة : «فعليكم يا أمير المومنين أن تتصفحوا أحوالكم، وتتفقدوا عمالكم، وتكفوا أيديهم، وتستخرجوا منها ما خانوكم فيه أنتم ومن تقدمكم، وذلك بأن تتعرفوا مقدار ما كان يملك أحدهم من المال قبل الولاية، وتأخذوا مازاد عليه، وتجعلوه في بيت مال المسلمين، كما كان يفعله الخلفاء الراشدون، ولا شك أنكم تملأون بذلك بيوت الأموال، وتستغنون بذلك الاستغناء التام، عما أحدث من المظالم والمراسم والمغارم الضارة برعيتكم».

وقبل ابن عباد بنحو ثلاثة قرون، نجد رائداً مغربياً من رواد مدرسة الفكر السياسي الإسلامي، هو الإمام أبوبكر محمد بن الحسن الحضرمي المرادي صاحب «**كتاب السياسة**»، أو «**الإشارة في تدبير الإمارة**»[1]، يضع كتابه المذكور ليكون دستوراً لابن بكر بن عمر اللمتوني وللمرابطين من بعده. وهو كتاب قيم للغاية يتحدث فيه عن فلسفة السياسة وعلاقة الحاكمين بالمحكومين، والصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الحاكم، إلى غير ذلك من الأبواب التي تؤكد أن علماءنا لم يكونوا في غفلة عن قضايا مجتمعهم. ولقد جاء في مطلع الكتاب : «أما بعد، أطال الله بقاءك في عز لا يزال الولي يحمده، والعدو يحسده، وأدام ارتقاءك في مجد لا تزال الأيام تجدده، والتوفيق يؤكده». إلى أن يقول : «فمن أحب المعالي أدركها بالحكمة، ومن أحب الحكمة أدركها بالنظر المنتظم، ومن عني بالنظر في الأمور، أدركه بمساءلة العلماء ومجالسة الحكماء، وإدمان الفكرة في خلواته، واستشارة ذوي الرأي من ثقاته».

ومن الأعلام الذين عملوا بنشاط ودؤوب لقضايا المجتمع المغربي وإصلاحه ومقاومة الانحراف فيه، الإمام أبو عمران الفاسي وتلميذه المخلص الصادق، وجاج بن زلو اللمطي المؤسس الأول لدولة المرابطين بجزولة، والتي كانت مركزاً علمياً مزدهراً، وزاوية يتكون فيها العلماء العاملون، والمجاهدون الصادقون.

فلم يكن عبد الله بن ياسين إلا تلميذ الوجاج، ولم تكن ثورته على الانحراف والانحلال والزيغ والفساد، إلا نتيجة ما تلقاه على أستاذه من دروس.

لقد كان عبد الله بن ياسين مثال العالم المستقيم، العامل لدينه ودنياه، المجاهد في سبيل إعلاء شأن أمته وعقيدته، لقد كان يدعو ويعلم، ويجاهد ويكافح، مع تقوى وصلاح، واقتفاء لخطى الأسلاف، قال عنه الدكتور النشار : «لم أجد بعد صحابة رسول الله عبقرياً من أبطال الإسلام، لم تشب حياته شائبة مثل عبد الله بن ياسين».

---

(1) حققه الدكتور سامي النشار، وصدر سنة 1981 عن دار الثقافة، الدار البيضاء.

وإذا طوينا صفحات التاريخ، ومررنا سريعاً عبر أحقابه إلى عصر الدولة العلوية الشريفة تجنباً للإطالة، نجد من أبرز العلماء والمفكرين الذين واكبوا ظهور هذه الدولة المجاهدة، الإمام أبا علي اليوسي، الإمام الذي تتلمذ عليه بعض الملوك العلويين، أمثال المولى الرشيد والمولى إسماعيل رحمهما الله. لقد اهتم اليوسي بقضايا مجتمعه، وتعلق التعلق الكبير بملوك دولته، فدفعه تعلقه إلى بذل النصح الصادق، قصد توطيد أركان الدولة العلوية واستتباب الأمن في ربوعها، وتطوير المجتمع المغربي في ظلها، ومقاومة كل ما من شأنه أن يسيء إليها.

لقد رأى اليوسي بعض الممارسات التعسفية التي يقوم بها جباة الأموال فلم يرضها ولم يستسغها، فكتب إلى أمير المومنين المولى اسماعيل كتاباً قال فيه : «فلينظر سيدنا فإن جباة مملكته، قد جروا ذيول الظلم على الرعية، ولم يتركوا للناس ديناً ولا دنيا، أما الدنيا فقد أخذوها، وأما الدين فقد فتنوهم عنه، وهذا شيء شهدناه، لا شيء ظنناه. ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم، فعلى السلطان أن يتفقد الجباة، ويكف أيديهم عن الظلم». وتتعدد نظرات اليوسي إلى قضايا أمته، وتتنوع اهتماماته بمشاكل دولته، فيرى وكأنه يعيش في نفس الظروف التي نعيش فيها الآن، إن حماية الثغور من آكد الواجبات. ويكتب كذلك إلى أمير المومنين قائلاً : «فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من القلعة إلى ماسة، ويحرضهم على الجهاد والحراسة، بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم، ويترك لهم خيلهم وعدتهم، ويزيدهم ما يحتاجون إليه، فهم حماة بيضة الإسلام».

ويلاحظ أن التعبئة الشعبية تتطلب الأمن والاطمئنان، ونشر ألوية العدل بين جميع أفراد الرعية، فيكتب قائلاً : «إن المنتصبين للانتصاف بين الناس، وهم العمال في البلدان وخدامهم، هم المشتغلون بظلم الناس، فكيف يزيل الظلم من يفعله ومن ذهب يشتكي، سبقوه إلى الباب فزادوا عليه فلا يقدر أحد أن يشتكي».

واليوسي في نصائحه يحمد الله أن جعله في دولة علوية هاشمية شريفة، ومن ضمن رعاياها الأوفياء. فيقول : «حمدنا الله تعالى إذ كنا في دولة سلطان هاشمي علوي فاطمي، يستمع الحق ويطلبه ولا يأنف عنه، ولا يستفزه كبرياء ولا شر ولا بطر، وكنا نرى من سيدنا التشوف إلى الموعظة والنصح، والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنجح».

حضرات الزملاء الأماثل،

كان هذا ديدن العلماء العاملين، وفي مقابله كان ملوكنا الأشاوس، وأمراؤنا المخلصون، يتلقون هذا النصح بالقبول الحسن، لاطمئنانهم إلى صدق الناصحين وخلوص نصائحهم، وتجردهم في نصحهم عن الأغراض والمنافع والأنانيات.

لقد كانت العلاقة بين الملوك والعلماء والمفكرين، يسودها التناصح الصادق، والتواصي بالحق والخير، ولم تكن قط من قبيل العلاقات المتنافرة، والارتباطات المتشاكسة. لقد كان ملوكنا رحمهم الله، يسعون ما وسعهم السعي، إلى تقريب العلماء وتشجيعهم، وإتاحة فرص العمل العلمي والنصحي لهم، ليمارسوا رسالتهم في الحياة، ويؤدوا واجبهم في التبليغ.

وإذا شئنا مثالاً على ذلك من واقعنا المعاصر، نجده، ماثلاً بوضوح كامل، في السلوك الرفيع الذي يتبعه سليل هذه الكوكبة، جلالة الملك الحسن الثاني الذي أبى إلا أن يربط الحاضر بالماضي بأوثق رباط، محافظاً أعز الله أمره على تلك الشعلة التي أضاءها أجداده الميامين، ووالده العظيم، متقدة منيرة، هادية إلى سواء السبيل.

لقد كان مؤسسو هذه الدولة العلوية، ملوكاً علماء، مشاركين في الحياة الثقافية بالبلاد، لهم مواقف مشرفة في الذود عن الفكر وحماية المفكرين، فالمولى رشيد من أخلص ملوك المسلمين لأهل العلم، ومن أشدهم حرصاً على

تشجيعه ونشره، كان مجلسه كما ذكر ذلك صاحب الظل الوريف[2]، غاصاً بالعلماء يتجاذب معهم أطراف الأحاديث، ويتناشدون فيه غرائب الأشعار. وفي الشجرة الزكية[3] : «كثر في أيامه العلم، وانتشرت أعلامه، وفر الجهل وظلامه، واعتز أهل العلم بعزه، وهاب الناس العلماء خوفاً من صلصلة سيفه وهزه». لقد كان هذا الملك المؤسس المولى رشيد، يحضر دروس الإمام أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي ونظرائه بالقرويين، ويناقشهم في دقائق المسائل، ويشجعهم بوافر العطايا.

واقترن المجد العسكري والسياسي في عهد السلطان المولى إسماعيل بازدهار العلم والمعرفة، وكثر العلماء المختصون في الفنون، وتعدد المؤلفون البارعون. ولقد جاء في «الظل الوريف» حسبما نقله عنه المؤرخ ابن زيدان : «وقد تخرج في هذه الدولة السعيدة جماعة من الأعلام، لهم القدم الراسخ في العلم، واليد الطولى في الإتقان، وألفوا تآليف حسنة، منهم من فسر كتاب الله، ووضع عليه تقييداً فائقاً، ومنهم من شرح موطأ الإمام مالك، ومنهم من شرح الشفا لعياض، ومنهم من شرح مختصر خليل، ومنهم من شرح ألفية بن مالك، ووضع على ابن هاشم حاشية، ومنهم من شرح المسلم ومنهم من شرح السبكي، ومنهم من شرح عقيدة السنوسي، وما من علم من العلوم إلا وألف فيه علماء هذه الدولة، وأبدأوا فيه وأعادوا، ووقفوا على الغوامض التي لم يعثر عليها من مضى». ويضيف مؤرخ الدولة العلوية سيدي عبد الرحمان بن زيدان قائلاً : «إن نهوض هذا الإمام وسلفه بالعلم، واعتناءهم به، وسعيهم في نشره بين سائر الرعية، قد شرق وغرب، وسارت به الركبان في سائر الأقطار والبلدان، حتى صار علماء المشرق يهدون إليه مؤلفاتهم. وقال أبو محمد عبد السلام بن الخياط القادري : «قرئ العلم في أيامه، وأمنت البلاد والعباد بما لم يتقدم في

(2) الظل الوريف في مفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف، للإفراني.

(3) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد مخلوف.

غيره من الملوك. وقال الدلائي في طالعة «أشرف المقاصد» عند حديثه عن العلم في الدولة العلوية : «فإذا بدرر عزهم طالعة مسفرة، وإذا وجوه أفراحهم ضاحكة مستبشرة، فذهبوا حينئذ في العلوم كل مذهب، وتسنموا في المدارك أعلى ما يتطلب، فعمت مجالس التدريس مساجدهم، وغشيت رحمة التعاطي للفهوم معاهدهم، وصارت حجج العلم لديهم تتمايل اتضاحاً، وشبهات الجهل في جانبهم تتضاءل افتضاحاً». ويروي المؤرخ ابن زيدان في سيرة المولى إسماعيل أنه كان يستدعي للسير معه كل ليلة فحول أهل العلم، والأدباء المفكرين يتدارسون الأدب والتاريخ وسير الملوك، حسبما صرح بذلك غير واحد من معاصريه. كما كان رحمه الله يلزم من فيه الأهلية من العلماء بالتصدي والتصدّر للتدريس.

أما السلطان العالم المصلح صاحب المؤلفات المشهورة والإصلاحات الكثيرة المولى محمد بن عبد الله، فحَدِّث عن البحر ولا حَرَج، فلقد كان من فحول أهل العلم والنظر والفكر والإصلاح، عمل على تجديد نظام القرويين واختار المؤلفات التي تدرس فيها على حسب الفنون، من تفسير وحديث ونحو وبيان، وسيرة وتوحيد، وحساب وتوقيت، وقام بحركة فكرية جرّيئة تنشر مبادئ السلف بين الخلف، وتنتصر للسنة وتحارب البدعة، وتتصدّى للإنحراف العقائدي والسلوكي وتشدد على أهل الزيغ والهوى والبدع الضالة، ولقد بلغ درجة من التفوق العلمي، مكنته من أن يجيز ويستجيز، شأن الأئمة المقتدى بهم.

وفي المجالات الحياتية الأخرى، عمل على تنظيم العدلية والمحاكم القضائية، واهتم بتسيير شؤون البلاد السياسية على أساس من الشوري التي يدعو إليها الإسلام، وكان لا يشاور إلا أهل الرأي والإخلاص، من أمناء الدين والعلماء العاملين.

وجاء السلطان الصالح المصلح المولى سليمان ليتابع سيرة أبيه، ويهتدي بهديه. فلقد جاء في «شجرة النور الزكية» : «صرف همّته في قراءة العلم

وتدريسه وكان عالماً عاملاً محباً للعلم وأهله». وفي «الدرر البهية»[4] : «لازم مجالس العلم والتدريس، حتى صار في زمانه الإمام، ونشر راية العلوم في الآفاق». ويحدثنا الناصري في «الاستقصا»[5] عن المكانة العلمية للسلطان مولاي سليمان بقوله : «وأما جمعه لأشتات العلوم، فقد كان وارثاً من ورثة الأنبياء، حاملاً للواء الشريعة جامعاً مانعاً، إذا بحث في الأخبار كان كجامع سفيان، وفي الأشعار كنابغة ذبيان، أو في الفطنة والكياسة، كإياس، أو في النجدة والرأي كالمهلّب، وإذا خاض في السنة والكتاب، أبدى ملكة مالك وبن شهاب، ولو تصدّى في الفقه للفتيا والتدريس، لم يشك سامعه أنه ابن القاسم أو ابن إدريس، وإذا تكلم في علوم القرآن انهل بما يعمر مورد الظمآن». ومن مآثر السلطان مولاي سليمان، وتقديره للعلم والعلماء، أنه عاد أبا محمد عبد القادر بن شقرون وهو من خيرة علماء عصره في مرض موته، وحضر جنازته، وكان من المشيعين لها راجلاً حافياً من جامع القرويين إلى الضريح الإدريسي، ووضعه بيده في مضجعه الأخير، ووقف حتى سوى التراب على قبره.

ولعل هذا المشهد يذكرنا بمَأْثُرَةٍ من مآثر جلالة الملك الحسن الثاني أطال الله بقاءه، عند وفاة أخينا الزعيم العالم المفكر الإسلامي علال الفاسي، فقد أبى تقدير جلالته للعلم والعلماء المخلصين، إلا أن يزور بيت الفقيد العزيز قبل تشييع جنازته، ويقرأ الفاتحة علي جدثه الطاهر، ثم ينيب عنه ولي عهده الأمير سيدي محمد، ليشارك في تشييع جنازته، ويقف على دفنه في محفل رهيب، دل على عمق الإخلاص وصفاء التجاوب.

حضرات الزملاء الأعزاء،

لقد توالى اهتمام ملوك الدولة العلوية بالعلم والعلماء وتدبير شؤون البلاد والدفاع عن حوزتها وكيانها بكل حزم ونشاط. فهذا السلطان المولى عبد الرحمان الذي قال عنه صاحب الاستقصا : «إنه هو الملك اسماعيل الثاني،

(4) الدرر البهية والجواهر النبوية في الفروع الحسنية والحسينية، للفضيلي.

(5) الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، للناصري.

نظراً لضبطه وحزمه وكمال تدبيره وتبصره في تسيير شؤون الدولة وعمله على تجديد شبابها، ينظر في شؤون بلاده كلها ويهتم بدوره بقضية العلم والعلماء، ويعطي المثال من نفسه في تربية أبنائه وتثقيفهم وتكوينهم التكوين الصحيح، ويبعث بأحد أبنائه إلى مدينة سلا، وكانت مدينة علم وجهاد، ليدرس فيها مع جماهير الطلبة السلويين ويطلب من قاضيها إذ ذاك الشيخ عبد العزيز محبوبة أن يختار له عشرين طالباً من الطلبة النجباء ليدرسوا بعض العلوم العسكرية ثم يأمره أن يمنحهم منحاً متفاوتة حسب نجابتهم واجتهادهم، وكتب السلطان بمثل هذا لقضاة المراسي المغربية الأخرى.

والوصية التي كتبها المولى عبد الرحمان لأولاده عندما وجههم لأداء فريضة الحج، تدل أعظم الدلالة على أن هذا السلطان كان من النوادر الذين لا يجود الزمان بأمثالهم. ويخلف المولى عبد الرحمان بعد وفاته ولده المولى محمد، فيسير هو بدوره على نهج والده، ويهتم الاهتمام الكبير بقضية الجيش وتكوينه وتدريبه وتعليمه، ويضع المنهج الدراسي الذي يجب أن يكون على أساسه كل فرد التحق بالجندية، سواء ما يتعلق بالدروس التثقيفية أو الدروس الأخلاقية والدينية، زيادة على الدروس العسكرية، وينصح بتعريب المصطلحات الأجنبية التي كانت تستعمل في تكوين الجيوش. وفي مجال تكوين الجيش وتعليمه تقول نصائحه : «ولابد من ترتيب مجلس يومي يسمعون فيه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازي الخلفاء الراشدين وسلف الأمة، وأخبار رؤساء العرب وحكمائها وشعرائها ومحاسنهم وسياساتهم، وليتخير لهم من الكتب الموضوعة في ذلك أنفعها مثل : «كتاب الاكتفاء»[6] لأبي الربيع الكلاعي وكتاب ابن النحاس في الجهاد وكتاب «سراج الملوك»[7] ونحوها، فإن ذلك مما يقوي إيمانهم ويحرك هممهم، ويؤكد محبتهم في الدين وأهله».

وتولى الأمر بالمغرب بعد المولى محمد بن عبد الرحمان ولده وخليفته المولى حسن الأول، وفي عهد هذا السلطان العظيم ازدهرت العلوم، وكثر العلماء،

---

(6) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء.

(7) للطرطوشي.

ويكفي أن نذكر من بينهم عالم المغرب سيدي المهدي ابن الطالب بن سودة، عالم فاس والمغرب، والصادع بالحق الذي لا تأخذه في الله لومة لائم العلامة سيدي محمد بن المدني كنون، وصاحب الاستقصاء العلامة السلفي سيدي أحمد بن خالد الناصري، والقاضي الأثل العلامة الناسك السيد عبد الرحمن البربري، والعلامة القاضي أبو بكر عواد. ومن محاسن هذا الملك العظيم تقريب العلماء واستشارتهم في الأحداث واستفتاؤهم في القضايا وتوجيهه للبعثات المتعددة من الطلبة لتعلم العلوم الرياضية والحربية والصنائع المهمة في أروبا ومصر، واضعاً بذلك الأسس الأولى للنهضة الحديثة.

حضرات الزملاء الأعزاء،

من الحق أن نقول : إن هذه المواقف العلمية، وسلوك أولي الأمر المتسم بالرعاية والعناية، كل ذلك مما يمهد الطريق أمام المغرب الجديد في عهده الزاهر، لسلوك سبيل العلم والمعرفة.

وها نحن أولاء نسجل ونشهد ما تسير عليه بلادنا من تطور حثيث في هذا المضمار، ما يملأ قلوبنا اطمئناناً وثقة وارتياحاً، ويجعلنا نقر عيناً باستمرار دولة العلم والفكر في توازن دقيق وتلازم وثيق في عهد ملكنا العظيم الحسن الثاني رحمه الله، الذي يطمح إلى أن يجعل من هذه البلاد بلاداً متقدمة راقية في مختلف مجالات المعرفة، حتى تبقى مكانتها مرموقة وهيبتها مفروضة، ورسالتها مستمرة، ووحدتها دائمة.

وقبل الختام، لا يسعني إلا أن أعبر عن شكري وامتناني، وعطفي وتقديري لصديقي العزيز الباحث الكبير والمؤرخ الشهير الدكتور عبد الهادي التازي، على كلماته الطيبة التي قدمني بها إلى جمعكم الموقر. والدكتور التازي في غنى عن التعريف، فهو علم من أعلام هذه البلاد، ومن خيرة الذين يعملون بدأب على التعريف بتراثها وأمجادها بأبحاثه وكتاباته. أتمنى أن أكون عند حسن ظنه وظنكم، راجياً من الباري تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

فلسطين قضية في ضمير
أبي بكر القادري

تحتل القضية الفلسطينية في العقيدة الوطنية الاستقلالية، مكانة الصدارة منذ أن تأسست الحركة الوطنية المغربية في طورها التنظيمي المعاصر في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي. وتمثل القضية الفلسطينية في برنامج النضال الوطني، المحورَ الرئيسَ ضمن الاهتمامات التي شغلت طلائع الوطنيين قادة الحركة الوطنية، وفي المقدمة منهم المجاهد أبو بكر القادري، الذي ارتبطت حياته بفلسطين، منذ أن كان فتى يافعاً يتلقى العلم على يد صفوة من العلماء والمربين في مدينته سلا في العشرينيات من القرن المنصرم، في تلك المرحلة الفاصلة من تاريخ منطقة الشرق الأوسط، التي تبلورت فيها السياسة الاستعمارية الهادفة إلى اغتصاب فلسطين من شعبها العربي، والتمهيد لإقامة وطن لليهود فوق تلك الأرض المقدسة، وهي المرحلة التي بدأت مع الحرب العالمية الأولى، حيث احتلت الجيوش البريطانية والفرنسية إقليم سوريا الكبرى الذي يضمّ سوريا اليوم ولبنان وفلسطين والأردن، مما مهد السبيل لدخول فلسطين تحت ما كان يعرف بالانتداب البريطاني الذي ما هو إلاَّ احتلال عسكري استبدادي، تماماً كما كانت الحماية في المغرب قناعاً للاحتلال الفرنسي والإسباني لبلادنا.

في تلك الأجواء نشأ المجاهد أبو بكر القادري حيث كان الوعي بخطورة ما كان يدبر لفلسطين من مؤامرات، يتبلور وينضج خلال المراحل المتعاقبة من ثورة البراق سنة 1929، إلى ثورة سنة 1936 التي امتدت إلى سنة 1939، إلى الحرب العربية الإسرائيلية سنة 1948 التي انتهت بهزيمة الجيوش العربية التي

- نشر في 2010/6/18.

دخلت الحرب بدون استعداد وبأسلحة فاسدة كان وراءها قادة لم يتحملوا مسؤوليتهم التاريخية كما كان يجب أن تتحمل المسؤولية في زمن الحرب، دفاعاً عن الأرض العربية المقدسة. فكان الخط البياني لتطور الأحداث في فلسطين موازياً لمسار تطور الأحداث في المغرب من وجوه عديدة، بحيث ارتبطت القضيتان المغربية والفلسطينية في وجدان المجاهد أبي بكر القادري، حتى أصبح من الصعب الفصل بينهما. وتوالى هذا الارتباط العضوي بلا انقطاع طيلة فترة الكفاح الوطني في عهد الحماية، ثم استمر بعد الاستقلال، وكان يزداد قوة ومتانة مع تعاقب المراحل التي قطعتها القضية الفلسطينية، من سنة 1956، إلى سنة 1967، ومن سنة 1973، إلى سنة 1982، وإلى اليوم، لدرجة أن حياة هذا المجاهد الوطني الكبير انطبعت انطباعاً قوياً بالقضية الفلسطينية حتى أصبح رمزاً لها هنا في المغرب، وحيثما حلّ من بلاد العروبة والإسلام.

لقد سرت فلسطين في دم المجاهد أبي بكر القادري مسرى الدم في الشرايين حتى غدا فلسطينياً، بحيث يصدق في حقه الوصف بأنه (المجاهد الوطني المغربي) و(المجاهد الوطني الفلسطيني) في آن واحد. وهذه درجة رفيعة من الالتحام بين القضيتين لا أبالغ ـ ولا أجازف ـ إذا قلت إنني لا أعرف لها مثيلاً.

أبو بكر القادري مجاهد فلسطيني ورمزٌ لفلسطين في المغرب، والمدافع الصلب الأمين عن القضية الفلسطينية في جميع الأقطار التي زارها، من الصين واليابان وباكستان والهند، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ومن الاتحاد السوفياتي السابق إلى قلب القارة الأفريقية. كان يعرف وعلى نطاق واسع، وحيثما نزل، بالمجاهد المغربي الفلسطيني، لأن كل من التقى به خلال زياراته المتعددة لشتى البلدان، كان يصعب عليه أن يفرق في شخصه بين المغرب وفلسطين. وكذلك كان شأنه في جميع مراحل حياته.

أروي هنا حادثتين لهما دلالة عميقة عشتهما؛ الأولى عن الزيارة التي قام بها المجاهد الشهيد أبو عمار ياسر عرفات الرئيس الفلسطيني السابق، لأخيه

المجاهد أبي بكر القادري الذي كان يرقد في سريره بإحدى غرف المستشفى العسكري في مقره القديم بالرباط، وكان الرئيس عرفات قد أخذ طريقه إلى المستشفى من الديوان الملكي مباشرة، بعد لقائه بجلالة الملك الحسن الثاني، ليعود رفيقَ الكفاح الصديق الوفي المخلص الذي كان يبادله حباً بحب.

الحادثة الثانية هي الزيارة التي قام بها المناضل السيد محمود عباس أبو مازن الرئيس الفلسطيني، إلى بيت أخيه المجاهد أبي بكر القادري في حي بطانة بسلا، ليحيي معه صلة رحم الجهاد من أجل فلسطين، وكان الرئيس أبو مازن قد جاء إلى بيت صديقه ورفيقه في الكفاح، مباشرة من الديوان الملكي على إثر مقابلة جلالة الملك محمد السادس له. وتلك قمة الوفاء والولاء لفلسطين في شخص هذا المجاهد الوطني المغربي الفذ الذي لا يفرق بين الكفاح من أجل تقدم بلاده وازدهارها والنهوض بها والرفع من شأنها، وبين الكفاح في سبيل تحرير فلسطين واسترجاع الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، وفي مقدمتها الحق في إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة بعاصمتها القدس.

إن فلسطين قضية حيّة نابضة بالحياة ثابتة راسخة في ضمير المجاهد أبي بكر القادري.

معنى تكريم المجاهد أبي بكر القادري ودلالاته الوطنية

تكريم المجاهد الأستاذ أبي بكر القادري اليوم في قاعة باحنيني بوزارة الثقافة، هو في عمقه وجوهره وفي مفهومه ومضمونه، هو تكريمٌ لمبادئ الوطنية المغربية التي خرج من صلبها حزب الاستقلال، والتي تربّى عليها ونشأ وترعرع في كنفها القادة المؤسّسون للحزب، منذ أن كان كتلةً للعمل الوطني أولاً، في سنة 1934، ثم حزباً وطنياً من سنة 1937 إلى سنة 1944، عندما أعلن عن تأسيس حزب الاستقلال بفرض إرادة الشعب في الحادي عشر من شهر يناير من السنة ذاتها.

المجاهد أبو بكر القادري هو أحد رموز الحركة الوطنية، وقائدٌ من قادتها، ورائدٌ من رواد العمل الوطني المغربي الذي قام على مبادئ الوحدة الوطنية في مدلولاتها الشاملة ومضامينها العميقة، ففي مسيرته النضالية التي امتدّت حتى الآن سبعين عاماً، تَتواكَبُ مراحل النضال التي عاشها شعبنا من أجل تحرير الوطن واستقلال الدولة واستكمال وحدتها الترابية، والتي انخرط فيها جميع فئات الشعب، وكان حزب الاستقلال هو قائد الركب الوطني في المنطقة الخاضعة للحماية الفرنسية، كما كان حزب الإصلاح الوطني قائداً للحركة الوطنية في المنطقة الخاضعة للحماية الإسبانية.

فحياة المجاهد أبي بكر القادري من حياة الوطنية المغربية، منذ أن كانت فكرةً وهاجساً، إلى أن تبلورت في عقيدة وتنظيم وطني ضمن إطار جماعة من الشباب المؤمن بحق بلاده في الحرية والاستقلال، وإلى أن صارت جهاداً وطنياً سياسياً

- نشر في ملحق (العلم الأسبوعي) يوم 21 أبريل 2007.

من خلال الحركة والكتلة، ثم الحزب الوطني الذي ما أن أعلن عن تأسيسه في بداية سنة 1937، حتى بادرت السلطات الاستعمارية إلي قمعه والزجّ بقادته ومناضليه في السجون والمنافي، في خريف العام ذاته. وبذلك دخل الحزب الوطني مرحلة العمل السري، إلى أن فاجأ الجميع بظهوره في طور جديد، وباسم جديد هو حزب الاستقلال، في الحادي عشر من شهر يناير سنة 1944.

عاش المجاهد أبو بكر القادري هذه الأطوار النضالية، وكان في الطليعة من المنضلين ؛ دخل السجون في العقود الثلاثة، في الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات، وعرف النفي في المرحلة الأخيرة، وامتحن في سبيل الله، فلم يضعف ولم تلن له قناة، وكان مثالاً للصمود والثبات والبرور بالقسم الذي أدّاه يوم أن انخرط في العمل الوطني السري، وهو بعدُ فتىً يافع في السابعة عشرة من عمره.

آمن المجاهد أبو بكر القادري بالمبادئ الوطنية التحرّرية، التي هي مبادئ الإسلام والحرية والاستقلال والوحدة.

وناضل مع إخوانه في الحزب نضال الشرفاء من أجل هذه المبادئ، واتسعت دائرة نضاله وتعدّدت مجالاته، فكان يعمل من أجل الوطن في المدرسة التي أسسها في سنة 1933، وهو في العشرين من عمره، ويعمل من أجل الوطن في الخلية السرية، ويعمل من أجل الوطن في جمعية المحافظة على القرآن الكريم التي أسسها في سنة 1932، وكان العمل من أجل الوطن هو حياته وهمّه الأكبر، فكان وطنياً متأجج الوطنية، لا يهدأ ولا يستكين إلى راحة، كثير التحركات والجولات والاتصالات، يبشر بأفكار الحزب، وينظم صفوف مناضليه، ويحشد له الأنصار والمتعاطفين، ويشنّع بالسياسة الاستعمارية، ويندّد بممارسات الحماية، ويفتح مدارك الشعب على الوعي بخطورة الأوضاع، ويحرضه على التعبئة ضد الوجود الاستعماري.

كان المجاهد أبو بكر القادري أصغر القادة الوطنيين الذي أسسوا للعمل الوطني سناً، وكان أول اتصاله بهؤلاء الزعماء في سنة 1931 عندما بدأ يتردد على بيت الأستاذ محمد اليزيدي (بوشعيب) في الرباط. ولذلك ارتبط الرجلان ارتباطا وثيقاً، فكان أن اختير ليكون ضمن العشرة الذين قدموا (مطالب الشعب المغربي) إلى سلطات الحماية، بترشيح من محمد اليزيدي.

تمثلت في شخصية المجاهد أبي بكر القادري ملامح ثلاث شخصيات وطنية رائدة، ففيه حرارة إيمان علال الفاسي، وعمق تفكير محمد اليزيدي، وديبلوماسية التعامل التي كانت ميزة الحاج أحمد بلافريج. أخذ عن هؤلاء القادة، وهم جميعاً أكثر منه سناً، وهضم ما أخذ وامتزج ذلك بمؤهلاته الذاتية وخصائصه وسجاياه التي حباه الله بها، فكان رحمه الله، شخصية وطنية هي في حدّ ذاتها مدرسة في الكفاح والصبر والثبات والوفاء والإنتماء والإيمان بقيم المغرب ومقدساته، تجمعت فيها مبادئ الوطنية المغربية المؤمنة بالإسلام سبيلاً إلى الحرية والانعتاق والقوة والمناعة، كما تجمع فيها تراث الحركة الاستقلالية وملاحم حزب الاستقلال وأمجاده وانتصاراته في وجه الاستعمار الذي كان يناصبه العداء.

فتكريم المجاهد أبي بكر القادري هو تجديد العهد والقسم بهذه المبادئ الخالدة، وتقوية الصلة بتاريخ حزب الاستقلال الذي يقود معركة اليوم والغد من أجل وطن كريم عزيز الجانب قوي البنيان، بقيادة جلالة الملك محمد السادس، ومن أجل مواطنين أحرار يمارسون شؤونهم في دولة الحق والقانون والمؤسسات، وفي ظل القيم الإسلامية العاصمة من الفتن.

لقد علمنا المجاهد أبو بكر القادري أن التمجيد والتكريم يكونان للأفكار وللمبادئ وللقيم التي آمن بها الرجال ونذروا حياتهم للدفاع عنها. ولذلك فإن تكريم حزب الاستقلال اليوم لأحد قادته المؤسسين، هو تمجيد لمبادئ الحزب ولقيمه ولمقوّماته، ونفخ لروح جديدة فيها.

الإجماع الوطني على حب أبي بكر القادري(*)

المجاهد أبو بكر القادري من الرجال الأفذاذ الذين سجّلوا أسماءهم بحروف من نور في سجّل التاريخ، وتبوأوا أعلى الدرجات بين قادة الجهاد الوطني وبُناة الاستقلال وأعلام النهضة، فلقد كان أحد الرواد الكبار والماهدين الذين يعود إليهم الفضل في تحرير المغرب واستقلاله وبناء القواعد للدولة المغربية المستقلة. وكان في الطليعة المناضلة قائدًا، وزعيمًا، ومعلمًا للأجيال، وراسمًا لخريطة الطريق نحو المستقبل. وهو من الصفوة المباركة التي جاهدت بالفكر الصائب، وبالرأي السديد، وبالموقف الشجاع، وبالعمل الدؤوب في مجال التربية والتعليم الذي كان ساحة للمواجهة مع الاستعمار، وميدانًا للنضال من أجل الحفاظ على الهوية المغربية أمام الزحف الصليبي الاستعماري والغزو الفكري والثقافي والاستلاب الحضاري الذي يفقد الشخصية المغربية مقوماتها وخصوصياتها الروحية والثقافية والحضارية. فكان العمل الوطني الذي اضطلع بأعبائه في هذا الميدان، وفي الميادين الأخرى، السمة البارزة التي ميزت شخصية هذا القائد الوطنيّ المقدام الذي دخل تاريخ المغرب المعاصر من بابه الواسع، والذي كان رمزًا حيًّا للوطنية المناضلة المستنيرة المنفتحة على العصر والمتجاوبة مع متطلبات البناء الوطني في مراحله المتعاقبة.

إن اعتلاء المجاهد أبي بكر القادري هذه الذروة من المجد الوطني، جعله يتربع على قلوب المغاربة جميعًا، لا فرق بين من ينتمي إلى هذا الفصيل الحزبي، أو التيار الثقافي، أو المشرب المذهبي، أو الشريحة الاجتماعية، أو الفئة العرقية. فهو للجميع أخ وصديق ورفيق، أو أب ومعلم موجّه، أو زعيم قيادي يَسَعُ قلبُه

(*) مقدمة كتاب (المجاهد أبو بكر القادري في الذاكرة الوطنية) مطبعة الرسالة، الرباط، 2012).

الوطنَ كلَّه على تعدد أطيافه وتنوّع مكوناته. وتلك منزلة رفيعة الذرى تبوأها الأستاذ أبو بكر القادري في حياته وبعد مماته.

لقد كانت جنازته استفتاء شعبيًا، وبمشاركة عالية، على حبّ الناس له، وعلى تقديرهم لمكانته ولوطنيته ولنضاليته ولشخصيته التي عرفوها فلمسوا فيها عزة النفس، وطهارة القلب، وسموّ الفكر، وصدق الطوية، والإخلاص في القول والعمل، والثبات على المبدإ في السراء والضراء، والصمود في وجه الأزمات، والشجاعة في مواجهة الانحراف عن الخط الوطني والزيغ عن سواء السبيل والتطاول على المقدسات والمساس بالقيم والمبادئ. وتلك هي الخصائص المتفردة التي عرفها الناس، على مختلف طبقاتهم، في المجاهد أبي بكر القادري، فخرجوا يشيعونه إلى مثواه الأخير، ثم اجتمعوا في الذكرى الأربعينية لوفاته، ليسجلوا شهاداتهم في الفقيد الغالي، وليذكروا الجميعَ بخصاله وسجاياه، وبمواقفه ونضالاته، وبآثاره الفكرية والثقافية التي ستبقى منارات على الطريق.

لقد كانت جنازة المجاهد أبي بكر القادري حالة فريدة من حيث كثافة الحضور، وتنوع الحيثيات، كما كانت الذكرى الأربعينية لوفاته التي أقيمت في مسرح محمد الخامس، مثالاً للالتفاف الوطني حول الرجل الفذ القدوة الحسنة والرمز المضيء والعَلم الشامخ. وإذا كان جلالة الملك محمد السادس، حفظه الله، في مقدمة من كرَّم المجاهد أبا بكر القادري عند وفاته، وتجلى هذا التكريم في برقية التعزية الضافية التي وجهها جلالته لأسرة الفقيد، والتي كانت آية في قوة التعبير عن الرباط القويّ الذي كان يجمع بين الفقيد والعرش، فإن استقبال جلالته لأبناء المجاهد في القصر الملكي بالدار البيضاء، وما أظهره، رعاه الله، خلال هذه المقابلة من رعاية وحدب ومواساة، فإن هذا التكريم والتشريف قد عبرا عن المكانة الرفيعة التي كانت ـ ولا تزال ـ للأستاذ أبي بكر القادري في قلوب ملوك المغرب الثلاثة؛ من الملك محمد الخامس

الذي كان رفيقًا له في الكفاح، إلى الملك الحسن الثاني الذي كان يقدره ويكبره، وإلى الملك محمد السادس الذي أحبّه ورأى فيه صورة مشرقة للوطنيّ الوفيّ للعرش المخلص للوطن. وبذلك يكون العرش والشعب قد التقيا في تقدير المجاهد أبي بكر القادري على هذا النحو الذي يعزّ نظيره. وتلك شهادة على التاريخ المشرق المضيء الذي تجسم في هذا الوطني الكبير، تمامًا كما كان في حياته شهادة على عصره كله.

لقد أجمع الكتاب والصحافيون الذين نشروا مقالات كثيرة عن المجاهد أبي بكر القادري في مختلف الصحف المغربية، على الاعتراف بما كان له من محبة في القلوب، ومن ثقة به في النفوس، ومن مكانة مرموقة في الحياة السياسية والإسلامية والثقافية والتعليمية والفكرية في المغرب. كما اتفقت الشخصيات التي شاركت في إحياء الذكرى الأربعينية، على الإشادة بخصال الفقيد، وبما كان يتميّز به من سموّ منزلة وعلوّ مقام بين رفاق دربه من رجالات الحركة الوطنية، وبأهمية الدور الذي قام به في تاريخ المغرب المعاصر منذ مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، وإلى أيام قليلة قبل وفاته. وجاءت هذه الكلمات المفعمة بالحب والإعزاز والعرفان، مع المقالات المنشورة في الصحف، معبرة أوفى ما يكون التعبير، عن التقدير الكبير الذي يكنه الشعب المغربيّ للمجاهد أبي بكر القادري.

وإذ تنشر مؤسسة أبي بكر القادري للفكر والثقافة هذه النصوص متوّجةً بالبرقية الملكية السامية، فإنها تقصد إلى أن تضع بين يدي الأجيال المقبلة بخاصة، وأمام الباحثين في تاريخ المغرب المعاصر بعامة، زادًا معرفيًا يتمثل في شهادات ذات قيمة عالية في حق أحد أبطال الحركة الوطنية ورواد النهضة التعليمية والثقافية والفكرية في المغرب.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كيف أرثي نفسي ؟(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين

الإخوة والأخوات أعضاء أسرة المجاهد سيدي أبي بكر القادري،

أصحاب المعالي،

أصحاب السعادة،

السادة والسيدات الأفاضل،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

ليس أصعب على المرء من أن يرثي نفسه. وليس أشق على النفس من أن يرثي الإنسان أباه تحت وطأة اليتم. فلقد كان المجاهد الكبير الأستاذ سيدي أبو بكر القادري، أبًا روحيًا لي، بقدر ما كان أبًا روحيًا للأجيال الجديدة التي تفتح وعيُها الوطنيُّ في مطلع الستينيات من القرن الماضي، فيه كل خصال الأبوة الحانية، بقدر ما فيه من سجايا الأستاذية، وأخلاق الزعامة، وشيم البطولة.

لقد كان ثاني اثنين تعلق عقلي وقلبي بهما في الزمن المبكر، منهما تلقيت الدروس الأولى في الوطنية، ومنهما تعلمت كيف يعشق المرء وطنه، وكيف يعتز بقيم هذا الوطن، وكيف يرتبط بثوابت الوطن وبمقدساته، ويحترم رموزه ويجلهم ويكبرهم.

(*) كتبت لإلقائها في الحفل التأبيني الذي أقيم بمناسبة الذكرى الأربعينية لوفاة المجاهد الأستاذ سيدي أبي بكر القادري (الرباط : 20 أبريل 2012).

كان ثاني اثنين شعرت بقوة الانتماء إليهما، وأحسست بالشوق إلى الاقتراب منهما، وسعيت جهد المستطاع، في ذلك الزمان الجميل، للتعرف عليهما، فكنت، وأنا بعدُ أجوس خلال شوارع تطوان ودروبها، أتلهف لقراءة كل كلمة تنشر لهما، فوجدتني أقبل على المؤلفات التي أصدرها الأول، وهو الزعيم الكبير القطبُ الوطنيُّ المفكر المجدد المصلح النابغة الأستاذ سيدي علال الفاسي، وأبحث في الجريدة عن كل خبر ينشر عن الثاني، أو مقال يدبجه قلمه، أو كلمة ألقاها في مناسبة. حتى إذا أعلن عن قرب صدور المجلة الرائدة (**الإيمان**)، صرت أترقبها متشوقًا إليها. وكانت (**إيمان**) المجاهد أبي بكر القادري مدرستي الثانية بعد (**البينة**) التي أصدرها الزعيم علال قبلها بفترة قليلة، في المرحلة التي تولى فيها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية، و(**الحسنى**) شقيقتها.

ولست مترددًا في أن أعترف أمامكم بأن جيلي كان قاب قوسين أو أدنى من الضياع، لو لم يجد في الزعيم علال الفاسي والمجاهد أبي بكر القادري الملاذ الأمن، حيث سكينة النفس، وطمأنينة القلب، وراحة الضمير، واليقينُ الذي يبحث عنه العقل.

ولعل من المصادفات السعيدة أن أول لقاء فكري مكثف كان لي مع المجاهد أبي بكر القادري، تمَّ في جاكارتا عاصمة أندونيسيا، قبل ثلث قرن. كنا في المؤتمر الدولي الأول للإعلام الإسلامي، وكان وفد المغرب يضم نخبة من رجالات القلم وأقطاب الفكر، أذكر منهم المرحومين الدكتور المهدي بن عبود، والأستاذ قاسم الزهيري، وأذكر منهم أيضًا، الأستاذ الكبير عبد الكريم غلاب، مع رهط كريم فاضل من المغاربة. في ذلك المؤتمر ولدت فكرة إصدار جريدة (**الرسالة**) التي كان أستاذي المجاهد أبو بكر يعتبرها بنتًا ثانية له بعد شقيقتها مجلة (**الإيمان**). وكان القطب الوطنيُّ الكبير متألقًا في مؤتمر جاكارتا، حيث قرأ رسالة ملكية سامية وجهها جلالة الملك الحسن الثاني، يرحمه الله، إلى المؤتمر، وشارك

في جلساته مشاركة العارف المطلع المؤمن برسالة الإعلام المدافع عن قضايا العالم الإسلامي. فكان مثار إعجاب وتقدير من الحضور الذين أتوا من مختلف أنحاء العالم.

وقبل لقاء جاكارتا، كان لي لقاء فكري مع المجاهد أبي بكر القادري، في طرفاية، قاعدة انطلاق المسيرة الخضراء التي كان هو في مقدمة صفوفها. زارنا في الإذاعة الجهوية بطرفاية، التي كنت مسؤولاً سياسياً عن برامجها، فجلست إليه طويلا مستفسرًا عن الأحوال ومستطلعًا رأيه في قضايا كثيرة، انطلقت من قضية الوحدة الترابية، لتتشعب إلى قضايا من التاريخ الوطني الحديث والمعاصر. وأشهد أن ما سمعته من المجاهد أبي بكر خلال تلك الجلسة، بينما المدينة الصغيرة تعجّ بعشرات الآلاف من المشاركين في المسيرة، قد ملأ قلبي يقينًا بأن مستقبل المغرب من مستقبل صحرائه، وأن العرش هو العاصم من الزلل العظيم، ألا وهو ضياع الصحراء، لا قدر الله.

وكان ذلك درسًا في الوطنية لن أنساه، رسَّخ يقيني بالثوابت الوطنية، وقوى إيماني بالمقدسات المغربية.

لقد كان من فضل الله عليَّ أنني اقتربت من المجاهد أبي بكر القادري اقترابًا روحيًا وفكريًا زمناً طويلاً، بحيث لم أكن أعدّ نفسي تلميذاً أمام أستاذه المربي النصوح، وإنما كنت أحسبني مريدًا أمام شيخه الورع التقيّ الذي ينير العقل، ويضيء القلب، ويهدي إلى سواء السبيل. ولقد تعلمت منه خلال لقاءاتي الكثيرة معه في بيته العامر والأحاديث الطويلة المتشبعة التي جرت بيننا، ما لم أتعلمه في الكتب. فلقد كان قطبًا في الدين، وقطبًا في الخلق الرفيع والمعاملة الكريمة مع الجميع، وكان قطبًا في الوطنية بالمعنى العميق للكلمة الذي يجمع بين العصامية، والأستاذية، والزعامة، والشهامة، والنبل، والصدق، والوفاء، والإخلاص، والجدية، والتفاني في خدمة المجتمع والنهوض به، وفي الدفاع عن المصالح العليا للوطن وللأمة الإسلامية قاطبة.

ذلكم هو المجاهد الأستاذ المربي المصلح سيدي أبو بكر القادري، في لمحات عابرة تجلي جوانبَ معدودة من سيرته، ولكنها تنمّ عن شخصية عظيمة الشأن في العمل الوطني، رفيعة المقام في الكفاح من أجل مغرب حر عزيز كريم، ومواطنين أحرار أعزة كرام.

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، وجزاه خير الجزاء عما قدمه للإسلام من عظيم القربات، وللمغرب وللأمة من جليل الخدمات.

والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال لي المجاهد أبو بكر القادري

محاورات في شؤون الوطن وقضايا العصر

أجريت أحاديث صحافية كثيرة مع الأستاذ المجاهد أبي بكر القادري، في فترات متباعدة، نشرت بعضها في جريدة «**العلم**»، وفي جريدة «**الرسالة**»، وبعضها نشرته في جريدة (**عكاظ**) السعودية، وبعضها سجلته للإذاعة في الفترة التي كنت أنتج فيها برامج إسلامية وسياسية لإذاعة الرباط.

ولكن أحاديثي مع الأستاذ أبي بكر القادري لم تكن كلها صحافية، فلقد كتب لي أن أستمع إليه محدثًا، مستفيضًا أو مختصرًا، حول قضايا عديدة على مدى أكثر من ثلاثة عقود عشتها قريبًا منه، تلميذاً في مدرسته الروحية والفكرية والوطنية، دائم الحضور، متشوقًا دائمًا إلى أن أسمع منه ما يملأ وفاضي علمًا ومعرفة، ويشحن نفسي وعيًا إسلاميًا وطنيًا.

كانت أحاديثي مع الأستاذ أبي بكر القادري لا تنقطع، وكان حوارنا حوار الأستاذ مع التلميذ لا يتوقف، سواء مباشرة وبصورة تلقائية، أو غير مباشرة بشكل من أشكال الحديث العابر الذي يأتي مصادفة .. وكان الأستاذ في جميع هذه الأحوال، متدفقًا في أحاديثه، مستحضرًا للوقائع، وراوياً للأحداث، وذاكرًا التفاصيل، وملخصًا الدروس والعظات والعبر من التاريخ الحيّ الذي عايشه والذي كان من صُنّاعه الرواد.

كان الأستاذ أبو بكر القادري بشخصه تاريخاً ناطقاً حيّاً يدبُّ على الأرض دبيبًا. وكان كتابًا مفتوحًا تقرأ فيه ما لا يقرأ في الكتب المطبوعة. ولذلك كانت مذكراته التي نشرها في ستة أجزاء، صورة معبرة عن الواقع الذي عاشه، وناطقة بالصدق وبالوفاء وبالإخلاص وبالتجرد وبالأمانة وبالنزاهة، وفي أحيان كثيرة، ناطقة بنكران الذات ؛ إذ لم يكن من خلقه الحديثُ عن النفس، وكثيرًا

ما كان يتعمد المرور مـرَّ الكرام على أحداث تاريخية كان هو مفجرها وصانعها والرقم الرئيس في معادلتها، إن جاز التعبير. كان زاهدًا في الحديث عن النفس، وتلك فضيلة متأصلة فيه هي من شيم الكرام.

تحدث إليَّ الأستاذ أبو بكر القادري في مناسبات كثيرة عن حياته النضالية، وعن علاقاته بإخوانه قادة الحركة الوطنية، وعن نشأته الأولى في سلا، وعن علاقاته بأشقائه، وعلاقته الحميمية جـدًا بوالدته الذي كان آخر عشها، رحمها الله، وعن ارتباطه المنقطع النظير بها، وعن مراحل السجن والظروف القاسية التي عاشها مكبلاً بقيود الاستعمار. وحدثني كثيرًا عن علاقاته الحميمية بجلالة الملك محمد الخامس، وبجلالة الملك الحسن الثاني. وعلمت منه أنه التقى بالأول، رحمه الله، في القصر الملكي بالرباط، في آخر لقاء بينهما، وأن حديثـًا صريحـًا جامعـًا كاشفـًا جرى بينهما كان الملك خلاله يستمع بكل اهتمام، ووعده بمعالجة كل المسائل التي تناولها معه بعد العملية الجراحية البسيطة التي ستجرى له بعد يومين. وكانت الأجواء السياسية عهدئذ ملبدة، والمخاطر محدقة بـالـبـلاد، والآفـاق مـغـلـقـة. ولـكـن الملك محمـد الخامس عبر للمجاهد القادري عن تفهمه لما يحيط بالمغرب من مؤامرات، وصمم على مواجهة كل التحديات ومعالجة المشاكل بعد العملية. ولكن قدر الله أن يتوفاه في تلك العملية.

وحدثني الأستاذ أبو بكر القادري عن لقاءاته الكثيرة بجلالة الملك الحسن الثاني، وكان آخرها في مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء، في ليلة إحياء المولد النبوي، حيث التقى به الملك واقفـًا، وتحدث إليه طويلاً، ثم انصرف، وبعد لحظة التفت إلى الأستاذ عبد الوهاب بن منصـور الذي كان واقفـًا على مقربة منه، وناداه الملك بصوت مرتفع : «آسي ابن منصور، بلغ الجميع أنني أحب سيدي بوبكر القادري، قل للجميع إن سيدنا يحب بوبكر القادري..». وقد استمعت إلى هذه الرواية من الأستاذين القادري وابن منصور معـًا؛ الأول في بيته أكثر من مرة، والثاني في مناسبتين عامتين روى فيهما هذه الواقعة أمام الجمهور.

كانت علاقة أبي بكر القادري مع جلالة الملك محمد الخامس، ثم مع جلالة الملك الحسن الثاني، علاقة محبة خالصة، وثقة كاملة، وتقدير كبير، واعتراف بالخدمات التي قدمها هذا المجاهد للوطن وللعرش. ولم يستثمر المجاهد القادري تلك العلاقة النادرة في تحقيق منافع ذاتية، ولكن استثمرها في خدمة الأهداف الوطنية العليا، وفي الدفاع عن سيادة الدولة المغربية، وفي حماية المقدسات والمبادئ والقيم والهوية، وفي تعزيز الركائز الوطنية التي يستند إليها حزب الاستقلال. فكان المجاهد أبو بكر القادري في أحلك الظروف وعند اشتداد الأزمات، الصوت المعبر عن موقف حزب الاستقلال، والضمير الحي الناطق بمبادئ حزب الاستقلال. وكان إخوانه في قيادة الحزب، يعرفون مقدار المحبة والاحترام والتقدير الذي يكنه الجالس على العرش لرفيقهم.

ولكثرة الأحاديث التي دارت بيني وبين أستاذي المجاهد أبي بكر القادري، ولتشعبها وتنوّع موضوعاتها، لم أكن بمستطيع تسجيلها في حينها. لأن المجالس أمانات، ولأنني لم أكن مستعدًا في كل الأحوال للقيام بذلك. وأعترف بأن هذا كان تقصيرًا مني. ولكنني احتفظت بالأحاديث الصحافية التي أجريتها معه، والتي أنشر بعضًا منها اليوم. ولعلني أعود في مناسبة مقبلة، إلى هذه الأحاديث المتنوعة التي جرت بيننا لأسجلها وأنشرها في كتاب.

لقد كان الحديث مع المجاهد أبي بكر القادري لذة عقلية، ومتعة ثقافية، ونزهة في رياض المعرفة والثقافة، وعبرة وموعظة، واستعراضًا لمختلف أطوار الحركة الوطنية المغربية. وأشهد أنني أفدت كثيرًا من الأحاديث التي أجريتها معه، كما أفدت من الحوارات التي دارت بيني وبين المجاهد الهاشمي الفيلالي رفيقه في الكفاح الوطني، بقدر ما أفدت من حواراتي مع أستاذي العلامة عبد الله كنون أحد رموز النبوغ المغربي في عصره. ولكنني أعترف أن حواراتي مع أستاذي أبي بكر القادري كانت أشمل وأعمق وأغزر فائدة وأكثر تأثيرًا في نفسي.



المجاهد أبو بكر القادري في حديث صحافي إلى المؤلف أجراه معه في بيته (يناير 1984)

العالم الإسلامي يشكل ربع البشرية، لكنه لم يفرض وجوده بعد(*)

التقت «**العلم**» بمناسبة مؤتمر القمة الإسلامي الرابع الذي تحتضنه بلادنا، بالأخ الأستاذ أبي بكر القادري، ليتحدث إلى القراء عن تحليلاته لواقع العالم الإسلامي وتقييمه للتجارب السابقة على صعيد منظمة المؤتمر الإسلامي.

وقد تحدث الأخ الأستاذ القادري عن الأوضاع العامة في الأقطار الإسلامية من واقع تتبعه الدقيق للقضايا الإسلامية واهتمامه بها، وعلى ضوء أسفاره إلى مختلف دول العالم الإسلامي، للمشاركة في العديد من المؤتمرات السياسية والثقافية التي تعقد على هذا المستوى.

وتضمن حديث الأخ أبو بكر القادري إلى «**العلم**» بهذه المناسبة، نظرات تحليلية عميقة إلى بنية المجتمع الإسلامي الكبير، وطبيعة العلاقات السياسية في هذا المجتمع، ومدى قربها أو بعدها من مبادئ الإسلام في شتى مجالات الحياة.

وفيما يلي الحديث الذي أجراه الزميل عبد القادر الإدريسي مع الأخ الأستاذ أبي بكر القادري.

○ بعد أربع عشرة سنة على تأسيس مؤتمر القمة الإسلامي الأول، كمنظمة إسلامية دولية، ما هي انعكاسات هذا المؤتمر على أوضاع العالم الإسلامي خلال هذه المرحة ؟.

(*) نشر الحديث في جريدة «العلم» يوم 16 يناير 1984.

● في الواقع إن انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي الأول في سنة 1969، كان مبادرة عظيمة تاريخياً، بحيث إنه لأول مرة في تاريخ المجموعة الإسلامية، يلتقي ملوك ورؤساء الدول الإسلامية من مختلف أنحاء العالم. هذه الظاهرة أعطت المجال لآمال واسعة في أن المشاكل التي يعاني منها العالم الإسلامي ستقع معالجتها بطرق جماعية والتغلب عليها بالكيفية التي يجب أن يؤخذ بها.

فمن المعلوم أن المشاكل التي يعاني منها العالم الإسلامي، مشاكل متعددة وكثيرة، ومنها مشاكل تأتي من الخارج، نتيجة العوامل الخارجية أو من التآمرات الأجنبية على الدول الإسلامية وعلى الإسلام، ومنها مشاكل أو سلبيات تنبع من داخل العالم الإسلامي نفسه، أي من تسيير الحكومات الإسلامية نفسها.

عندما نراجع أنفسنا، والحق أنه من الواجب أن نراجع أنفسنا، ومن الواجب كذلك أن نقول بدافع الإخلاص والوفاء لهذه الفكرة التي انعقد من أجلها مؤتمر القمة الإسلامي والدوافع التي أدت إليه وألهمت الداعين إليه والحريصين عليه، من واجبنا أن نصارحهم بالحقائق كما نتصورها... عندما نلقي الآن نظرة موضوعية وواقعية على العالم الإسلامي، بغض الطرف عن تقسيماته الجغرافية في القارتين الإفريقية والآسيوية، نجد أنه لا يزال يرزح تحت ثقل عدد ضخم من المشاكل الخارجية منها والداخلية. بينما كنا نؤمل، وكان من واجبنا أن نؤمل، أنه بعد مرور أربعة عشر عاماً على انعقاد القمة الإسلامية الأولى، نكون قد قطعنا خطوات مهمة في طريق التغلب على كثير من هذه المشاكل.

عدد المسلمين اليوم يبلغ ملياراً، ونسبتهم بالنسبة إلى سكان العالم تعتبر الربع. ونلقي على أنفسنا السؤال التالي : هذا الربع من سكان العالم ما هو تأثيره في السياسة الدولية ؟. ما هو تأثيره في تحقيق مكاسب للإنسانية من الرخاء والتقدم والسلم ومن التعاون على الحق والخير ؟. لحد الساعة نجد عاملٍ الأمة الإسلامية كأمة واحدة متميزة ذات خصائص حضارية، لا يزال ضئيلاً

جداً لسببين : السبب الأول، لأن المسلمين أو المجموعة الإسلامية المتمثلة في منظمة المؤتمر الإسلامي، لم تفرض وجودها بالشكل الضروري والمطلوب. والسبب الثاني هو وجود ستار حديدي على ما يقوم به المسلمون، أو هذه المجموعة من أعمال وإنجازات من طرف المعسكرين الغربي والشرقي على السواء. ذلك أننا نلاحظ أنه عندما ينعقد مؤتمر يهم المسلمين، مثل مؤتمر القمة الإسلامي، ويحضره ممثلو مليار نسمة، أي ربع سكان الأرض، يتنكر الإعلام الخارجي لهذا الحدث ولا يوليه أية أهمية. فلا نجد الاهتمام الذي يرقى إلى مستوى المؤتمر الإسلامي في الصحافة الأوروبية والأمريكية. وحتى إذا اهتموا به من الناحية الإخبارية، فلا يزيد هذا الاهتمام على أخبار مقتضبة تقدم في قوالب وصيغ ليست نزيهة وتكون موجهة توجيهاً مغرضاً. على أي شيء يدل هذا ؟. يدل على أننا لم نفرض وجودنا بعد، ويدل من جهة أخرى، على أن هؤلاء لا يريدون لنا أن نفرض وجودنا في آن واحد. وعلى العكس من ذلك، نجد أنه عندما ينعقد مؤتمر عدم الانحياز مثلاً، تتوالي الأصداء وتنشر الأخبار بغزارة ويقع الاهتمام العالمي بالتفاصيل، ويتناول المحللون وكتاب الصحف العالمية ومعلقو الإذاعة والتلفزيون في الغرب والشرق، المؤتمر بالمزيد من العناية وببالغ الاهتمام. وكذلك الحال عندما ينعقد مؤتمر منظمة الوحدة الافريقية، وبالأحرى كل المؤتمرات الأوروبية. ولكن حينما يتعلق الأمر بقضايا إسلامية، ويرتبط بالعالم الإسلامي، لا نجد أثراً لكل هذا. لماذا ؟. حقيقة يمكن أن نقول بأن العالم الغربي ضدنا. طبعاً، والعالم الشرقي ضدنا كذلك، لأنهما معاً يعارضان ويحاربان التضامن الإسلامي. ولكن لا يكفي أن نرد كل هذا إلى الغير، بينما نحن لا نفرض وجودنا ونقصر في إسماع كلمتنا للعالم. وفرض الوجود يقتضي عدداً من الشروط، في مقدمتها، وهنا لابد أن أفتح قوسين، أن تأخذ قضية الإعلام بالنسبة لنا الأهمية والعناية الكاملتين. إن الاعلام بالنسبة للعالم الإسلامي، رغم القرارات التي اتخذت على مختلف المستويات، سواء منها على مستوى منظمة المؤتمر الإسلامي نفسها، أو على

صعيد المؤتمر العالمي الأول للاعلام الإسلامي الذي دعت إليه رابطة العالم الإسلامي في جاكارتا، أقول إن الاعلام الإسلامي بالنسبة لنا، لا يزال يدور في فلك ضيق فيما بين بعض المسلمين أنفسهم، ولا يمتد أثره إلى العالم الخارجي، بل إن أثره ضئيل ومحدود للغاية حتى داخل المجتمعات الإسلامية.

○ هنا يتبادر إلى الذهن سؤال : يفهم من هذا الحديث القيم أن عوامل التخلف والإحباط في العالم الإسلامي، هي عوامل ذاتية نابعة من الواقع والبيئة والذات الإسلامية أكثر منها خارجية، أليس الأمر كذلك ؟.

مطلوب وكالة أنباء إسلامية

● لا. ليس هذا هو القصد. هناك أمور ذاتية وأخرى خارجية. الذي أود أن أوكده هنا، أننا إذا كنا مقتنعين تمام الاقتناع بأن العوامل الخارجية مؤثرة في محاربة الفكرة الإسلامية منذ البداية، لأن هذا هو الواقع منذ كان الإسلام، ومنذ كانت فكرة التضامن الإسلامي. هذا نعرفه، نعرف أن كل عمل إسلامي يلاقي حرباً ومعارضة فبأحرى التضامن الإسلامي، وبأحرى اجتماع الأمة الإسلامية. إذن الحرب قائمة وليست طارئة، وعلينا أن نكافحها. ولكن التقصير في الحقيقة وقع منا، لأننا لم نواجهها المواجهة الحقيقية. أي أننا، بعبارة أخرى، المسؤولون المباشرون عن واقعنا هذا، وعن أوضاعنا هذه.

○ حسناً. كيف تجسمون هذا التقصير ؟.

● من جهة، أرى أنه لابد من إحداث وكالة أنباء إسلامية، ليس بالمعنى التجريدي النظري المدون في الورق. وكالة إسلامية تماثل الوكالات الإخبارية الأجنبية، وتقوم على أحدث التجهيزات العصرية، وتتوفر على أضخم وسائل الإعلام والتأثير إلى جانب القدرة على كسب مواقع صحافية وإعلامية خارج العالم الإسلامي، بالشراء أو بأية وسيلة أخرى، وإنشاء مكاتب إعلامية في المراكز الدولية الهامة من أجل إبراز أعمالنا وإظهارنا على حقيقتنا كقوة دولية.

○ ألا ترون أن إحداث هذه الوكالة بكل هذه التجهيزات التي ذكرتم، أمر سابق لأوانه، باعتبار أن الوكالة ليست إلا أداة، وأن تسيير الوكالة واستخدامها للأغراض الإسلامية يعود إلى أنظمة الحكم في العالم الإسلامي ؟.

● هذا صحيح. أريد أن أقول إننا عندما نؤسس وكالة أنباء إسلامية فيجب أولاً وقبل كل شيء، أن نخطط لسياسة إسلامية محددة. وأعني السياسة الإسلامية التي يسعى إليها مؤتمر القمة الإسلامي. هذه السياسة ينبغي أن توضح، فمن جهة يجب أن تكون سياسة عملية واقعية تعبر عن طموحات هذه الأمة الإسلامية، وتدافع عن حقوق المسلمين. إننا نجد نوعاً من التناقض عندنا. ففي الوقت الذي نتخذ قرارات، أو تقع أحداث في العالم الإسلامي، نجد بعض الدول الإسلامية، أو بعض الحكومات الإسلامية بالأصح، سائرة في خط وحكومات أخرى إسلامية سائرة في خط آخر مناقض له. مثلاً : نأخذ قضية أفغانستان. هذه القضية هي من الأهمية بمكان بالنسبة للعالم الإسلامي، بل بالنسبة للفكر الحر وللحق الإنساني. وقد وقع على أفغانستان هجوم. هناك تقتيل، تشريد، تخريب، تدمير بجميع الوسائل. إننا نلاحظ أن هناك بعض الدول الإسلامية تتعاطف مع المجاهدين الأفغان، بل هناك دول أخرى تزيد عن التعاطف بالمساندة للمجاهدين الأفغان.

○ وهناك أيضاً دول إسلامية أخرى أعضاء في المؤتمر الإسلامي تتعاطف مع الدولة الغازية المعتدية ؟.

● نعم هذا ما سأصل إليه. مع الأسف، هناك دول إسلامية تتعاطف مع الدولة المعتدية ومع النظام العميل في أفغانستان. وتقف دائماً المواقف المشبوهة إزاء هذه القضية. وما يقال عن قضية أفغانستان، يمكن أن يقال أيضاً عن قضية ايريتريا. نجد مثلاً الإيريتريين يكافحون منذ ما يزيد عن عشرين سنة، وتساندهم بعد الدول الإسلامية بكيفية ما، لكن هناك دولاً إسلامية أخرى تقف في الصف المساند للعدوان والظلم. وكل هذا يجعل الإعلام الإسلامي غير قادر

على أداء مهمته نتيجة هذا التناقض. ولذلك فالمطلوب هنا وضع سياسة إسلامية واضحة يلتزم بها الجميع، ويوضحها الإعلام الإسلامي للجميع.

هذه واحدة. المسألة الأخرى أن عدم وقوفنا كمجموعة إسلامية موقفاً موحداً في القضايا الإسلامية الحيوية كقضية أفغانستان، يجعل غيرنا من الأعداء لا ينظر إلينا النظرة التي نستحقها من منطلق الاحترام وتقدير قوتنا، ومن خلال وفائنا للمنطلق الذي أسسنا عليه تضامننا، ويحسب أن القضية تهمنا، ربما من جانب المصلحة، أو من الجانب المذهبي، أو من جانب حلف مع هذا المعسكر أو مع ذاك المعسكر، وليس من جانب الدفاع عن وجودنا وشخصيتنا كأمة إسلامية. وهنا تنقلب المسؤولية علينا. أضف إلى ذلك أننا نجد أنفسنا حينما يتعلق الأمر بقضايا من هذا النوع التي تقتضي أن تطرح في المؤتمر الإسلامي، نطرحها بكيفية غير متجانسة بحيث يكون هناك من يشذ عن المساندة ويخرج بالتالي عن الصف الإسلامي الموحد تجاه هذه القضايا، بل يكون هناك من يقوم ضد المساندة وضد الشعب المكافح.

ومن هذه الناحية، كما قلت، يلاحظ أن عندنا نوعاً من التناقض يجب أن يزول. ومن هنا تكون وكالة الأنباء الإسلامية في حاجة إلى سياسة موحدة واضحة وقارة.

○ **وهذه السياسة تخططها الحكومات الإسلامية.. أليس كذلك ؟.**

● تخططها الحكومات الإسلامية وتتفق عليها ومن شذ عنها شذ في النار كما في الحديث، وبالمضي في خطة دون مراعاة لأية اعتبارات ودون محاباة لأحد. وهذا ما يجعل حقوقنا تضيع. هذا أمر واقعي مع الأسف الشديد، ولابد أن نسجله. ومما يتصل بهذه التناقضات، موقف الصمت الذي تقفه بعض الحكومات الإسلامية من بعض الأحداث والهجوم الذي وقع في طرابلس مؤخراً ضد الفلسطينيين. والذي لا يمكن أن يقبله أي عربي أو مسلم أو إنسان حر، قد ووجه بالصمت مع الأسف الشديد.

خذلان الفلسطينيين أمر مؤسف

ونفس الموقف، أخذه البعض ضد الجرائم التي حدثت في مخيمي صبرا وشاتيلا، والتي تألم لها الجميع بما في ذلك الدول الغربية. ولكن في مثل هذه المواقف الرهيبة، لا ينفع الألم والتألم، بل الذي ينفع هنا هو مواقف عملية. وما لنا نذهب بعيداً، فبالأمس وقع الهجوم على بعلبك، وذهب ضحيتها أزيد من مائة شخص من المدنيين، وأزيد من أربعمائة من الجرحى نتيجة القصف الجوي في واضحة النهار، ومع ذلك لم يقع رد فعل من العالم الإسلامي ؟. ولما يسقط طيار أمريكي واحد في دمشق يهتز العالم، ولكن الأمر يختلف حينما يموت العرب والمسلمون بالمئات فلا يقع أي رد فعل. إذن، إذا لم نكن نتجاوب نحن مع قضايانا، ومع إخواننا ومع المنكوبين منا، كيف ننتظر من الآخرين أن يكونوا مناصرين لنا ؟.

بالمناسبة قرأت مؤخراً في البيان الصادر عن حركة فتح في اجتماعها الأخير بتونس، أنه حين تقرر ترحيل الفلسطينيين بحراً من طرابلس مع الأخ أبي عمار، التمس الفلسطينيون من بعض الدول العربية، حراسة البواخر التي ستقلهم، فلم يجدوا الاستجابة من الدول الشقيقة، ولم تستجب إلا فرنسا. شيء رهيب جداً. حقيقة قرأت في أحد تصريحات الرئيس المصري حسني مبارك أن البحرية المصرية وفرت الحراسة للفلسطينيين عند اقترابهم من المياه الإقليمية المصرية، ولكن أين الآخرون ؟.

صحيح أن المملكة العربية السعودية أمدت الفلسطينيين بالمال وغطت تكاليف نقلهم خارج طرابلس. وهذا عمل ضخم وإنساني وهي مشكورة عليه، ولا ينبغي أن نغفل عنه. لكن كان في الإمكان أن تكون هناك قوات مساندة، لأن هؤلاء مظلومون، قتلوا في بلادهم وفي بلاد إخوتهم، ثم وقع تهجيرهم مراراً، ثم بعد ذلك لا يجدون من يحمي ظهورهم أثناء خروجهم من طرابلس،

وحينما يطلبون من أشقائهم الحماية والحراسة، لا يستجيب لهم الشقيق بل ويمنعون من المرور من الأراضي الإقليمية للبلاد العربية. هذا شيء مؤسف بالنسبة لقضايانا كلها.

○ يستفاد من هذا كله أن العالم الإسلامي إنما هو عالم إسلامي جغرافياً وتاريخياً، وليس إسلامياً واقعياً، أليس كذلك ؟

● إنني لا أريد أن أكون متشائماً. يمكن أن نقول بأن العالم الإسلامي أو الشعوب الإسلامية، وصلت إلى مرحلة الشعور بالخطر وبدأت تبصر الطريق. وربما كان مؤتمر القمة الإسلامي محاولة في هذه السبل. ولكن لا أستطيع أن أقول إنه ليس هناك تضامن وتكاثف. ولكن هذا التضامن وهذا التكاثف لم يبلغا شأوهما بعد. ولم يتحققا بعدُ بالقدر الكافي.

○ ألا ترون أن السبب في هذه الأزمة على صعيد العالم الإسلامي يعود إلى أن زمام الأمور ليس بأيدي الشعوب الإسلامية ؟.

لابد من الديمقراطية في بلاد المسلمين

● في بعض البلدان ربما زمام الأمر ليس في أيدي الشعوب. وهنا تأتي القضية التي نؤكد عليها دائماً، وهي ضرورة تقرير الشعوب الإسلامية لمصيرها. وكثير من هذه الشعوب مع الأسف، محكومة بالقهر ومحكومة بالحزب الواحد، والإسلام كما نعلم لا يجيز ذلك. ولا يبيح لنا أن نكون محكومين لا بالقهر ولا بالحزب الواحد. عمر بن الخطاب يقول : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً». ديننا دين الحرية. ربنا قال في الدين ﴿**لا إكراه في الدين**﴾، فبالأحرى في تسيير شؤوننا وتصريف أمورنا. نحن دعاة نظام، دعاة استقرار، دعاة انضباط، دعاة التعاون بين الحاكمين والمحكومين. الكل يعرف واجباته. نحن ننبذ الفوضى، ونرفض كل القلاقل المبنية على الأغراض والأهواء والمطامح، ننبذ كل استغلال للظروف. ولكن في الوقت نفسه ننبذ

القهر، قهر الشعوب. ومن القهر أيضاً أن تأتي مجموعة من الناس، وتمارس القهر والقمع واضطهاد الحريات العامة بالقوة والإرهاب. ومن القهر أيضاً أن تأتي مجموعة وتقوم بانقلاب، وتدعي وتزعم أنها صاحبة الأمر وتفرض الحكم بالقوة. هذا كله مرفوض ومنبوذ. لابد من حرية التعبير عن الرأي. الحمد لله هذا أمر قائم وموجود في بعض البلاد الإسلامية. إنه ليس منعدماً تماماً وبالمرة. بعض البلاد الإسلامية تتمتع بهذا الحق، ونتيجة ذلك محمودة، لأن كرامة المسلم هي أن يشعر أنه على الأقل يعبر عن رأيه ويدافع عن حقه، فإذا شعر أن هذا الأمر يسيئه، قال إن هذا ليس صحيحاً أو سليماً، وإذا أحس أن هذا يرضيه ويسعده، عبر عما أحس به. وهكذا. أما أن يكون مسوقاً كالأنعام فلا، فالله تعالى الذي هو رب العزة، عندما خلق الإنسان، وهو الذي يتصرف فيه، أعطاه نوعاً من التصرف والقدرة والاختيار، وعلى أساس هذه القدرة يحاسب. والله سبحانه وتعالى هو المسيطر على الكون، ولكنه أعطانا ما نتصرف فيه باختيارنا. وهذا ما يسمى بالكسب عند علماء التوحيد. إن الله تعالى هو خالق الإنسان والكون يعطي للناس حريتهم ويحرمهم منها بعض المخلوقين بالقهر وبالقوة. هذا أمر غير معقول ألبتة.

يجب أن يشعر كل المسؤولين أنهم يمثلون أمة إسلامية، وأن الله سبحانه وتعالى أراد لهذه الأمة الإسلامية أن تكون لها العزة والمقام الرفيع، وأراد لها أيضاً، وطلب منها، وهذا ما لا يمكن إنكاره، أن تكون سائرة مع الذين تولوا شؤونها في امتثال وفي انضباط وفي تعاون وثيق،. ولكن على مقتضى ما أمر به الإسلام، وعلى مقتضى ما يريد الله سبحانه وتعالى من عدل ومن تكريم وتقدير لبني الإنسان.

○ هذا يؤدي بنا إلى الصراعات الإيديولوجية والفكرية والسياسية في العالم الإسلامي. كيف ترون الموقف الإسلامي السليم والمسؤول من هذه الصراعات، أي إلى أية جهة ينبغي أن ينحاز الإنسان المسلم داخل هذه الصراعات ؟.

لابد من التزام القوانين الإسلامية

● الواقع أن هذا سؤال مهم جداً. ربما الأمر الذي أحس به، وأومن به، أن علينا قبل الحكم على شيء أو القيام بأي عمل، أن نقدر مدلولات الكلمات التي ننطق بها. إذا كنا نقول «شعوباً إسلامية»، «حكومات إسلامية»، ينبغي أن يكون مدلول هذا كله، مدلول «المسلم»، مدلول «الحكومة الإسلامية» مدلول «شعب إسلامي» مدلولاً منطبقاً مع حقيقة الإسلام، أي أن يكون هناك التزام، وخطة، ومبادئ وتقاليد إسلامية. هنا مع الأسف الشديد كثير من المسؤولين لا يعطون هذه القضية أهميتها. وبالتالي ينشأ الفرق أو التناقض بين ما ندعيه وبين ما نطبقه في واقعنا. نقول نحن أمة إسلامية، أو شعب إسلامي، وعند التطبيق نجد الإسلام في واد وهذا الواقع في واد آخر، الأمر الذي لا يخلو من افتراض، مسلمون أو غير مسلمين. فإذا كنا مسلمين فلنبق مسلمين. ولنعمل بالإسلام. ومن هنا فيما أعتقد، تنبع مسؤولية مؤتمر القمة الإسلامي، وهي أنه عندما نقول الأمة الإسلامية أو الحكومات الإسلامية، فلابد أن يكون عندها التزام بالقوانين الإسلامية، وبالتشريع الإسلامي. وبالحكم الإسلامي، وبالتضامن الإسلامي الحقيقي، وبالانضباط في القضايا الإسلامية، وبالإخلاص للفكرة الإسلامية، وبالدفاع عن الثقافة الإسلامية... إلخ. وبعبارة واحدة جامعة، الرجوع إلى حقيقة الإسلام.

نحن نؤيد كل من يسير في المنهاج الإسلامي، يريد العودة إلى طريق الإسلام، ونضع أيدينا في يده كيفما كانت الحال. وهنا لابد أن ندعو جميع إخواننا في القمة الإسلامية لمراجعة شؤونهم الداخلية ولمساءلة أنفسهم، هل هذا الإسلام الذي ينتمون إليه وعلى أساسه يجتمعون في القمة الإسلامية، يطبق في بلادهم أو لا يطبق ؟.

إنني لا أنظر إلى قضية تطبيق الإسلام كما ينظر إليها البعض، أي من ناحية تطبيق الحدود الشرعية فقط. هذا جزء من الإسلام. هناك العديد من الشروط، منها العدل والشورى والعدالة الاجتماعية والقوانين الإسلامية في الأحكام ومحاربة الربويات بجميع أصنافها، هناك أيضاً تطهير المجتمع من الأمراض الاجتماعية التي تشيع الفاحشة، وهناك الحرية والديمقراطية، كل هذا ينبغي أن يتحقق أولاً لجعل الفكرة الإسلامية والانتماء إلى الإسلام ذا مدلول، ولجعل الآخرين من الأجانب في الوقت نفسه يعرفون حقيقة الإسلام، ويقولون هؤلاء بالفعل ماضون في طريق وضع الأمة الإسلامية التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر حقيقةً على الطريق الصحيحة. وفي الوقت الذي ينعدم فيه هذا كله، يبقى انتماؤنا إلى الإسلام، كما قلت، انتماءاً جغرافياً لا غير. ونحن ننزه أنفسنا عن أن نكون من هذا الصنف. ونحن ولله الحمد، كأمة سواء في المغرب أو في المشرق، نريد أن يكون انتماؤنا إلى كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله انتماءاً حقيقياً.

○ **يلاحظ أن هناك في بعض الأقطار نوعاً من الضغط والاضطهاد على الحركات والاتجاهات الإسلامية من طرف عدة جهات تنتمي إلى العالم الإسلامي. كيف تنظرون إلى هذه الوضعية ؟.**

● في هذا الموضوع أرى أن اضطهاد يأتي من الخارج. وهذا خطير جداً السكوت عنه. مثلاً نجد أن المسلمين يضطهدون في فلسطين وفي القدس الشريف، ويقع الهجوم على إخواننا المسلمين وهم يؤدون صلاتهم في المسجد الأقصى، أو في مسجد الخليل عليه السلام، ونجد إخواننا المسلمين يذبحون ويضطهدون من طرف العناصر المتعصبة في الهند، ونرى إخواننا المسلمين يضطهدون من طرف النظام في الفليبين، ونرى إخواننا المسلمين يضطهدون من طرف النظام في بورما، ونجد إخواننا المسلمين يضطهدون في إيريتريا، ونجد

المسلمين اضطهدوا كذلك في قبرص التركية. وهذا الاضطهاد من المؤسف أنه يقع السكوت عليه إلا نادراً وباستثناء ما تستنكره بعض الدول الإسلامية، التي تعد على رؤوس الأصابع. هذا نوع من الاضطهاد. وهناك نوع ثان من الاضطهاد يقع على الحركات الإسلامية داخل البلاد الإسلامية. على سبيل المثال، ودون ذكر الأسماء، نجد جماعات إسلامية كل ما تطالب به أن يكون عندها نفس الحقوق التي للشيوعيين في البلاد الإسلامية، فتحرم من هذا الحق. لماذا ؟ بأي منطق ؟. لا هو منطق الحرية ولا هو منطق الإسلام. هذا شيء يتنافى كل التنافي مع الحقائق والمبادئ الإسلامية. ولذلك نتمنى أن تكون اجتماعاتنا على مستوى القمة، أو على أي مستوى آخر ذات جدوى. لابد من مراجعة أنفسنا. إنه ليس عيباً أن ننقد أنفسنا ونصلح الأخطاء التي نقع فيها. على كل نظام في أي بلد إسلامي أن يمنح جميع الحقوق للجميع. نحن لسنا ضد أحد، ولا نريد أن نكون متعصبين. نقول بتعدد الأحزاب، بتعدد الحركات، بإعطاء الحريات، ولكن ليس من الحرية وتعدد الأحزاب والحركات أن أقبل من يهدم مقدساتي أو يعتدي على حريتي، أو يدوس قيمي وعقيدتي. إن مفهوم الحرية لا ينبغي ولا يقبل أن يكون وسيلة للاعتداء على حريات الآخرين أو مقاومة مقدسات عقيدة الشعب المسلم. وأيضاً، فإن الإسلام الذي يدعو إلى الحرية لا يريد أن تكون الحريات الإسلامية فوضوية أو عشوائية أو تسعى لفرض أشياء بالقوة، أو تتهم من عداها ويخالفها في الرأي بالكفر وبالإلحاد. هذا أمر غير معقول وليس مقبولاً أيضاً ؛ لأنه لا أحد يملك الحق في تكفير من يشاء أو الإدخال إلى الإيمان من يشاء. إن مبدأ الحرية في الإسلام يقتضي منا أن ندعو المخالفين في الرأي بالحكمة والموعظة الحسنة والإقناع دون استعمال أي عنف. إن على الداعين للأفكار الإسلامية أن يعبروا عن وجودهم وأفكارهم عن طريق الإقناع والدفاع عن الرأي وتوضيح المبادئ الإسلامية ويعطوها الصورة الناصعة الحقيقية، وفي الوقت نفسه، نريد ممن يمثلون الطرف الآخر أن يستمعوا ويعطوا نفس الحق الذي يمنحونه للآخرين.

○ من القضايا الساخنة في العالم الإسلامي حالياً، الحرب بين الدولتين الإسلاميتين : إيران والعراق. لقد بذلت كما هو معلوم وساطات عديدة، في مقدمتها وساطة منظمة المؤتمر الإسلامي دون جدوى، كيف تنظرون من موقع تتبعكم للقضايا الإسلامية إلى هذه الحرب ؟.

الحرب العراقية الإيرانية تضرّ بالعالم الإسلامي

● إننا نأسف شديد الأسف لحرب واقعة ما بين شعبين مسلمين. الحرب في حد ذاتها مكروهة عند الجميع. والواقع أنها أتت على الأخضر واليابس وأضرت بالشعبين المسلمين معاً. نحن لسنا متعصبين للجماعات الإسلامية من أي مذهب كانت. وأملنا أن يكون جميع المسلمين سنة كانوا أو شيعة، متعاونين على الحق والخير. هذا من ناحية منطلقنا الإسلامي، على كل حال بغض الطرف عن الحرب، كيف بدأت ولماذا بدأت وأسبابها.

كيفما كانت هذه الحرب، فإن الذي يعاني منها الآن هما شعبان مسلمان، يموت منهما الآلاف من المسلمين هنا وهناك، يدمر اقتصاد المسلمين هنا وهناك، وتستفيد إسرائيل والدول الاستعمارية من تقليص الوجود الإسلامي أو القوة الإسلامية في كلا البلدين، وتتركز إسرائيل في المنطقة، كل هذا يسيء إلى الإسلام وإلى المسلمين. ولذلك ندعو، وسنبقى ندعو، إلى إيقاف هذه الحرب بين إيران والعراق، لأن فيها مضرة لا للشعبين فقط، وإنما للعالم الإسلامي ككل.

○ فإذا كانت إحدى هاتين الدولتين ترفض إيقاف الحرب، فما العمل ؟.

● مع الأسف. هنا لابد من أن نكون صرحاء. قضية البحث عمن هو المسؤول عن الحرب ليس هذا وقتها الآن. ولا ينبغي أن تكون هذه القضية مطروحة في هذه الظروف، لأننا يجب أن ننظر إلى الواقع القائم الآن. وهو أن شعبين مسلمين يتقاتلان بضراوة منذ أربع سنوات. وهذا القتال يضر بالطرفين

ويضر بالعالم الإسلامي. فمن الضروري أن توقف الحرب. والطرف الذي يرفض إيقاف الحرب عليه أن يحتكم إلى ما أنزل الله. يقول الله تعالى ﴿ **وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾.

○ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذه اللحظة هو : أية جهة على مستوى العالم الإسلامي تملك الحق في تطبيق مدلول هذه الآية الكريمة ؟.

الحرب أنواع

● **هناك أولاً (فأصلحوا بينهما)** وهي المرحلة الأولى. وهذه لحد الآن فشلت. هذا صحيح. وينبغي أن تكون هناك قوة دافعة، لأن الإصلاح يمكن الوصول إليه من عدة طرق. وبعبارة أخرى من عدة تأثيرات. يجب أن يبذل جهدٌ في هذا الصدد. نحو لا يمكننا أن ندعو إلى الحرب. الواقع من الصعب على المرء من منطق المسؤولية الإسلامية، أن يدعو إلى حرب شعب إسلامي. والحرب أنواع. ولذلك من واجب مؤتمر القمة الإسلامي أن يعالج هذه القضية بطرق يراها ناجعة أكثر من الطرق السابقة. كيف ؟.. هذه المسألة قابلة للدراسة. لأن.. ﴿**فقاتلوا التي تبغي**﴾ القتال أنواع كما أسلفت، يمكن ممارسة الضغط بشتى الوسائل على الجهة الرافضة الرفض القاطع قبول التصالح حتى ترجع إلى الله، أي حتى تذعن لحكم الله في هذه الحالة. بعد ذلك لابد من الالتزام بالعدل في الحكم النهائي. لأنه كما يقول الله تعالى ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾. إذن العدل أساسي. وهنا، أدعو بالمناسبة، إخواننا العراقيين والإيرانيين، الذين ليس بيننا وبين أي منهم كشعب مسلم وكقادة مسلمين، أي نوع من الحزازات، أدعوهم إلى الجلوس على مائدة واحدة للتذاكر والتفاهم والتصالح. وإذا رفض أحد الطرفين الجلوس إلى هذه المائدة، فإني أدعو الأمة الإسلامية المجتمعة في المؤتمر الإسلامي، لاتخاذ قرار من شأنه أن يضغط على هذا الطرف حتى يقبل، بوسيلة أو بأخرى.

○ ننتقل إلى القضية الإسلامية الأولى، إن صح أن يكون في القضايا الإسلامية أوليات، كيف تنظرون إلى الضية الفلسطينية من الزاوية الإسلامية، وذلك على ضوء ما يمكن أن نعبر عنه بفشل المعالجة العربية لهذه القضية لحد الآن ؟.

أدعو مؤتمر القمة إلى تحرير القدس

● لست أرى أي نوع من التناقض بين عروبة القضية الفلسطينية وبين إسلاميتها.. أعتبر العرب مكلفين من طرف المجموعة الإسلامية ليقوموا بدور الجهاد، فلا ينبغي أن يكون هذا الدور متناقضاً مع الواجبات الإسلامية. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، يجب على العالم الإسلامي أن يكون في مستوى ما ينادي به من جهاد ومن مقاطعة إسرائيل. لأننا نجد مثلاً بعض الدول الإسلامية مع الأسف، لا تقاطع إسرائيل. ونجد كذلك تعاملاً مع الدول التي تساند إسرائيل مساندة غير مشروطة، وتُبْطِلُ جميع القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة لصالح القضية الفلسطينية. إن التعامل مع هذه الدول أو مع هذه الدولة بالأصح، يجب أن يعاد النظر فيه. كيف نريد أن نحل القضية الفلسطينية إسلامياً ونقول هذه قضيتنا، والحالة أننا نمد اليد عن اختيار وطواعية لمن يساند إسرائيل بلا حدود ويصر إصراراً مستمراً على محاربتنا ومعاداتنا ؟. هذا أيضاً أمر غير مفهوم. وفي نظري، فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وقضية القدس، نلاحظ أن مؤتمر القمة الإسلامي الذي انعقد سنة 1969، قد انعقد من أجل قضية القدس، ونجد العالم الإسلامي لحد الساعة لم يبذل الجهد المطلوب لتسوية هذه القضية. هنا أدعو، بالمناسبة، مؤتمر القمة الإسلامي، تقديراً لمسؤوليته الإسلامية في تحرير القدس وتحرير المسجد الأقصى، أن يفكر في تنظيم مسيرة على غرار المسيرة التي نظمت في المغرب لتحرير الصحراء، أو على شكل آخر، من شأنه أن يحرر القدس والأقصى، وفلسطين، أقول مسيرة يمكن أن تكون بالمعنى التقليدي، ويمكن أن تكون مسيرة بمعنى جديد، يتمثل في مخطط سياسي واقتصادي، وربما يتمثل أيضاً في الجانب العسكري إذا

اقتضت الحال. ويهدف كل هذا إلى مقاطعة إسرائيل ومن يتعامل مع إسرائيل على مستوى العالم الإسلامي. كل هذا يمكن أن يتم وينجز. ولماذا نتردد ونحجم ؟. طالما أننا نتردد ونحجم ونخاف من خصمنا أن يحاربنا فهو يحاربنا. وعندما يشعر خصمنا أن القضية اتخذت مساراً جديداً، وأننا مصممون العزم حقيقةً على الخروج من الجمود والقيام بعمل فعال وجدي ونافع، سيغير موقفه منا حتماً. ولماذا لا ننظم يوماً عالمياً، على مستوى العالم الإسلامي كله، لقضية القدس، على أن يقرر مؤتمر القمة الإسلامي الفكرة ويحدد اليوم، فترفع المذكرات وتنظم المظاهرات وتقام المهرجانات ويشعر العالم الإسلامي أنه مجند تجنيداً كاملاً للدفاع عن هدف واحد هو تحرير القدس ؟.[1] هنا نكون قد دخلنا مرحلة التأييد العملي لا التأييد العاطفي. وبالمناسبة، أراني مضطراً إلى مناشدة إخواننا الفلسطينيين بعدم الإغفال أو ترك الجانب الإسلامي، أو القوة الإسلامية كلها مهملة، لا ينبغي أن يستمروا في إهمال هذا الجانب الإسلامي لقضيتهم، فيركزون على عروبتها على حساب إسلاميتها. أنا أعرف أن بعض القادة الفلسطينيين مؤمنون بأن القضية إسلامية ودوافعهم إسلامية. عليهم أن يعتبروا أن لا فرق بين العروبة والإسلام عندما يقررون أن القضية عربية. فما كانت العروبة عروبة حقيقية وأمتها أمة خالدة إلا بالإسلام. وحتى العرب غير المسلمين كانوا دائمة يحسون أنهم جزء من الأمة العربية باعتبار أن القرآن تراثهم هم أيضاً. إذن، هذا كسب عظيم لنا. ولذلك لا ينبغي أن نظل مترددين ومحجمين وتحت تأثير المركبات كأن نخشى من القول بأن القضية إسلامية حتى لا يقال لنا إنكم تجعلونها قضية دينية. لماذا اليهود يقولون إنها قضية دينية ؟. لماذا بيغين وشارون يفخران بالتوراة ويفسران الأحداث الجارية على ضوئه. لماذا هذا ؟.

---

(1) هذه هي المرة الأولى التي تطرح فيها فكرة تنظيم يوم عالمي حول القدس المحتلة. وهي فكرة رائدة سبق بها المجاهد أبو بكر القادري غيره.

إن عدم ذكر الإسلام وصبغ القضية الفلسطينية به، إن هو إلا نتيجة للمركبات التي أصابت البعض منا من جراء الغزو الفكري والمذهبي الذي يسعى دائماً إلى عزل الإسلام عن ساحة العمل والكفاح والصراع الحياتي.

○ إذا أردنا أن نلخص كل هذا الحديث في جملة واحدة : ما هو تقييمكم الأخير للأوضاع العامة في العالم الإسلامي ؟.

هناك واقع يتحكم في مسار أعمالنا

● العالم الإسلامي لحد الساعة يمكن أن نعتبره في مخاض. هذا المخاض قد يولد عنه شيء ما، وهو بالنسبة للصراعات العالمية والمتغيرات الدولية، لا يمكن أن ننتظر منه في المدى القريب النتائج التي نريد. إن العالم الإسلامي معرض لعدد من الأخطار الداخلية والخارجية. ولكن إذا أردنا أن يقوم العالم الإسلامي بدوره كاملاً، علينا أن نعطيه القيمة والاعتبار ونقدر بعمق الطموحات التي نطمح إليها. وفي نظري إننا لحد الساعة لم نعط لهذا كله ما هو جدير به من اعتبار ولم نحله من أنفسنا المكانة التي يستحق. ولذلك لا أزال أعتبر أننا ما فتئنا في ذهول شديد، ولا نزال تحت تأثير بعض العوامل الضاغطة علينا. ولا نزال خائفين من اعتبار أن الطريقة الإسلامية هي الطريقة الناجعة التي علينا أن ننهجها.

هنا يأتي تقييمي لمؤتمر القمة الإسلامي الرابع، فأقول : هناك جوانب إيجابية، تتمثل في بعض الخطوات التي قامت بها منظمة المؤتمر الإسلامي في الميدان الثقافي والاقتصادي والسياسي على مستوى بعض المؤسسات التابعة لها، وفي ميدان المساعدات لبعض الأقليات الإسلامية هنا وهناك. والخطوات هنا ملموسة ومحسوسة. أما المواقف السياسية التي ينبغي أن تكون منسقة ومنسجمة ومتكاملة، فلم نصل في شأنها إلى ما نطمح إليه.

إن مجال التعاون والتضامن والتكاثف بين الدول الإسلامية مجال واسع ومتعدد الجوانب، ومن الضروري أن نشرع عملياً في اتخاذ خطوات عملية لتحقيقه. وعلى سبيل المثال، ففي المجال الاقتصادي أتساءل عما يمنعنا من إقامة سوق إسلامية مشتركة ؟. لماذا لا يكون لنا طموح كبير في هذا المستوى ولنا من الوسائل والامكانات والعلاقـات ما يساعدنا على ذلك. فلماذا لا نفعل ؟. ولكن مع ذلك لا أريد أن أكون يائساً، والذي أتمناه هو أن يقدر المسؤولون المسلمون من ملوك ورؤساء، هذه الطموحات والمسؤوليات عميق التقدير، وأن يصمموا على إعطاء كل اجتماعهم دفعة جدية للعمل الإسلامي. المطلوب من قادتنا أن يراجعوا صحيفتهم ليعرفوا مقدار منجزاتهم وآمالهم ومساهمات ومبلغ السلبيات التي سجلت في هذه الصحيفة. وكل سلبية ينبغي أن تزول. وكل إيجابية يجب أن تبقى وتثبت. ولست من المتعجلين لتحقيق كل الآمال والطموحات. لأن هناك الواقع الذي يتحكم في مسار أعمـالنـا. ولست من اليـائسين الذين يستبعدون كل إصلاح، ولست من الناقمين، ولكن في الوقت نفسه، أريد دائماً أن أقول كلمة صدق ونصح حتى نعمل كل ما في استطاعتنا لصالح أمتنا الإسلامية العظيمة.

إن الفرصة سانحة أمام مسؤولي الأمة الإسلامية ليحققوا ما تنتظره منهم أمتهم وشعوبهم من جمع كلمتها على الحق، ومن تعاونهم على الدفاع عن القضايا الإسلامية، ومن حرصهم على أن يجعلوا من أمتهم الإسلامية خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتجاهد في سبيل سعادة المسلمين وسعادة الإنسانية جمعاء.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾.

انطلقت الحركة الوطنية بالتعبئة والامتلاء الشعبي بالوعي(*)

○ كيف بدأت فكرة المطالبة بالاستقلال في سياق الحركة الوطنية، وما هي المراحل التي قطعتها إلى أن تبلورت في وثيقة 44/1/11 ؟.

● المطالبة بالاستقلال سنة 1944 لم تنشأ من فراغ. كانت هناك جهود شاقة وعمل متواصل انطلق منذ منتصف العشرينات، وقام على أكتاف الرعيل الأول من الوطنيين. فبعد مرور سنوات على نكسة الحماية في 30 مارس 1912، وفتور المقاومة المسلحة، دق ناقوس الخطر الذي نبه الطليعة المناضلة إلى ضرورة القيام بعمل لتصحيح الأوضاع، خاصة وأن الحماية جاءت كنتيجة لعوامل دولية ومحلية من أهمها حالة الجمود التي هيمنت على بلادنا وجعلتها في درك أسفل من التأخر والتخلف. فالأجيال التي سبقتنا مسؤولة عما وقع، ما في ذلك شك، إذ لم تكن مهيأة للوقوف في وجه الاستعمار لأسباب عديدة. فلما وقعت الواقعة اتجهت همة فئة من الوطنيين الأحرار إلى التحرك لرد القاطرة إلى سكتها. وبدأت في منتصف العشرينات، أي بعد ثلاث عشرة سنة من التوقيع على عقد الحماية. ولنقل إن العقد الأول من الحماية مضى في التعبئة والامتلاء الشعبي بالوعي بكيفية تدريجية، حتى إذا بدأ العقد الثاني انفجرت الأوضاع في شكل دعوة سلفية كانت تحارب الأضاليل التي كان يتزعمها بعض المتعاونين من دعاة الطرقية مع الاستعمار، مما كان يخدر العقول ويجعلها تتقبل الأمر الواقع. فكانت السلفية حركة مناهضة للاستعمار وإيديولوجية - إذا شئت - حركت جماهير الشعب في اتجاهين اثنين ؛ الوعي بالذات من

(*) نشر الحديث في جريدة «العلم» يوم 11 يناير 1983.

خلال مراجعة جملة من التصورات والمفاهيم والأفكار والمعتقدات، ووضع القواعد والمرتكزات الأساس لما سيبنى عليها من تحركات وبرامج وإصلاحات، واتخاذ موقف وطني محدد من الاستعمار تمثل في رفضه رفضاً كاملاً ما لبث أن تبلور هو الآخر في بداية الثلاثينات بالتحركات الشعبية العارمة ضد السياسة البربرية التي خطط لها الاستعمار بظهير 1930. وهنا يبدأ العقد الثالث من فترة الحماية، وهو الذي شهد تحولات عميقة في الخط النضالي، فكانت «مطالب الشعب المغربي» سنة 1934، التي جاءت ملبية لتطلعات شعبنا ومبلورة للأفكار المؤسَّسة على المنطلقات الأولى لحركتنا ومعبرة عن مستوى النضج السياسي الذي طبعها، بحيث تناولت (مطالب الشعب المغربي) مختلف القضايا والمسائل التي تتصل بحياة الشعب، من إقرار حريات عامة، وتنظيم حياة نيابية تكريساً للديمقراطية، إلى رد الأراضي إلى أهلها، إلى تمكين العمال من ممارسة حقوقهم والتمتع بمردود عملهم الشاق، إلى تنظيم المسائل الاقتصادية وتحقيق العدالة الاجتماعية، إلى غير ذلك من الموضوعات التي كانت تستأثر باهتمام الشعب المغربي إذاك. وينبغي أن نسجل هنا أن هذه التحولات التي تجلت في دفتر مطالب الشعب المغربي سنة 1934، كانت وليدة اثنتي وعشرين سنة من النضال المتعدد المجالات ضد الواقع الاستعماري، بما في ذلك النضال المسلح الذي استمر متأججاً طوال هذه الفترة في الريف والأطلس والسهول والصحراء. مما يؤكد أن الشعب المغربي لم يرض يوماً ما بالوجود الاستعماري، وأنه كان رافضاً الرفض كله لهذا الوجود. إن ما وقع في 30 مارس 1912 لم يكن إلا حادثة سير ليس إلاَّ.

بعد 34، انطلقت سلسلة المعارك السياسية مطالبة بتحقيق الإصلاحات الضرورية التي لم يستجب لها الاستعمار، فكان القمع الاستعماري طوال سنوات العقد الثالث، واستمر في عنفوانه إلى سنة 1944، حيث كانت قمة المواجهة. فتطورت المواجهة بيننا وبين الاستعمار إلى طرح المشكل في إطاره الحقيقي، وهو المطالبة بإلغاء عقد الحماية وإعلان الاستقلال، أو بالأحرى

العودة إلى ما كان عليه المغرب من حرية واستقلال وكرامة وحق التصرف والمبادرة والتسيير، أي أن وثيقة 11 يناير 1944، تتضمن التعبير عن إرادة أمة أرادت أن تحيا ودولة تطلعت إلى استئناف دورها الحضاري الذي تواصل طوال أربعة عشر قرناً.

وأود هنا أن أوضح الآتي، وهو أن تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال في تلك الظروف الصعبة والخطيرة، كان عملاً وطنياً إسلامياً عربياً، باعتبار أن مضمون الوثيقة هو العودة إلى المغرب الحر المستقل.

لقد حققنا أموراً كثيرة من 1934 إلى 1944، كان أهمها أن الحركة الوطنية الملتحمة بالعرش المغربي، قد أخذت طريقها الصحيح، واتضح أمامها الخيط الأبيض من الخيط الأسود. وبانت الأمور على حقيقتها، وتحددت معركة الحاضر والمستقبل. وكنا نحن في حزب الاستقلال نعمل في انسجام تام مع جلالة المغفور له محمد الخامس، وكانت خطتنا في الحزب مطابقة تماماً لخطة العرش، وكانت بيننا مواثيق وعهود، كما كنا حزباً وعرشاً مصممين على خوض المعركة إلى آخر الشوط.

ولنا أن نتساءل الآن : ماذا كان يهدف إليه الاستعمار في المغرب طوال اثنتين وثلاثين سنة هي الفاصلة بين 1912 و1944 ؟. كان يهدف إلى النيل من مقومات الكيان التي بقيت راسخة، وهي الإسلام والعروبة والوحدة الوطنية. صحيح أن الاستعمار حاول المساس بهذه المقومات، ولكنه فشل فشلاً كاملاً، وبقي المغرب مغرباً مسلماً عربياً ذا كيان موحد رغم الوجود الأجنبي. ولذلك كانت فكرة الاستقلال تعني رفع القيود وطرد المغتصب ليواصل المغرب رسالته في الإشعاع الفكري والحضاري.

لقد كنا نكافح في واجهتين : الواجهة الأولى بلورة الفكرة الإسلامية وتقوية الارتباط بها، والواجهة الثانية مقاومة الاستعمار وأعوانه من الخونة والسائرين

في ركبه. ولم تكن معاركنا سهلة. كنا ننحت في صخر، واستشهد منا العشرات وسجن وعذب ونفي المئات، وحكم بالاعدام على العشرات أيضاً. كانت البلاد مسرحاً دامياً. ولم يفت ذلك في عضد الفئة المؤمنة بربها المتطلعة إلى الحرية والمتمثلة يومذاك في حزب الاستقلال والشخصيات الوطنية التي وقعت الوثيقة التاريخية.

ويمكن أن نجمل المراحل التي قطعتها فكرة الاستقلال في النقط التالية : من 1912 إلى 1925 كانت مرحلة التهيؤ والتربص والانتظار، ومرحلة التكوين والاستعداد بالنسبة للشباب الذي سيقود المعركة فيما بعد، وفي الوقت نفسه كانت هذه الفترة مرحلة كفاح مسلح في الريف والأطلس والصحراء كما أسلفت القول.

من 1925 إلى 1934 كانت مرحلة الدعوة السلفية أولاً (25-30)، ثم مقاومة الظهير البربري، وهي تطوير للسلفية والخروج بها من المساجد إلى الشوارع. ثم بعد ذلك العمل السياسي المنظم الذي أعطى (دفتر مطالب الشعب المغربي) الذي فوجئ به المستعمر فعمد إلى تطوير أساليبه وطرقه وسياسته.

من 1934 إلى 1944 وقع الانفجار الذي بلغ الذروة يوم 1944/1/11. وأستطيع أن أقول إن المغرب لم يعش عقداً مليئاً بالمعارك الحاسمة مثل هذه العقد أو هذه الفترة بالأصح.

○ **يمكن القول إن الفترة الممتدة من 44 إلى 55 كانت فترة المواجهة السافرة والمكشوفة مع الاستعمار. فماذا يمكن أن تعقبوا به على ذلك ؟.**

● دخلت الحركة الوطنية المتلاحمة مع العرش منذ سنة 1944 طوراً جديداً من المواجهة بعد أن طرح المشكل في إطاره العام. أصبحت فكرة الاستقلال عقيدة وجهاداً. وكان أمامنا هدف واحد، هو طرد المحتل وبناء أسس الدولة المغربية الحرة المستقلة. وفي هذا السياق تدخل معارك أواخر الأربعينات وأوائل

الخمسينات التي التف فيها الشعب المغربي حول ملكه للدفاع عن السيادة والحفاظ على الذاتية. وهنا ينبغي التأكيد على الأدوار التي قام بها حزب الاستقلال في تنسيق مطلق مع محمد الخامس، دفاعاً عن الشرعية وانتصاراً للحرية. وكان مفهومنا للدولة المغربية الحرة المستقلة يتمثل في الدولة الإسلامية التي تعمل بالحكم الإسلامي، على أساس أن المغرب فرض وجوده وكيانه بالإسلام، وأن تاريخ المغرب الناصع هو تاريخه الإسلامي العربي. وجميع الدول المتعاقبة على المغرب، كانت دولاً إسلامية عربية. ولذلك كان تطلعنا من خلال عملنا الوطني من أجل الاستقلال، إلى دور إسلامي يقوم به المغرب المستقل، لأن هذا هو الوضع الطبيعي والتاريخي لبلادنا.

○ **كيف سارت الأمور في هذا الاتجاه بعد 1955 ؟.**

● في الواقع، انشغلنا بعد الاستقلال ببناء الدولة. كان هناك فراغ مميت تعمد الاستعمار تركه في كل ميدان. بدأنا من الصفر متجهين إلى الجانب المادي دون اهتمام كبير بالجانب الروحي. وكان الحزب منصرفاً إلى المهام السياسية الصعبة. وهكذا مرت سنوات 56 – 57 – 58 – 59. وفي مطلع الستينات اتجهت البلاد في مسار جديد بعد أن تولى جلالة الملك الحسن الثاني مقاليد الأمور. حيث تطلع المغرب إلى تحقيق البند الثاني من وثيقة الاستقلال، وهو تنظيم البلاد على أساس الملكية الدستورية، وإحداث الجماعات المنتخبة على كل المستويات. وكان على حزب الاستقلال أن يكون سباقاً ورائداً في ترشيد هذا التحول، فكانت وثيقة التعادلية في 1963/1/11 التي دخلنا بها مرحلة جديدة من الكفاح الاجتماعي والاقتصادي. ثم انغمرنا في العمل الوطني في ظروف بالغة الصعوبة طوال عقد الستينات، حتى إذا أهل العقد السابع بدأت البوادر الأولى لمعركة الصحراء، وكان نداء الكويت الذي وجهه الزعيم علال الفاسي داعياً إلى الاهتمام بقضية الصحراء باعتبارها قضية مصيرية. ثم جاءت سنة 1974 مؤذنة ببدء المعركة الكبرى التي أبلى فيها جلالة الملك الحسن الثاني البلاء العظيم

استماتةً وصموداً وثباتاً في أحلك الظروف ووسط مؤامرات متعددة الأطراف. وتُعدُّ المسيرة الخضراء قمة العطاء الحسني، وأبرز علامة الكفاح الوطني على مدى تاريخ المغرب كله. ويمكن أن نقول إن المسيرة استمرت طيلة العقد السابع في خط تحرير الأقاليم الصحراوية وحماية الوحدة الترابية لبلادنا.

ومع بداية العقد الثامن الذي يصادف بزوغ القرن الخامس عشر الهجري، نرى لزاماً علينا أن نقوم بمواجهة مخلصة للذات، لتتضح معالم الطريق في مسيرتنا الهادفة نحو بناء المجتمع المغربي المسلم.

○ هل دخلنا طوراً جديداً من الكفاح الوطني، بمعنى هل أعطى لفكرة الاستقلال مدلول جديد ؟.

● في الحقيقة الاستقلال بالنسبة لنا هو العودة إلى استقلال المغرب ووحدته وإسلامه. فمما لاشك فيه أن المغرب منذ القرن الثاني للهجرة، أي منذ بدء الدولة الإدريسية، وهو قلعة للإسلام والعروبة. صحيح وقعت بعض الهزات، ولكن ذلك لم يؤثر في السلوك العام للدولة المغربية، وأعني به حماية الإسلام والدفاع عنه والعمل به. فهذا هو الطابع المغربي. فمن مقومات هذه البلاد العقيدة الإسلامية. هذا هو الجوهر.

جاء الاحتلال سنة 1912 ليعمل على تغيير هذا الواقع، فلم يجد الطريق ممهداً، رغم وجود الانحرافات وحالات التخلف. وكان الخروج عن الإسلام مطمحاً لم يبلغه الاستعمار، ولن تبلغه قوة مهما تكن.

وبالنسبة لنا في صفوف الحركة الوطنية، بدأنا من الإسلام دعاةً إلى السلفية، أي دعاة إلى التحرر في الفكر والاعتقاد والمعاملة والسلوك، ومن ثم كان عملنا هذا دعوة إلى تصحيح العقيدة وإلى العلم والتنوير. وتطور ذلك إلى النضال السياسي، الذي مر بالمراحل السالفة الذكر. واليوم وقد اكتملت المظاهر السياسية والسيادية للاستقلال، نحتاج إلى ترشيد الاستقلال، بحيث نتحرر من رواسب الاستعمار في الإدارة، في الاقتصاد، في الاعلام، في التعليم، في الثقافة، في الحياة العامة.

وأنا هنا، بهذه المناسبة، أدعو دعوة خالصة إلى أن نجعل من العقد الثامن عقد التكوين الإسلامي للمواطن. وأهيب بإخواني في حزب الاستقلال إلى ترسيخ هذه الفكرة وتأطيرها في برنامج عمل متكامل. وأهيب خاصة بإخواني الوزراء في الشؤون التعليمية والإسلامية والثقافية والاجتماعية، إلى التحرك في هذا الاتجاه أولاً، استجابة لنداء ضمير الشعب، وثانياً تلبية للدعوة الكريمة التي كان وجهها جلالة الملك في رسالته إلى الأمة الإسلامية[1].

وبالنسبة لسائر المسؤولين على مختلف المستويات، آمل بكل الإخلاص أن يضعوا أيديهم في أيدي إخوانهم من أجل العمل لصالح الخط الإسلامي بدعم الصحوة الإسلامية والعمل الإسلامي، لأنه طريق الخلاص.

والمطلوب الآن العمل على تكوين المجتمع الإسلامي الذي تسود فيه الأحكام الشرعية الإسلامية، وتعطى فيه الحقوق الاجتماعية التي ضمنها الإسلام والتي بها وحدها نستطيع أن نسد الطريق أمام من يريدون أن يجعلوا من مجتمعنا الإسلامي مجتمعاً لا ارتباط له بالأسس الإسلامية، وأن نعمل على تطهير هذا المجتمع من كل مظاهر الانحراف، سواء كان هذا الانحراف في الشارع أو الأسرة أو في المعمل أو الإدارة أو على الشاشة أو غير ذلك، وأن نتجه إلى الشباب خاصة لتكوينه تكويناً روحياً أخلاقياً سليماً، بالإضافة إلى تكوينه الجسدي والعقلي، حتى نقيه من الانحرافات التي أصبحت تغزوه من ذات اليمين وذات اليسار، وحتى نعطي لهؤلاء الشباب المثل على أننا عندما نقول بالإسلام نريده أن يكون قولاً وفعلاً.

وباعتبار أن العنصر النسوي يمثل نصف سكان المغرب، ينبغي أن نوليه من الاهتمام القدر الوافي، ونعطي للمرأة كامل حقوقها التي ضمنتها الشريعة الإسلامية، ونحررها من التبرج الجاهلي بأن نرفع مستواها الفكري والاجتماعي والاقتصادي، ونبين لها أن الإسلام يكرمها ويرفع من قدرها. وأقولها بكل

(1) بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري.

الصدق مع النفس، إن المطلوب التحرك في إطار المبادئ الإسلامية. وسنظل نعمل لها إلى أن نلقى الله، حتى نبني مستقبلنا في نطاق حضارة إسلامية متفتحة على معطيات العصر.

وبطبيعة الحال، نحن نرفض العودة إلى ما قبل سنة 1912 من حيث الشكل والمظهر، هذا لا يمكن، فقد تغيرت الدنيا وتطورت. ولكننا ندعو للعودة إلى الأسس التي قامت عليها دولتنا منذ إدريس الأول. وعلينا أن نتطور في استخدام أدوات الحضارة ووسائل التقدم، ولكن علينا أيضاً، أن نتمسك بالقيم والمبادئ التي لا نقبل التخلي عنها بحال من الأحوال.

وأعتقد أن المغرب مرشح لعمل إسلامي كبير. وعلى حزب الاستقلال، وعلى جميع الأحزاب والمنظمات السياسية والنقابية والشبابية والثقافية، أن تعمل في هذا الاتجاه. لأن هذا هو الاتجاه الذي يصون كياننا ويحفظ وجودنا ويفتح أمامنا آفاق العمل لصالح أمتنا والإنسانية جمعاء.

قضايا الأمة في حديث عن
مؤتمر العالم الإسلامي في كراتشي(*)

انعقد اجتماع استثنائي لمؤتمر العالم الإسلامي بمدينة كراتشي، حضره الأستاذ المجاهد أبوبكر القادري عضو المجلس التنفيذي لهذا المؤتمر.

وبهذه المناسبة، اتصل محرر صفحة «**عالمنا الإسلامي**» بالأستاذ الكبير، وطلب منه الإدلاء بإيضاحات عن هذا الاجتماع الذي انعقد في ظروف بالغة الخطورة بسبب تصاعد المد الصهيوني والاستعماري ضد الأمة الإسلامية.

وقد تحدث الأستاذ أبوبكر القادري في هذا اللقاء عن القضايا التي تدارسها الاجتماع الاستثنائي لمؤتمر العالم الإسلامي، وفي طليعتها قضية فلسطين العربية الإسلامية.

وأعلن الأستاذ أبوبكر القادري في هذا اللقاء، عن مواقف إسلامية اتخذها المؤتمر مناصرة ودعماً لجهاد المسلمين والعرب في فلسطين ولبنان وأفغانستان.

وقال الأستاذ أبوبكر القادري في هذه المقابلة، إن مؤتمر العالم الإسلامي تدارس في اجتماعه الأخير، قضية التوتر في شمال غربي إفريقيا، وأكد وجهة نظر المؤتمرين التي تتلخص في اعتبار جميع الأحداث التي تجري في إفريقيا مصطنعة.

وقال أيضاً : إن القوى المعادية للإسلام وللمغرب تعمل من أجل إعاقة هذاالبلد العربي الإسلامي عن أداء رسالته الحضارية ومنعه عن مواصلة دعمه لإخوانه الفلسطينيين، وذلك بتفجير الصراع في صحرائه.

(*) نشر الحديث في جريدة «العلم» يوم 22 نوفمبر 1982.

وفيما يلي نص المقابلة :

○ نود أن تطلعوا القراء على أشغال الاجتماع الاستثنائي لمؤتمر العالم الإسلامي الذي عقد مؤخراً بكراتشي.

● دعا مؤتمر العالم الإسلامي إلى عقد اجتماع خاص له في كراتشي بمناسبة الأحداث الأليمة التي جرت في العالم الإسلامي، للنظر فيها وأخذ القرارات المناسبة حولها. فإن الأحداث التي مرت في لبنان وفي فلسطين والتي تجري كذلك في العراق وإيران والأحداث الواقعة في أفغانستان وغيرها من الأقطار الإسلامية، فرضت على رئاسة المؤتمر أن تدعو إلى عقد جلسة استثنائية تنادى إليها مستشارو المؤتمر وأعضاء المجلس التنفيذي في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

ومن المعلوم أن مؤتمر العالم الإسلامي اعتبر هذا القرن الهجري قرن الصحوة واليقظة الإسلامية، وعقد عدة اجتماعات وندوات كبرى بهذه المناسبة، دعا فيها إلى توحيد الكلمة وتنظيم الصف، وإلى الأعمال الإيجابية التي من شأنها أن توقظ العالم الإسلامي وتسير به في المحجة البيضاء، وتدارس في ندواته كثيراً من الأهداف والمباني التي دعا إليها الإسلام لتحرير البشرية.

ومن المؤسف أنه في الوقت الذي يتطلع العالم الإسلامي إلى صحوته لأن تكون صحوة صحيحة جيدة، في هذا الوقت بالذات، تقع هذه الأحداث التي لم ير العالم مثلها، وبالأخص أحداث صبرا وشاتيلا[1]، والأحداث التي تقع على أرض العراق وإيران، والأحداث التي تقع في أفغانستان، وكأن أيادي خفية تعمل على طمس هذه اليقظة الإسلامية لتتحداها، وتريد أن تمنعها عن الإشعاع وعن إعطاء ما ينتظر منها للعالم الإسلامي.

---

(1) مخيمان فلسطينيان في إحدى ضواحي بيروت.

إن إقدام الصهيونيين والشيوعيين والصليبيين : الشيوعيون في أفغانستان وايريتريا، الصليبيون المارونيون في لبنان وغيرها، والصهاينة في لبنان أيضاً وفي فلسطين، إن إقدامهم على هذه الهجمة الشرسة الوقحة ضد المسلمين، لها عدة أهداف، من جهة فإنها تريد أن تقضي على هذه الروح التي بدأت في الانبعاث، ومن جهة ثانية تريد أن تقضي القضاء النهائي على الخط الحضاري العربي الإسلامي الذي من شأنه إذا ما وقف على رجله، أن يقف ضد كل المخططات التي يضعها الاستعمار، فإن صور التعذيب الأليم الذي وقع في أرض لبنان على إخواننا الفلسطينيين واللبنانيين، ليدل دلالة واضحة على أن ما يتشدق به هؤلاء الذين يدعون الحضارة، إن هو إلا كذب وبهتان وزور، وأن المسلمين مطالبون مطالبة حثيثة لأن يعملوا على لمّ شتاتهم ويراجعوا أنفسهم لتكون صحوتهم صحوة صحيحة.

لقد انعقد هذا الاجتماع في كراتشي تحت شعار مؤتمر العالم الإسلامي الذي هو «**إنما المؤمنون إخوة**». ولقد تدارسنا عدداً من القضايا التي كانت في جدول الأعمال، وفي طليعتها قضية فلسطين وقضية لبنان وقضية أفغانستان وقضية المشاكل التي تعاني منها إفريقيا المسلمة بصفة عامة، وكذلك بعض القضايا التي تقع في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، وبالأخص قضايا الأقليات الإسلامية المنبثة هنا وهناك في أنحاء العالم.

وإذا كانت اجتماعاتنا دامت خمسة أيام متوالية صباح مساء، فإن الأضواء بصفة خاصة، تسلطت على القضايا الجوهرية، وبالأخص قضية فلسطين باعتبارها قضية المسلمين الأولى، وباعتبار أنها وصلت لمفترق الطرق، فإما أن ينجح العالم العربي والإسلامي في فك هذا الشعب من براثن الصهيونية والاستعمار، وإما لا قدر الله، ستبقى هذه القضية متجرجرة ويفقد الشعب الفلسطيني أرضه ووطنه ومقوماته إلى أن يأتي من يصر على افتكاكه وتحريره.

لقد انتهينا بعد دراسة القضية الفلسطينية من جميع جوانبها، إلى اتخاذ قرار توجيه رسالة أو مذكرة إلى اللجنة السباعية العربية في شخص رئيسها جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، وذلك أثناء وجود جلالته بالولايات المتحدة بمناسبة لقائه مع الرئيس ريجان. كما بعثنا بمذكرة أخرى في الوقت نفسه إلى الرئيس الأمريكي ريجان نفسه نحمله مسؤولية ما وقع ويقع من أحداث ونطالبه بأن يتخذ من القرارات الفورية ما يتفق مع مقتضيات العدالة، مؤكدين له أنه لا يليق بدولة تدعي دفاعها عن الحرية وتناصر الأمم المحرومة منها وتقول إن ما يقع في أرض بولونيا من أحداث يجب مقاومته، ويكاد يهدد بوقوع حرب عالمية، بينما لا تقف على الأقل الموقف نفسه أمام الأحداث التي تقع في لبنان، والتي لا يمكن أن تقاس بما وقع في بولونيا. فهل في بولونيا بشر من حقه أن يتضامن معه البشر، وفي أرض لبنان وفي أرض فلسطين بشر لا يستحق أن يتضامن معه ؟!.

لقد وضعنا الرئيس ريجان أمام مسؤوليته إزاء هذه الأحداث، وطالبناه باتخاذ موقف صارم ضد ما تقوم به الصهيونية وإسرائيل من اضطهاد ومن تقتيل ومن تذبيح لم ير البشر مثله حتى أثناء الحروب الصليبية وفي الأندلس غداة سقوط دولة الإسلام بها.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية تدارسنا الأحداث التي تقع في القارة الإفريقية. ومن المعلوم أن أغلب الأحداث الواقعة في إفريقيا هي أحداث مصطنعة، السبب فيها هو تنازع القوتين العظميين على بسط النفوذ، وأن ما يقع في المغرب أو في صحراء المغرب مثلاً، من تحرشات إن هو في نظرنا إلا انتقام من المغرب على ما بذله في قضية فلسطين بصفة خاصة من جهود وقدمه من معونات، وما أعطاه من دم في الجولان وفي سيناء، حتى يعوقونه عن أداء واجبه في معركة التحرير التي يخوضها إخوانه الفلسطينيون. والأحداث والتحرشات الواقعة ضدنا في صحراء المغرب، ليس الهدف منها المغرب فحسب، ولكن الهدف منها أعظم من ذلك وأكبر. ولذلك فنحن لابد أن نحتج ضد هذه

الأحداث التي أوقدها ودبرها ضدنا إخوان لنا يتحملون مسوولية إضعاف قوة المغرب العربي التي كان من المفروض أن تكرس لحرب الاستعمار والصهيونية، فبدلاً من ذلك صاروا يناضلون النضال المرير ضداً على مصلحتنا ومصلحة بلادهم أيضاً، لا لشيء إلا ليعوقوا رسالتنا، وإلا ليعوقوا حضارتنا وامتدادها في الأراضي الإفريقية، وليعوقونا عن أداء واجبنا إزاء إخواننا في الشرق العربي.

إن العمل العظيم الذي يقوم به المغرب على صعيد قضية العرب وتجرده ملكاً وحكومة وشعباً في عمله من أي مقابل وعدم استغلاله لقضية فلسطين أي استغلال كيفما كان نوعه، هو الذي حذا بأولئك، سواء منهم الإخوة أو الأعداء جميعهم، أن يقفوا ضداً عليه حتى لا يؤدي رسالته الحضارية التي هو مطالب بأدائها.

ولقد تدارسنا بالإضافة إلى هذا، قضايا ومشاكل أخرى كقضية إيريتريا وقضية الفيليبين، وقضية الخلاف العراقي الإيراني، وقضية أفغانستان.

○ **بخصوص الحرب العراقية – الإيرانية، ماذا تم تدارسه بشأنها بصفة عامة ؟.**

● يجب أن أشير إلى أن المؤتمر سبق له أن قرر في ندوته التي عقدت في كولومبو عاصمة سيريلانكا، أن يبعث بوفد للتصالح، وفعلاً ذهب هذا الوفد واتصل بالطرفين سواء في إيران أو العراق، وكان على وشك أن يصل إلى الحل، هذا الحل الذي كان سيصل إليه موقع عليه من الطرفين، لولا أن أحداثاً أخرى وقعت، ولولا أن التراجع وقع بعد ذلك عما حصل الاتفاق عليه. وإنه لمن المؤسف أن الحرب بين إخوان مسلمين استمرت أزيد من سنتين، وفي ظرف كانت الآمال معلقة على أن يكون ظرف البناء لا ظرف الحرب، وفي وقت كان من المفروض أن تقع الحرب فيه ضد إسرائيل وضد أعوانها، فكانت الحرب ضد المسلمين مع بعضهم بعضاً.

○ **وماذا عن القضية الأفغانية وما حظها من أشغال هذا الاجتماع ؟.**

● أما فيما يتعلق بقضية أفغانستان، فإن موقف المؤتمر تحدد في أن نبقى دائماً نساند إخواننا المجاهدين مساندة لا مشروطة، ونعاونهم بما نستطيع من معاونة كذلك غير مشروطة حتى يسترجعوا أرضهم، وحكمهم ويقرروا مصيرهم بأنفسهم، وحتى تستطيع أفغانستان أن تقوم بدورها الإسلامي مثلما أدته في الماضي.

ومن المعلوم أن مؤتمرنا لا يكتفي بإصدار هذه القرارات، وإنما لنا ممثل دائم بهيئة الأمم المتحدة، باعتبار أن منظمة مؤتمر العالم الإسلامي منظمة معترف بها من طرف هيئة الأمم كمراقب وملاحظ، وبهذه الصفة فإنه يحق لها أن تتدخل في بعض القضايا، وأن ترفع المذكرات وأن يكون لتدخلها كثير من الأثر. وهكذا بعثنا بمقرراتنا إلى مندوبنا في الأمم المتحدة، ليرفع ما قررناه إلى المنتظم الدولي ويرفع صوت المسلمين أمام أنظار العالم.

هذه بعض القضايا التي أثرناها في اجتماعنا الأخير بكراتشي، لكن بالإضافة إلى هذا، فإن الميزة التي يمتاز بها مؤتمر العالم الإسلامي، هي الاهتمام بتنظيم الوعي الإسلامي وإشعار المجتمع الإسلامي بضرورة الخروج من ضيق الفكر الذي يعيش فيه أو من عدم الاهتمام الذي يعيش فيه، إلى بحبوحة واسعة ليمكنه أن يسير في الطريق الواضح. كذلك نريد أن نخرج بالعالم الإسلامي من قوقعته، ومن مناصرته للقضايا مناصرة كلامية، إلى مناصرة عملية، لأن الأحداث التي وقعت في لبنان، ولابد أن نرجع إليها، برهنت على أن الوعي الإسلامي لا يزال لم يصل إلى نضجه، ولو وصل الوعي الإسلامي إلى نضجه، لما استطاعت إسرائيل أن تقوم بالأعمال الهمجية التي قامت بها والعالم الإسلامي واقف ساكت، مثلما بقي العالم العربي كله واقفاً ساكتاً.

كانت هذه تجربة قاسية ضد ما تمنيناه مع ابتداء صحوة إسلامية في مطلع القرن الخامس عشر الهجري.

إن الصحوة الإسلامية ليست كلاماً، الصحوة الإسلامية الحقيقية هي عمل، وهذا العمل لابد أن يبرهن عنه في الأوقات المناسبة.

ومع الأسف، إننا لم نبرهن حتى الآن عنه، ولذلك بحثنا في السبل التي من شأنها أن تخرج قراراتنا وتخرج ما نطمح إليه من صحوة، إلى حيز التطبيق والوجود.

مثلاً، ليس ما وقع من أحداث في لبنان هو كل المشاكل التي يعاني منها العالم الإسلامي وحده، وإنما هناك أحداث وقعت قبل ذلك وبعد ذلك، فقضية المفاعل النووي في العراق، وهو المفاعل النووي الوحيد التي تملكه دولة إسلامية، استطاعت إسرائيل أن تقضي عليه وتحطمه في أسرع ما يمكن من الزمن تحت سمع العالم الإسلامي وبصره، ولم يقع أي رد فعل قوي. وهذا دليل على أننا بعيدون عن الطريق الصحيح الذي من شأنه أن يفرض لنا الاحترام الضروري وأن يفرض لنا الوجود.

من جهة أخرى، هناك انحلال خلقي في العالم الإسلامي، ولا يمكننا أن نغفله، هذا الانحلال سببه هو ابتعادنا عن التعاليم الإسلامية الحقيقية. فالمجتمع الإسلامي لا يربي ويوجه التوجيه الصحيح ليصبح قوة فعالة تستطيع أن تقاوم القوى المسيطرة على العالم.

ولذلك فإن مؤتمر العالم الإسلامي يرى أنه من الضروري أمام هذا الانحلال الخلقي، أن ندق ناقوس الخطر أمام المسؤولين في العالم الإسلامي لوضع مخططات من شأنها أن ترجع القوة الحقيقية للمجموعة الإسلامية، هذه القوة التي لا يمكن أن تسترد إلا بحصانة خلقية من جهة، ومن جهة أخرى بالعمل على خطوة جديدة لبناء وحدته السياسية والاقتصادية.

ويرى المؤتمر أن العالم الإسلامي لابد أن يكون قوة متكاملة مع بعضها بعضاً. ولا يستطيع أن يؤدي رسالته إلا إذا حقق هذه القوة، ولا يستطيع أن

يفرض وجوده إلا إذا شعر الخصم أنه يتكلم بلغة المنطق السياسي وبلغة المنطق الاقتصادي وبلغة منطق القوة التي تفرض الوجود.

هذهٰ بعض القضايا التي أثرناها في اجتماعنا الأخير بكراتشي، أردت أن ألفت النظر إليها بهذه المناسبة.

ولكي نرجع إلى ما ابتدأنا منه، نقول إن الصحوة الإسلامية التي نرجو أن تقع في القرن الخامس عشر الهجري، لابد أن تبنى على أسس سليمة صحيحة، ولابد أن يقضى فيها القضاء النهائي على كل أنواع الخلافات والتطاحنات في العالم الإسلامي، بعضه مع بعض، وأن نستشعر المبادئ الإسلامية التي تدعونا إلى التعاون من جهة، وإلى التسامح مع بعضنا بعضاً من جهة، وإلى فرض وإيجاد القوة الفعالة التي من شأنها أن تعطي لعالمنا الإسلامي ما يستحقه من اعتبار أمام القوى المعادية.

هذه إذن بعض القضايا التي عالجناها في اجتماع مؤتمر العالم الإسلامي. وأتمنى أن أتبع هذا الحديث بحديث آخر ليعطي بعض الإيضاحات أكثر للقارئ الذي يتطلع إلى معرفة ما قمنا به في اجتماع كراتشي الذي حضره مندوبون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

الاستقلال كان هدف الحركة الوطنية في جميع المراحل من (الزاوية) إلى (الطائفة) إلى (الكتلة) إلى الحزب الوطني(*)

من سنة 1934..

إلى سنة 1944..

رحلة زمان، هي في أبعادها والأحداث التي حفلت بها، أرحب وأشمل وأطول من السنوات العشر التي استغرقتها... فقد تقرر فيها مصير المغرب بعد أن تأسست الحركة الوطنية في طورها الجديد المنظم على أساس الالتفاف حول فكرة محورية صُبَّت في قالب نضالي سياسي يخضع لمقتضيات العمل السياسي المتحضر، دفاعاً عن الحقوق الوطنية لشعب حكم عليه ظلماً وعدواناً أن يُطَوَّق بالحماية التي اتخذت شكل احتلال عسكري وإداري واقتصادي وسياسي وقضائي وثقافي وفكري..

من (المطالب) إلى (الاستقلال)...

من المطالبة بالإصلاحات إلى المطالبة بالاستقلال... رحلة نضال مستميت قطعتها الحركة الوطنية التي نمت وتطورت حتى استوت قيادةَ شعبٍ قرَّر أن يكافح من أجل الاستقلال..

حملت هذه التصورات إلى الأستاذ المجاهد أبي بكر القادري برغبة الاقتراب من الصورة الكاملة للحدث الكبير الذي نحيى اليوم ذكراه السادسة والأربعين.

(*) نشر الحديث في جريدة «العلم» يوم 11 يناير 1989.

□ كيف صُنعَ الحدث ؟

□ لماذا وقع الاختيار على سنة 1944 ؟

□ ولماذا وقع الاختيار أيضاً على يوم 11 يناير 1944 ؟

□ ولماذا وقّع 66 وطنياً (فقط) على الوثيقة ؟

هذه الأسئلة كانت محور لقاء مع الرجل الذي يحمل على كتفه أعباء معارك الاستقلال ويثقل قلبه الشعور بقداسة أمانة هذا الاستقلال..

○ مرّت عشر سنوات من عام 1934 التي قدمت فيه كتلة العمل الوطني المطالب إلى عام 1944 التي قدم فيها حزب الاستقلال الذي تكوّن من الحزب الوطني وشخصيات وطنية، وثيقة المطالبة بالاستقلال، كيف تقيمون هذه السنوات العشر التي تميزت بالنقلة النوعية المتمثلة في الجهر بالاستقلال ؟.

● بادئ ذي بدء أراني ملزماً بالتأكيد على فكرة أساس طبعت نضال الشعب المغربي منذ احتلال المغرب سنة 1912. هذه الفكرة هي أن هدف الاستقلال كان دائماً محور كل حركة تحرير مغربية، ابتداءاً من محمد بن عبد الكريم الخطابي وأحمد الهيبة ومجاهدي الأطلس، إلى قيام الحركة السياسية انطلاقاً من الكتلة والحزب الوطني، ومروراً بالتنظيمين السريين (الزاوية) أولاً ثم (الطائفة). فلقد كانت فكرة الاستقلال هدفاً أساساً لجميع هذه التحركات والتنظيمات حتى ولو لم تصرح بذلك، واتخذت في مراحل سابقة مبدأ الإصلاح فلسفة لعملها. فلقد كانت الإصلاحات التي طالبنا بتحقيقها، تفضي حتماً إلى الاستقلال حتى صرح بعض المسؤولين في الإقامة الفرنسية العامة، إن تطبيق الإصلاحات التي تطالبون بها لا يترك مجالاً لبقاء حمايتنا بالمغرب.

كان الاستقلال هو الغاية التي عملت من أجلها الحركة الوطنية في مختلف المراحل التي قطعتها.

وكانت مقتضيات المواجهة تفرض ترتيب الأوليات والتمهيد للمطالبة بالاستقلال علانية وبصفة رسمية وبأسلوب مباشر.

ولذلك ظلت فكرة الاستقلال تتبلور وتنضج على نار هادئة إلى أن كان الموعد المضروب مع التاريخ.

لقد عاشت الحركة الوطنية السنوات العشر الممتدة من سنة 1934 إلى سنة 1944، مخاضاً مستمراً تضاعفت فيه المعاناة على المستويات كافة.. وهذه المرحلة هي أخصب مراحل التاريخ السياسي الوطني المغربي، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن المرحلة السابقة التي استغرقت أربع سنوات من 1930 إلى 1934، كانت مرحلة الصدمة التي هزَّت الضمير الوطني التي جاءت على إثر الظهير البربري (1930/5/16)، وكان لابد من فترة لالتقاط الأنفاس والإعداد الكامل للانخراط في العمل السياسي المباشر في إطار تنظيم محكم.

ولذلك فإن الأحداث التي عرفتها سنوات 30 – 31 – 32 – 33، وإن كانت من الأهمية بمكان في سياق تطور الحركة الوطنية وتبلور الوعي السياسي الوطني وظهور البوادر الأولى للحركة السياسية الوطنية امتداداً للحركة العسكرية الوطنية التي قمعت بضراوة في سنة 1934 في الأطلس والصحراء كما قمعت بتآمر وتواطؤ بين فرنسا وإسبانيا في سنة 1926 بالريف، هذه الأحداث التي تصنف تاريخياً بأنها الأولى في ترتيب عمليات الحركة الوطنية، كانت بمثابة حجر الزاوية في بناء حركتنا التي انطلقت أقوى ما تكون في سنة 1934، والتي أخذت اتجاهها نحو المستقبل عبر مراحل بالغة الخطورة، تمثلت بالخصوص في سنوات 1936 ، 1937 ، 1939 التي شهدت تصاعد المدّ الاستعماري ببلادنا بشكل لم يسبق له مثيل في مراحل سابقة. إن أحداث يناير 1944 تمخضت أساساً عن هذه السنوات العشر، فهي وليدة هذه المرحلة الصعبة التي تشكل فيها الوجدان الوطني المغربي، وتبلورت إرادة الكفاح من أجل الحرية والاستقلال.

○ ولكن لماذا اخترتم سنة 1944 ولم تختاروا مثلاً سنة 1943 ؟.

● تداخلت الظروف والعوامل الداخلية والدولية في اختيار سنة 1944 لتقديم عريضة المطالبة بالاستقلال. أولاً هناك ظروف الحرب العالمية الثانية التي تميزت بالنسبة لنا في المغرب بثلاثة أمور ؛ الأمر الأول هزيمة فرنسا عند بداية الحرب، الأمر الثاني صدور ميثاق الأطلسي، الأمر الثالث استقلال بعض الشعوب العربية كسوريا ولبنان. بخصوص الأمر الأول، فقد كان انهزام فرنسا فرصة لإعادة النظر في الأساليب التقليدية التي كنا نلجأ إليها للدفاع عن حقوقنا الوطنية، وفي مقدمتها حقنا في العيش بحرية وفي ظل السيادة الوطنية. فها هي فرنسا التي تحتل وطننا تنهزم شرّ هزيمة، مما يُتيح لنا كشعب محتل فرصة نادرة للمطالبة بالاستقلال لو كنا مهيئين لاغتنام تلك الفرصة التي كان الاستعماريون الفرنسيون خلالها مرعوبين ومضطربين كامل الاضطراب يومئذ.

وبالنسبة لميثاق الأطلسي الذي جاء بمبدأ تقرير مصير الشعوب المستعمرة، فقد دفعنا إلى استثمار أجواء الحرب بكيفية جيدة واستغلال الظروف الجديدة بما يقوى موقفنا ويوفر لنا وسائل جديدة للنضال من أجل حقوقنا. أما بالنسبة لاستقلال سوريا ولبنان التي تجاوب معه شعبنا كل التجاوب، فلقد كان حافزاً لنا للتحرك للظفر بحقوقنا في الاستقلال، إسوة بأشقائنا في البلاد العربية، خاصة وأن الشرق العربي كان في وضع جيّد نسبياً، وكانت الخطوات الأولى نحو قيام جامعة الدول العربية قد بدأت.

وجاء مؤتمر آنفا بالدار البيضاء ليخلق أجواء جديدة في المغرب، أهمها أن دور فرنسا يتراجع بحضور جلالة السلطان محمد بن يوسف المؤتمر إلى جانب أقطاب الحلفاء كممثل للدولة المغربية ذات السيادة المعترف بها دولياً. وهنا تأتي المحادثات السياسية التي جرت بين جلالة السلطان وبين الرئيس الأمريكي روزفيلت. وهي محادثات بالغة الأهمية، أثبتت لأول مرة منذ فرضت الحماية على المغرب، استقلالية مكانة المملكة المغربية وتميّز شخصيتها

الاعتبارية المتمثلة في شخص جلالة السلطان الذي مهد لحضور المؤتمر بإجراء اتصالات مع قادة الحزب الوطني للتداول في شأن الأفكار التي ينبغي طرحها أثناء حضوره بعض جلسات المؤتمر، وكيفية استثمار هذه الفرصة التاريخية النادرة في ذلك العهد.

وفي مؤتمر آنفا ظهرت الشخصية الدولية للمغرب بالرغم من الوجود الفعلي للسلطات الاستعمارية، وذلك حين تباحث جلالة السلطان مع الرئيس الأمريكي، وعبّر له عن تطلعات الشعب المغربي في الحرية والانعتاق والاستفادة من أجواء ما بعد الحرب.

إن حديث محمد الخامس رحمه الله، مع الرئيس روزفيلت أكد أن المغرب ملكاً وشعباً مصمم على نيل حقوقه والظفر باستقلاله ؛ وأنه متشوف إلى الاستفادة من النظام التحرري الجديد الذي سيعم العالم بعد انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء، خصوصاً وقد شارك المشاركة الفعالة وساهم المساهمة العملية في تحقيق هذا الانتصار.

لقد كنا ننتظر على أحر من الجمر نتيجة هذا الاجتماع الذي عقده جلالة محمد الخامس مع روزفيلت، خصوصاً وقد أعد له رحمه الله كامل الإعداد من النواحي كافة.

وبقي موضوع اللقاء التاريخي محاطاً بالكتمان، ولم تتسرب منه إلا معلومات قليلة، باستثناء جماعتنا الوطنية الخاصة والمحظوظة التي لم يكن محمد الخامس يخفي عنها أي شيء يتعلق بنشاطه وعمله الوطني. فإثر انتهاء ذلك الاجتماع ورجوع محمد الخامس إلى الرباط، اطلعنا تواً بواسطة أخينا الحاج عمر بن عبد الجليل، على نتائج اللقاء والمذاكرات التي جرت بين الملك محمد الخامس وبين الرئيس روزفيلت بحضور ولي عهده جلالة الحسن الثاني الذي كان يحرص منذ ذلك الوقت، على اطلاعه على جميع ما يجري وما يقوم به من أعمال لصالح الوطن.

وسبق هذا التنسيق بين الحزب الوطني وبين جلالة محمد الخامس بمناسبة مؤتمر آنفا، اتصالات هامة بمناسبة نزول القوات الأمريكية في الدار البيضاء في 42/11/8 الذي تلقى على إثره جلالة السلطان طلباً فرنسياً بنقل عاصمة ملكه إلى فاس. وهنا لعبت جماعتنا دوراً هاماً في الاتصال بمحمد الخامس والتأكيد عليه برفض هذا الطلب، وهو أول اتصال وطني سري وشبه رسمي بيننا وبينه رحمه الله، والذي وجدنا فيه أن جميع ما نفكر فيه، يفكر فيه بدوره.

ومنذ ذلك الحين والعلاقات وطيدة الأركان بيننا وبين رائدنا محمد الخامس، ومنذ ذلك الحين أصبح مستقبل المغرب مضموناً وحريته مكفولة بعد تقوية الاتصالات وإحكام ربط العلاقات بيننا وبين ملك البلاد. وأدت هذه الاتصالات إلى توثيق العهود وأداء القسم على المصحف الشريف على الإخلاص لله والوطن والملك، والعمل المنسق لتحرير المغرب من ربقة الاستعمار وكتمان الأسرار.

لقد كانت ليلة تأدية القسم، ليلة خالدة في تاريخ العمل الوطني لتحرير المغرب، وكانت ترفرف عليها علامات الصدق والوفاء والإخلاص لله والوطن والعرش، وتأكد فيها التلاحم الصادق، والتعاون الدائم بين محمد الخامس والطائفة المخلصة من أبناء شعبه.

في هذا الجو الذي طبعه ربط الاتصال المستمر مع محمد الخامس، وفي ضوء الوضع الدولي الآخذ في الانتعاش بانتصار الحلفاء التدريجي وصدور ميثاق الأطلسي الذي أحيى أمل الشعوب المستعمرة في الحرية، كانت الفكرة تختمر في الأذهان، وكان القيام بعمل حاسم لوضع قضية استقلال المغرب في المجال الدولي، يفرض نفسه علينا، وإن لم يأخذ شكله النهائي. كنا نسعى إلى وضع القضية المغربية في إطارها الدولي بتفجير الموقف، ولو أدى الأمر إلى أوخم العواقب.

وأذكر أننا كنا في لقاء مع الأخ الحاج أحمد بلافريج ببيته نتداول فيما يجب القيام به للخروج من حالة الجمود ولاستغلال الظروف المحيطة بنا، فقال لنا بالحرف الواحد : (لابد من القيام بعمل كبير مهما كانت نتائجه وأن نعتبر أنفسنا معرضين لكل الأخطار كما لو كنا سائرين في الطريق وداهمتنا سيارة في حادثة سير لقينا فيها حتفنا).

وكانت الخطوات الأولى التي بدأنا بها هي الاستعداد الكامل والدقيق على صعيد الحزب. فهيأنا الأطر الحزبية، وربطنا الاتصال مع كثير من المخلصين الذي آنسنا فيهم روح الإخلاص والتضحية والاستعداد للعمل دون أن نطلعهم على الفكرة التي تدور حولها تحركاتنا ونمهد لإبرازها. وشرعنا في استقطاب كل العناصر ذات الوزن الاجتماعي والتأثير في الأوساط والتي توقعنا أن يمتد إليها النفوذ الاستعماري لاستغلالها، وعملنا على إقفال الطريق أمام السلطات الاستعمارية. وشمل هذا التحرك جمعيات قدماء التلاميذ في كل من فاس ومكناس والرباط وسلا، لاستمالتها إلينا ؛ فبالنسبة للرباط انتخب الأخ المرحوم المهدي بنبركة رئيساً لقدماء تلاميذ الرباط، وبالنسبة لسلا انتخب الأخ عبد الرحيم بوعبيد خليفة للرئيس، وقوينا الاتصال بالعناصر النشيطة في فاس ومكناس والتي كانت تتصدر العمل في جمعية قدماء تلاميذ مولاي إدريس. وهذه العناصر هي التي أدخلنا - بعضها - في وقت لاحق إلى (الطائفة)، وهو التنظيم السري للحزب الوطني.

وتوالت تحركاتنا في سرية تامة، فاهتممنا بتنظيم فروع الحزب في مختلف الأقاليم. وكانت اتصالاتنا ونشاطاتنا كلها تلفت نظر الفرنسيين دون أن يتمكنوا من معرفة السبب أو الوقوف على ما وراء هذه التحركات من هدف هو المطالبة بالاستقلال.

○ لنبق في إطار الإعداد المكثف لحدث 11 يناير 1944... وهنا يرد سؤال حول استطلاع الحزب لرأي الأطراف الدولية ضماناً لتأييدها المسبق أو على الأقل لحيادها.

● قام الأخوان بلافريج واليزيدي باستطلاعات هامة. أجريا اتصالات مع ممثلي دول الحلفاء، وكان الردّ الذي تلقياه دائماً هو أن أيّ عمل يمس المجهود الحربي لن يقبل وسيرفضونه.

وكان معنى ذلك أن الحلفاء لن يرضوا عن المطالبة بالاستقلال. وكان هذا كافياً لصرف النظر عن هؤلاء، والاعتماد بعد الله على الشعب أولاً وقبل كل شيء.

○ لكن كيف تمت الموافقة على الخطوط العريضة للفكرة.. ما هي طبيعة النقاشات والمداولات التي سبقت إقرار المشروع واعتماد فكرة الوثيقة المتضمنة المطالبة بالاستقلال.

● في هذه الفترة، وبعد أن وجدنا أنفسنا متجاوبين مع محمد الخامس يرحمه الله، وزادت اتصالاتنا بجلالته، توالت اجتماعاتنا، سواء في منزل الأخ محمد اليزيدي أو في منزل المرحوم محمد غازي بديور الجامع، أو بمنزل الأخ بلافريج شافاه الله بحي الليمون. كنا نناقش تفاصيل المشروع، ونقلب النظر في العواقب التي قد تترتب عليه. ثم شرعنا في دراسة المشروع الأول الذي كتبه الحاج عمر بمشاركة بلافريج، والذي أعيد فيه النظر بالإضافة والتعديل، بعد عرضه على الإخوان وعلى جلالة الملك الذي كان دائماً يعطي أفكاراً نيّرة وتوجيهات سديدة، ويشير إلى جوانب دقيقة مما كان ينبئ عن فطنة سياسية ووعي وطني وحكمة اكتسبها من تجاربه مع سلطات الحماية.

لقد كانت المناقشات تتركز حول الصياغة والتقديم والتأخير، ولم تكن تتناول العمق والمبدأ الأساس الذي قامت عليه الوثيقة، وهو المطالبة بالاستقلال علانية. وذلك بعد أن خرجنا من الاختيار الدقيق الذي وجدنا أنفسنا فيه باديء الأمر. كانت هناك فكرتان تطرحان في المناقشات الأولية :

أولاً : هل نصرّح بفكرة الاستقلال ونطالب بها بطريقة صريحة وعلانية.
ثانياً : أم نكتفي بالتلويح بالاستقلال وندور حول الفكرة دون الإعلان عنها.

وكان الرأي الغالب الذي خضع له الجميع عن اقتناع كامل، هو التصريح دون التلويح. وكان محمد الخامس مع هذا الرأي الصريح الواضح.

○ لنبق قليلاً عند المشروع.. وهو المشروع الذي استقر حوله الإجماع داخل الجماعة.. أي داخل الحزب الوطني.. ونال رضا جلالة الملك.. بعد أن أثري بإضافات جلالته وتعديلاته واقتراحاته مرحلة بعد مرحلة.. هناك فكرة الديمقراطية والشورى.. وهذا أمر جدير بالتأمل بالنظر إلى الظروف المحيطة بكم على المستويين الوطني والدولي.. لنتحدث إذا شئتم حول أهم فكرة في الوثيقة بعد المطالبة بالاستقلال.

● المشروع الذي اتفقنا عليه وعلى أساسه تمت صياغة الوثيقة، يتضمن مباديء أساساً هامة : 1- الاستقلال، المطالبة بالاستقلال وليس مجرد التلويح به كأمنية وطموح غير محدّد المعالم، 2- وحدة البلاد، أي ضمان الحدود الطبيعية للمملكة المغربية، بمعنى إلغاء كل الاتفاقات والمعاهدات وليس فقط معاهدة فاس (31-3-1912) ليعود المغرب المستقل إلى حدوده المعترف بها دولياً (مؤتمر الجزيرة سنة 1906 مثلاً)، 3- الحريات الديمقراطية، 4- خلق نظام حكم شورى. وإن كان المبدآن الثالث والرابع مترابطين. أي أننا لم نكن نطالب بالاستقلال دون وعي بطبيعة المغرب المستقل، وبطبيعة الدولة المغربية التي نعمل لإقامة نظام حكم بها يستجيب لتطلعاتنا.. لقد كنا واعين تماماً. وكان جلالة السلطان متفقاً معنا اتفاقاً كاملاً على هذه المبادئ : الاستقلال والوحدة الترابية والحكم الديمقراطي الشوري، أي الحكم النابع من ذاتيتنا ومن خصوصياتنا، وهذه مسألة هامة جداً تؤشر إلى مستوى النضج التي بلغته الحركة الوطنية التي قادها الحزب الوطني. أضف إلى هذا كله، أننا ربطنا أنفسنا بالأشقاء في البلاد العربية والإسلامية. وهذا أيضاً أمر على قدر كبير من الأهمية.

لقد تضمنت الوثيقة باختصار قضيتين اثنتين : المطالبة بالاستقلال في إطار حق الشعوب في تقرير المصير، وتنظيم البلاد في إطار ملكية دستورية اجتماعية ديمقراطية. وهذا ما يؤكد أن الحزب كان واعياً الوعي كلّه، وأن قادته بالتنسيق التام مع ملك البلاد، كانوا يخططون - انطلاقاً من هذا الوعي - للمغرب المستقل الحر الديموقراطي منذ سنة 1944.

○ **لماذا لم يوقع على الوثيقة سوى 66 شخصاً ؟**

● أولاً لابد من أن أشير هنا إلى أننا اعتمدنا السرية التامة والكتمان الكامل في عملنا الوطني هذا. فقد تقرر أن لا تعرض الوثيقة للتوقيع عليها إلا على من نثق فيهم ثقة كاملة ومطلقة، لأن المسألة محفوفة بالخطر، ولأننا كنا نستعين بالكتمان على نجاح خطتنا. وهي خطة حاسمة وفاصلة وغير مسبوقة، وليست مجرد الإعراب عن التمنيات أو كتابة مقالات، بل هي موقف سياسي مسؤول تترتب عليه - قطعاً - التزامات وتضحيات ومسؤوليات.

من أجل هذا عرضنا الوثيقة على أعضاء الطائفة أولاً في فاس والرباط وسلا ومراكش والدار البيضاء وآسفي. ثم على الشخصيات الوطنية التي نثق فيها.

وأذكر بالمناسبة أنه في أحد اجتماعاتنا بمنزل الأخ بلافريج في الفترة السابقة على تقديم الوثيقة، قال بلافريج لا يمكن أن نقدم على عمل كهذا دون إشعار الأخ المجاهد محمد بن الحسن الوزاني الذي كان يومئذ مبعداً في إيتزر.

وأذكر أيضاً أن هذا الموقف الوطني هو الذي جعل جماعتنا تطلب من الأخ محمد الغزاوي أن يلحق المهندس المرحوم الحسن ابن شقرون مساعداً للسائق بإحدى الحافلات التي يملكها والتي تنقل المسافرين إلى إيتزر التي كان منفياً فيها الزعيم الوزاني، حتى يتمكن من الوصول إلى الوزاني لهذا الغرض. وكانت الغاية من هذا الاتصال، إشراك العناصر الوطنية في البلاد في هذا العمل الكبير. وطرحت يومئذ فكرتان : 1- هل نتصل بالوزاني عن طريق

أصحابه في الحركة القومية. 2- أم نتصل به عن طريقنا نحن ؟. وقمنا بالاتصال بالطريقين معاً، فوقع الاتصال بالإخوان القوميين الموجودين، وفي طليعتهم المرحوم الأستاذ عبد الهادي الشرايبي. وتحايل المرحوم الحسن بن شقرون حتى بلغ الخبر للأستاذ المرحوم محمد بن الحسن الوزاني، وذلك حرصاً على وحدة الصف الوطني في هذه المرحلة الحاسمة لتكون الانطلاقة كاملة.

وعلى كل حال، فإن إخواننا في الحركة القومية حتى وإن لم يوقعوا على عريضة المطالبة بالاستقلال في انتظار أخذ رأي القيادة والقاعدة، فقد قدموا عريضة 13 يناير التي ضمت صوت الحركة القومية إلى حزب الاستقلال، وأسكتت صوت الذين كانوا يقولون إنها لا تتضامن مع فكرة الاستقلال.

○ يلاحظ أن المشروع قدم ودرس ونوقش في الرباط، على حين أن الوثيقة كتبت بفاس التي منها انطلقت حملة التوقيعات... لماذا !؟.

● بعد تحرير الوثيقة أو العريضة، انتقلت إلى فاس، لأن الأغلبية كانت بها. وكتبت في منزل الأخ الحاج أحمد مكوار بالبطحاء، والذي كتبها هو المرحوم سيدي عبد الوهاب الفاسي الذي كان مشهوراً بخطه الجميل، وهو من الجماعة الوطنية الأولى. والقلم الذي كتبت به لا يزال محفوظاً لدى أبناء الحاج أحمد مكوار.

من فاس انتقلت الوثيقة إلى الرباط، ومنها إلى سلا فمراكش فالدار البيضاء لتعود إلى الرباط. بالنسبة إلى سلا، أذكر أني تسلمت الوثيقة من يد الأخ محمد اليزيدي مباشرة في بيته بالرباط، وأعدتها إليه في اليوم التالي يداً بيد.

ولابد أن أذكر هنا أنه كان لزاماً علينا الكشف عن أفراد الطائفة لأول مرة. فبالنسبة لهؤلاء الذين كانوا مطلعين على تفاصيل الخطة، عرضت عليهم الوثيقة مباشرة فوقعوا الواحد تلو الآخر.

أما بالنسبة للشخصيات الوطنية الأخرى، فقد كان كل أخ مسؤول يتحمل تبعة الاتصال بمن يثق فيه ويراه مستعداً للتضحية وتحمّل المسؤولية. من هذه الشخصيات مثلاً الفقيه الجزولي والحاج محمد الرفاعي.

○ **كيف تم تحديد يوم 11 يناير موعداً لتقديم الوثيقة ؟.**

● تحديد هذا اليوم تم بالاتفاق الكامل مع محمد الخامس يرحمه الله، هو الذي اختار هذا اليوم الذي يصادف يوم الثلاثاء الذي كان يزوره فيه المستشار المخزني الموظف الفرنسي المكلف بالربط بين الملك وبين الإقامة العامة.

وأيضاً اختار محمد الخامس الساعة التاسعة صباحاً موعداً لاستقبال وفد الحزب الذي يقدم إليه الوثيقة، حتى يكون هذا الموعد سابقاً لقدوم المستشار.

○ **الوثيقة قدمت إلى جلالة الملك والإقامة العامة وقنصليات دول الحلفاء يوم 11 يناير، على حين تأخر رد الفعل القمعي إلى 29 يناير.. لماذا ؟.**

● في يوم 13 استدعى الملك محمد الخامس حكومة المخزن وكبار القواد والعلماء، وعرض عليهم الوثيقة طالباً منهم الرأي، فكان ردّ الجميع (إن الرأي هو ما رأى سيدنا).

بعد ذلك تشكلت لجنة للمفاوضات مع اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال في موضوع الوثيقة، لتوضيح أفكار الحزب والعثور على طريق لتحقيق المطلب. وكان هذا حسبما يظهر، بإيعاز من المقيم العام. وتكونت اللجنة من الفقيه العلامة سيدي محمد بلعربي العلوي وزير العدل، والحاج أحمد بركاش مندوب المعارف، والفقيه المعمري رئيس التشريفات الملكية، بينما مثل الحزب في المفاوضات محمد اليزيدي والحاج عمر بن عبد الجليل. وقد عقدت اللجنة اجتماعين، أولهما يوم 15 والثاني يوم 18، وذلك بمنزل الحاج عبد الرحمان بركاش باشا الرباط.

في هذه الفترة أخذت وفود الأقاليم تتقاطر على الرباط لتأييد الوثيقة. وهذه الوفود التي كانت تملأ طرقات المغرب نظمها وأطّرها الحزب، وهي نتيجة للجهود التنظيمية التي جرت في سنة 1943. وقد تجند شباب الحزب لكتابة عرائض التأييد والتضامن مع حزب الاستقلال.

بعد المفاوضات التي لم تؤد إلى نتيجة، نظراً لأن الإدارة الفرنسية كانت ترفض الرفض المطلق المباحثة في موضوع الاستقلال، وفي خضم التحرك الشعبي العارم وتصاعد مدّ التأييد والمؤازرة والتضامن، وجّه حزب الاستقلال مذكرة يوم 1944/1/18 إلى جلالة الملك، يؤكد تشبثه بمبدأ الاستقلال وأن لا إصلاح إلاّ في ظلّ الاستقلال (لأن فيما يرجع لإصلاح البلاد الداخلي ينبغي الانتباه إلى أنه في دائرة الاستقلال أيسر منه في دائرة الحماية ولو حوت أسسها). و(أنه لا يمكن أن يقع إصلاح صحيح إلا على أساس سيادة وحدة البلاد، ولا يتصور أن تكون تلك السيادة لغير جلالة الملك).

يوم 20 زار المغرب وزير خارجية فرنسا الذي أعلن باسم اللجنة الوطنية الفرنسية للتحرير، أن لا تنازل عن مبدأ الحماية. واتخذت إثر ذلك تدابير وإجراءات لمنع وصول الوفود إلى الرباط بدعوى أن تدفق الوفود بهذه الصورة مما يضر بالمجهود الحربي، وذلك لـجرّ الحلفاء إلى صف فرنسا لمواجهة الوضع الناتج عن تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال.

وتكهربت الأجواء وبلغ التوتر مداه، إلى أن كان يوم 29 الذي ألقي فيه القبض في الساعة السابعة صباحاً على الأخوين بلافريج واليزيدي.

في الساعة 8 والنصف وصلنا الخبر، وفي الساعة الحادية عشرة بينما المظاهرات تهز شوارع الرباط والمسيرات تتجه نحو المشور للاستنجاد بجلالة الملك في إطلاق سراح الأخوين المعتقلين، جاءنا استدعاء الباشا الحاج محمد الصبيحي الذي أبلغني بإلقاء القبض على بلافريـج واليزيـدي، مشيراً إلى أن اليزيدي سيطلق سراحه حالاً في حين سيبقى بلافريج رهن الاعتقال لاتهامه بالتورط بالاتصال مع المحور. ووقع جدال ومناقشة مع الباشا الذي أكدنا له أن الاتهام

الذي وجه للأخ بلافريج لا أساس له من الصحة، وأنه مختلق وأن عملنا لا يقصد عرقلة المجهود الحربي للحلفاء، وأننا طلاب حقوق وطنية مشروعة.

ومن مقابلة الباشا توجهت إلى البيت لاستكمال الاتصالات مع اللجنة المنظمة للإضراب الذي دعونا إليه على أن يكون الانطلاق في المظاهرة من المسجد الكبير الذي اكتظ بجموع المصلين، وشرع في قراءة اللطيف بينما كان جناح النساء متلألئاً وضاء بجموع المصليات وقارئات اللطيف، حتى إذا صلينا العصر انطلقت المظاهرات في اتجاه باب الخباز (باب بوحاجة) حيث شهدت ساحتها الاصطدام العنيف مع رجال البوليس في أعنف اشتباك حصل في سلا في تاريخ الحماية بالمغرب، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة في المدينة، خرج السكان بكل طوائفهم يحتجون على أعمال القمع، وسقط فيها ضحايا خمسة شهداء فيهم امرأة توفيت بعد المظاهرة بقليل، وحكم بالاعدام على شهيد آخر هو الشاب الوطني السيد أحمد ابن عبود[1].

وبينما نحن بالمسجد قبيل العصر، جاءني أخ من الرباط يحكي تفاصيل المظاهرات العارمة التي شهدتها العاصمة وكيف أن المتظاهرين كادوا يفتكون بالفقيه المعمري الذي حاول تهدئةالوضع دون جدوى. وكانت سلطات الإقامة العامة طلبت من جلالة الملك استدعاء الأخ اليزيدي إلى القصر للتداول معه في شأن تهدئة الموقف وإقناع الجموع الثائرة بالنزول إلى المدينة بعيداً عن المشور. وقد استقبل جلالة الملك الأخ اليزيدي بالفعل، وتذكرا لفترة داخل القصر قبل أن يخرج المناضل الذي كان أول من اعتقل في محاولة لتحويل اتجاه المظاهرة نحو المدينة. ولقد سقط في المظاهرة بعض الضحايا منهم الشاب الصديق احساين، وحكم بالإعدام بعد ذلك على ثلاثة آخرين في طليعتهم الشاب المختار جازوليت. وعقدنا في المساء اجتماعاً بمنزل المرحوم الأخ الطاهر زنيبر، بينما كانت مدينة سلا مطوقة بالجيش الذي نزل بكل معداته إلى الشوارع والأزقة، وبعد استعراض الحالة، اتفقنا على استئناف الاجتماع صباح غد.

---

(1) شقيق الدكتور المهدي ابن عبود.

وبينما نحن في منزلنا ننتظر اكتمال وصول الإخوان لعقد الاجتماع، جاءنا استدعاء الباشا حوالي الساعة التاسعة صباحاً، فأبلغنا بالاعتقال، ثم ساقونا إلى المراقبة المدنية (مقر العمالة اليوم)، حيث انتظرنا إلى أن تم تجميع العناصر التي شاركت في تنظيم المظاهرة لينقلونا إلى سجن العلو في مساء ذاته لنقضي به عشرة شهور قبل أن ننتقل إلى سجن العادر بناحية الجديدة، ومنه إلى سجن الدار البيضاء، ليطلق سراحنا في غشت سنة 1945، وكانت هذه رابع مرة أدخل فيها السجن في العقدين الثالث والرابع.

أما بفاس، فلقد تأخرت المظاهرات إلي يوم 30 يناير، وتتابعت يوم 31 منه وما بعدهما طوال أسبوعين حيث سقط عدة ضحايا منهم الطالب السيد ادريس بناني، والشريف الجليل سيدي عبد العزيز بوطالب[2]، كما صدرت أحكام بالأعوام على آخرين.

وفي فاتح يبراير ذبح الجاسوس اسماعيل داخل مسجد القرويين حيث ذهب من الرباط لالتقاط الأخبار. وأما بالبيضاء فلقد اكتفى بإضراب عام عمَّ المدينة كلها تنفيذاً لقرار اتخذته اللجنة المسؤولة في الحزب.

وفي ختام هذا الحديث، لابد أن أسجل باعتزال ما قرره جلالة الحسن الثاني حفظه الله، من اعتبار يوم حادي عشر يناير من كل سنة يوم عيد وطني، باعتبار أنه اليوم الذي التحم فيه العرش والشعب لرفض الوجود الاستعماري ببلادنا وبناء مستقبل المغرب على أساس الملكية الدستورية والدفاع عن مقدسات البلاد ووحدتها وقيمها الإسلامية المثلى.

فرحم الله الشهداء والأبطال وفي طليعتهم محمد الخامس نور الله ضريحه، ووفق الله الحسن الثاني لتثبيت ركائز الاستقلال وللحفاظ على هوية المغرب العربية الإسلامية.

---

(2) والد الدكتور إبراهيم بوطالب أستاذ التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة محمد الخامس.

الرئيس ياسر عرفات والمجاهد أبو بكر القادري أو إخاء خمس وثلاثين سنة(*)

قبل نحو أربع سنوات، لفت نظري تغيير مفاجئ في مكتبة الأستاذ المجاهد أبي بكر القادري ببيته. كانت صورة كبيرة للزعيم المناضل الكبير ياسر عرفات تتصدَّر رفوف المكتبة. كانت الصورة ناطقة تعبّر عن الموقف بالقدر الذي لم يسمح لي أن أستفسر عن السبب في رفع صورة لأبي عمار بهذا الحجم في غرفة المكتبة. فقد تَصَادَفَ ذلك مع اشتداد الحصار الذي ضربته السلطات الإسرائيلية حول الزعيم والقائد الفلسطيني في مقر إقامته بمدينة رام الله. وهو الحصار الذي امتدَّ إلى حين انتقاله المفاجئ إلى باريس ليلقى ربَّه في أحد مستشفياتها. كنت أعرف أنه أخلص أصدقائه في المغرب. كان بينهما ودٌّ متبادلٌ، وتجاوبٌ وتفاهمٌ، وحوارٌ موصولٌ منذ أن التقيا في القاهرة، في عام 1969، وإلى أن اختاره الله إلى جواره.

كانت المحبة بينهما ترقى إلى درجة عالية، وتقوم على أساس الاحترام المتبادل، لا بالمعنى السياسي، أو بالاصطلاح القانوني في أدبيات القانون الدولي، وإنما بالمعنى الأخوي العميق. كان هذا (الاحترام المتبادل) هو السر في التقدير العميق الذي يكنّه ياسر عرفات لأبي بكر القادري، ولمواقف الشعب المغربي التي كان يُعبِّر عنهما بلسانين : لسان الدولة المغربية ملكاً وحكومة، ولسان الجمعية المغربية لمساندة كفاح الشعب الفلسطيني. ولم يكن اللسانان يختلفان في شيء. بل كانا يتكاملان. وكان هذا من المميزات التي ينفرد بها المغرب في وقوفه إلى جانب القيادة الفلسطينية في كل الظروف.

(*) نشر في جريدة «العلم» في عددي 23 و24 نوفمبر 2004.

لما رأيت صورة ياسر عرفات تتصدَّر مكتبة المجاهد أبي بكر القادري، استحضرت واقعة عشتها في رمضان من عام 1968. كان الزعيم علال الفاسي يحاضر في تلك الأمسية، بمدرج الشريف الإدريسي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط. وكان الموضوع فلسطينياً ساخناً. وما أن شرع في الحديث، حتى انقلب المدرج إلى ساحة معركة، وكان البادئ بالهجوم هم بعض الطلبة اليساريين المراهقين من أتباع الزعيمين الفلسطينيين حواتمة وحبش، وكانوا قلة، ولكنهم أخذوا في كسر المقاعد واستخراج الهراوات التي كانوا قد حملوها معهم مسبقاً، واستعمالها في الضرب، حينما استمعوا إلى الزعيم علال الفاسي يشيد بالقائد أبي عمار وبحركة فتح. وللمرة الأولى أذكر أني تلقيت ضربة بكرسي على رأسي، بينما كان لساني يهتف لأبي عمار ولفتح.

كان الزعيم علال مع أبي عمار، ومع فتح، وكنا نحن شباب حزب الاستقلال آنذاك، فتحويين نحمل في قلوبنا محبة خالصة لأبي عمار.

ولذلك لم أشأ أن أسأل أستاذي المجاهد أبا بكر القادري عن السبب الذي جعله فجأة يضع هذه الصورة الكبيرة لياسر عرفات في صدر قاعة المكتبة. كان قلبه يقطر دماً لما كان يعيشه الزعيم ياسر عرفات من ظروف صعبة وسط الحصار.

ولا تزال الصورة في موضعها من المكتبة، ولا يزال مجَسَّمُ المسجد الأقصى الفضيّ في موضعه من الصالون الكبير في هذا البيت الذي شهد زيارات عديدة للزعيم الفلسطيني، ولإخوانه القادة الفلسطينيين، الذين كانوا يرون في المجاهد أبي بكر القادري رفيقاً لهم في الكفاح يلجأون إليه عند الأزمات.

○ سألت المجاهد أبا بكر القادري عن أقرب الذكريات إلى قلبه عن لقاءاته بالقائد الفلسطيني ياسر عرفات يرحمه الله، فأجاب :

● كنت راقداً في إحدى غرف مستشفى محمد الخامس العسكري القديم بالرباط، وحولي بعض أبنائي، حينما فتحت الباب، وأطلّ منها وجه ياسر عرفات الصبوح، كانت مفاجأة لي أن يعودني الزعيم الفلسطيني في تلك الفترة، فلقد جاء من القصر الملكي إلى المستشفى مباشرة، بعد أن علم بوجودي تحت العلاج من عارض صحي أَلْزَمَني دخول المستشفى. توجه الزعيم الكبير إليّ مباشرة، ثم انحنى عليّ في مودة ومعزة، وقبلني في رأسي، وسألني عن أحوالي الصحية، ثم جلس إلى جانبي وأطال الجلوس، وقدمت له من كان معي من أبنائي وبناتي، وتبادلنا أطراف الحديث الودي، ودعا الله أن يعجّل بشفائي، ودعوت معه ومع إخوانه أن يفرج الله كربتهم، ويعجل سبحانه بتحرير الوطن الفلسطيني وإقامة الدولة الفلسطينية بعاصمتها القدس الشريف. لقد كانت هذه الزيارة التي تخللها هذا اللقاء الحميم، لفتة كريمة من الأخ القائد المناضل ياسر عرفات، خلفت في نفسي أقوى الأثر، وكذلك في نفوس أفراد أسرتي الصغيرة.

○ أذكر أن الرسالة التي بعثها إليكم الرئيس ياسر عرفات يعزيكم فيها في السيدة حرمكم، كانت شديدة التأثير في نفسكم.

● تأثرت جداً بهذه الرسالة التي كتبها إليّ بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاة عقيلتي تغمدها الله بواسع رحمته. لقد كانت مواساة عرفات لي عميقة التأثير في نفسي. ومما أذكره مما ورد في هذه الرسالة الأخوية التي حملها إلي الأخ المناضل أبو مروان، سفير دولة فلسطين في المغرب، العبارات التالية : (..وإذا كانت ظروف الجهاد من أجل تحرير القدس الشريف التي شكلت قضية تحريرها عنصراً أساساً من عناصر جهادكم على رأس الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني، وفي المحافل الدولية، وفي حزبكم العتيد حزب الاستقلال، وإذا كانت هذه الظروف قد حالت بيننا وبين الحضور إلى جانبكم يوم انتقالها إلى مثواها الأخير، فإننا ننتدب اليوم سفيرنا الأخ أبو مروان للحضور معكم في

الذكرى الأربعين للترحم على روحها الطاهرة). لقد كانت هذه الرسالة تعبيراً عن روح الأخوة التي جمعتني مع القائد ياسر عرفات في جميع الأحوال، كما كانت له مواقف أخوية مؤثرة رسخت الثقة فيما بيننا، وجعلت تعاوننا من أجل القضية الفلسطينية، يمضي في الطريق المرسومة له.

○ ماذا قال لكم الرئيس عرفات خلال زيارته لكم في المستشفى ؟. أعرف أن لكل مقام مقالاً، وأن الزيارة كانت ودية للغاية، وتحية رقيقة من مناضل إلى أخيه، ولكن السؤال وارد على كل حال.

● بطبيعة الحال، كانت الزيارة ودية، والناس عادة لما يعودون أصدقاءهم أو أقرباءهم أو إخوانهم، يتجنبون الحديث في غير الموضوعات التي تفرضها الحالة الخاصة للمريض. ولكني أستطيع أن أقول إن صورة الرئيس ياسر عرفات تعبر عن دخائل نفسه، وقد رأيته في ذلك اللقاء حزيناً مهموماً بقضية شعبه.

○ قابلتم الرئيس ياسر عرفات مرات عديدة، ما هي المقابلة التي جرت في ظروف دقيقة، وكانت فريدة من نوعها ؟

● في عام 1982، وأثناء الغزو الإسرائيلي للبنان، وخلال الحصار الذي ضربته سلطات الاحتلال الإسرائيلي حول بيروت لخنق الثورة الفلسطينية واعتقال قيادتها وتصفية الوجود الفلسطيني في لبنان، قمت بزيارة إلى بيروت قادماً إليها من دمشق عبر طرق جبلية محفوفة بالمخاطر، إذ لم يكن في الإمكان، وبطبيعة الحال، أن أسلك الطريق العادية من دمشق إلى بيروت، والتي تجتازها السيارة في ساعة واحدة في الظروف العادية. كان القصد هو لقاء القائد ياسر عرفات المحاصر مع جنوده وإخوانه المقاتلين، في منطقة ما من بيروت. كنت أزور العاصمة السورية لحضور أحد الاجتماعات أو المؤتمرات، وكان عليّ أن أفكر جدياً في اغتنام فرصة وجودي قريباً من ياسر عرفات، لأطلب من بعض إخواني الفلسطينيين، أن يبحثوا لي عن وسيلة لزيارة القائد أبي عمار. استغرقت

الرحلة الخطيرة عدة ساعات، إذ كان علينا أن نستقل سيارة عسكرية، وأن نتعرض للخطر، وأن نتعمد تضليل العيون التي ترصد الحركات والسكنات، وأن نبذل أقصى الجهد في التخفي والبعد عن الأنظار. وفجأة وجدتني أدخل على القائد الفلسطيني الزعيم أبي عمار في مخبئه السري حيث كان يتخذ منه مقراً للقيادة السرية. استقبلني كالعهد به دائماً بحرارة، ورحب بي، وحيّاني تحية الأخ لأخيه، وتناول الحديث الذي جرى بيننا، الأوضاع الخطيرة التي كانت تعيشها الثورة الفلسطينية، وشرح لي الحالة العامة في بيروت بصورة خاصة، وفي لبنان بصورة عامة. وأذكر أني أعربت له خلال تلك المقابلة الفريدة من نوعها، عن تضامن المغرب ملكاً وشعباً مع الثورة الفلسطينية، وأكدت وقوفنا إلى جانبه. وكان عميق الإيمان قويّ اليقين في انفراج قريب، شديد الثقة في نصر الله له، عظيم الأمل في الخروج من الأزمة بإرادة أقوى وتصميم أشد لمواصلة الكفاح حتى النصر.

لقد عجبت من أبي عمار آنذاك، كيف أنه كان يحدثني في الوقت الذي يتلقى المكالمات التليفونية، ويرد على من يخاطبه، ويصدر التعليمات للقادة الميدانيين، ويحيي من يزوره ممن هم موضعُ ثقتِه المطلقة، من دون أن يُثنيه هذا الواجب عن ذاك، أو يجد صعوبة في الجمع بين هذه المهمات في وقت واحد. كان قائداً حربياً محنكاً، وسياسياً بصيراً، وزعيماً لشعبه لا يجارى في زعامته. في ذلك اللقاء الذي أكبرتُ فيه ياسر عرفات، أو بالأصح ازددت إكباراً له، رأيت رمز الثورة الفلسطينية يسطع نوراً، وزاد يقيني أن ثورة شعب يقودها قائد فذ من هذا الطراز الفريد والمعدن النفيس، لابد أن تخرج منتصرة من الأزمات، ولابد أن تقود الشعب إلى النصر بمشيئة الله تعالى. كان يرحمه الله يردد خلال هذه المقابلة، وفي التصريحات الصحافية التي كان يدلي بها في تلك المرحلة، قوله تعالى: ﴿.. **إنهم يرونه بعيداً، ونراه قريباً**﴾، وأذكر أنه قال لي يومئذ: «إني أرى ضوء الفجر في أقصى النفق». وكان الزعيم الكبير صادقاً مع نفسه، إذ لم تكد

تمر فترة قصيرة على هذا اللقاء في بيروت، حتى تيسرت الظروف للخروج إلى تونس، لتستأنف الثورة الفلسطينية من هناك، مرحلة جديدة من النضال.

○ متى كان اللقاء الأول بياسر عرفات ؟. أعرف أن هذا السؤال طرح عليكم كثيراً، ولكنني أطمع في تفاصيل جديدة لا يعرفها إلا الخاصة، تضع القارئ أمام صورة علاقتكم بزعيم الثورة الفلسطينية.

● كان لقائي الأول بالقائد ياسر عرفات في شهر فبراير من عام 1969، بمقر جامعة الدول العربية في القاهرة. كانت المناسبة انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني أيام 3 و4 و5 من فبراير، وهي الدورة التي انتخب فيها ياسر عرفات رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية، خلافاً للسيد أحمد الشقيري. قابلت عرفات في اليوم الأول من أيام انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني، تقدمت للسلام عليه، فإذا به يُفْرد ذراعيه، ويحتضنني معانقاً إياي بحرارة، ومرحباً بي بحفاوة، وسألني عن الزعيم علال الفاسي. وقد لاحظت أثناء المؤتمر، أن عرفات زعيم سياسي مقتدر، يملك مؤهلات الزعامة، وله قدرة فائقة على التأثير على من حواليه. كانت المنطقة العربية في تلك المرحلة، تمر بأجواء ملبدة بالسحب، وكان ما يعرف اصطلاحاً بحرب الاِستنزاف على طول مدن قناة السويس في مصر، يذكر الناس يومياً بهزيمة حرب السادس من يونيو عام 1967. وكان الرئيس المصري جمال عبد الناصر، يلملم الجراح، ويسعى لإعادة بناء الجيش المصري. ولا تزال صورة ياسر عرفات وهو يخطب في الجلسة الختامية للمجلس الوطني الفلسطيني، في القاهرة آنذاك، ماثلة أمام عيني، على الرغم من أنني رأيته يخطب في مؤتمرات كثيرة، ومنها مؤتمرات القمة العربية والإسلامية. لقد خرج أبو عمار من هذا المؤتمر، زعيماً للثورة الفلسطينية، حيث دخل بها طوراً جديداً من النضال الوطني الذي يتخذ من وحدة الصف قاعدة متينة ينطلق منها. وعاش عرفات رمزاً لهذه الوحدة، وكان دائماً حريصاً عليها الحرص كله.

○ **أين كانت تتم لقاءاتكم بالرئيس ياسر عرفات في المغرب؟ وهل كان يزوركم ويلتقي بكم كلما زار المغرب والتقى بجلالة الملك ؟.**

● بعض لقاءاتي بالرئيس ياسر عرفات كانت تتم هنا في بيتي حيث كان يزورني مع الأخ المناضل السفير أبو مروان، وفي بعض الأحايين، كان يرافقه بعض إخوانه من القادة الفلسطينين. وفي بعض المرات، كنا نلتقي إما في بيت الأستاذ المستشار أحمد بن سودة، عجّل الله بشفائه، أو في قصر الأمير مولاى رشيد بشاطئ تمارة. أو في فندق هيلتون بالرباط. وكانت لقاءاتنا في كل من بيت الأستاذ ابن سودة، أو قصر الأمير مولاي رشيد، تتم بطبيعة الحال، بمعرفة صاحب الجلالة. في هذه الحالات كنا نجتمع لمناقشة نقط محددة، ولبحث موضوعات تستأثر باهتماماته أولاً، حيث كان يوضح معالم الطريق، ويشرح الأوضاع. وكانت هذه اللقاءات تضم في بعض المرات، أعضاء مكتب الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني. وأذكر أيضاً أننا التقينا مرة أو مرتين في بيت الناضل خالد الحسن، يرحمه الله، في الرباط عندما كان طريح الفراش. وكان ياسر عرفات يستقر أحياناً أثناء زياراته للمغرب، في بيت الأستاذ أحمد بن سودة، لأسباب كثيرة، في مقدماتها الدواعي الأمنية.

○ **ماذا كان يدور في هذه اللقاءات التي أعرف أنها كثيرة ؟.**

● الملاحظة العامة التي أريد أن أسجلها، هي أن الزعيم عرفات كان قليل الكلام في هذه اللقاءات، كان يستمع جيداً، ويُشعر المتحدثَ إليه بأنه يفهم عنه ويتجاوب معه، ولكنه عند الكلام يكتفي بجملة أو جمل قصيرة يعبر فيها عن الرأي والموقف، ثم يتوجه إلى محدثه ليواصل حديثه معه، بينما الابتسامة لا ترافق محياه. كانت ابتساماته مؤثرة، وأكاد أقول كانت آسرة، وتبعث في النفس الإحساس بالراحة والاطمئنان، وفي جميع الأحوال، كنا نتناول في أحاديثنا قضايا الساعة. وكان دائماً، وفي كل لقاء، سواء هنا في المغرب، أو خارج المغرب، يحرص على شكر الشعب المغربي، وشكر جلالة الملك، وشكر أعضاء الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني.

○ على ذكر الجمعية، كيف كان الرئيس ياسر عرفات ينظر إلى مواقفها وبياناتها والدعم الذي تقدمه للشعب الفلسطيني ؟.

● كانت العلاقة بين الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني وبين الرئيس ياسر عرفات، وطيدة وقوية وحميمة، لأنه كان يثق في الجمعية، وله اليقين في إخلاصها والتزامها بالمبادئ، ويطمئن اطمئناناً كاملاً إلى الخط الوطني الذي تسير فيه. وكان يشيد دائماً، وفي كل المناسبات، بالموقف المبدئي الذي التزمته الجمعية، وهو عدم التدخل في الشؤون الداخلية لمنظمة التحرير الفلسطينية، والبعد تماماً عن الخلافات الفلسطينيَة - الفلسطينية. وكان يعدّ الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني مثالاً للجمعيات والمؤسسات الأهلية في العالم العربي الإسلامي، التي تدعم وتساند الشعب الفلسطيني. ولهذا كان يطمئن إلينا، ويثق فينا، ويسعد دائماً - كما كان يعبر - بالالتقاء بنا، في معظم الحالات التي كان يزور فيها المغرب.

○ تأسست الجبهة العربية المشاركة للثورة الفلسطينية في بيروت في عام 1972، وكنتم من المؤسسين لهذه الجبهة، وانتخبتم نائباً لرئيسها السيد كمال جنبلاط يرحمه الله، وكانت لكم، بطبيعة الحال، لقاءات متكررة مع الرئيس ياسر عرفات في إطار هذه الجبهة، ماذا عن هذه اللقاءات التي كانت تتم بينكما في بيروت ؟.

● أود أن أقول أولاً، إن انتخابي نائباً لرئيس الجبهة العربية المشاركة للثورة الفلسطينية، كان باقتراح ودفع من الرئيس ياسر عرفات، وبتأييد من الإخوان أعضاء الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني، تقديراً منه للجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني، وثقة في الدور الذي على المغرب أن يضطلع به على هذا الصعيد.

كانت الأجواء التي تأسست فيها الجبهة متوترة جداً، في تلك الفترة العصيبة التي سبقت حرب أكتوبر/رمضان المجيدة، وكانت المناقشات تبلغ مداها من التطرف خلال الجلسات التي كنا نعقدها في بيروت. وكان زعيم الحزب التقدمي الاشتراكي اللبناني السيد كمال جنبلاط، يرأس اجتماعاتنا، ولكن ياسر عرفات كان دائماً يُريد أن يبقى التوجّه فلسطينياً، وأن لا تصبح الجبهة تدور في فلك هذا الحزب أو ذاك. ولذلك شاء أن تتعدّد وجهات النظر والرؤى داخل الجبهة، تجنّباً لأي استقطاب. وأذكر أن الكاتب الصحافي المصري لطفي الخولي، كان أحد فرسان المناقشات في هذه الجبهة، وكان يدافع عن وجهة النظر المصرية إزاء القضايا المطروحة، وكان الجميع تقريباً، يعارض مواقف مصر في ذلك العهد، سواء قبل اندلاع حرب أكتوبر في عام 1973، أو بعد وقف إطلاق النار. وكنا نسعى، وبالتنسيق مع منظمة التحرير الفلسطينية، ومع المتحدث باسمها في الاجتماع المرحوم الشهيد أبي يوسف النجار، إلى الابتعاد قدر الإمكان، عن المهاترات، والتركيز على المسائل العملية، وعدم التشويش على القرار الفلسطيني أو معارضته، لأننا كنا ولا نزال في الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني، نؤمن بأن الفلسطينيين هم أصحاب الشأن، وهم أدرى بالظروف التي تمر فيها القضية الفلسطينية. وأذكر أن أبا عمار كان يُفحم الجميع، ويردّ على أي تدخل في الشؤون الداخلية للثورة الفلسطينية، ويقنع المخالفين والمعارضين بالانصياع للقرار الفلسطيني. وهو الموقف نفسه الذي كان يتخذه عرفات في اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني.

لقد ازددت قرباً من ياسر عرفات خلال الاجتماعات التي كنا نعقدها في إطار الجبهة العربية المشاركة للثورة الفلسطينية، وشعرت أنه ازداد فهماً وإدراكاً لطبيعة الموقف المغربي الوطني إزاء المساندة غير المشروطة للثورة الفلسطينية. ولمن يريد المزيد من الاطلاع على تفاصيل الموقف المغربي هذا الداعم والمساند، فليرجع إلى كتابي (**المغرب والقضية الفلسطينية**)[1] الذي أصدرته في عام 1989.

() صدر عن مطبعة النجاح الجديدة في الدار البيضاء.

○ أعلم أن لكم مواقف مشرفة في العمل على جمع الصفّ الفلسطيني والحيلولة دون انفجار الخلافات بين القادة الفلسطينيين، حرصاً على المصلحة العليا للقضية الفلسطينية، وكان أبو عمار يتابع جهودكم في هذا المضمار، ويُكْبِرُها فيكم ويقدرها لكم. فماذا عن هذه المواقف ؟.

● كنت دائماً حريصاً على وحدة صفّ الثورة الفلسطينية، ولقد بذلت جهوداً كثيرة للحفاظ على هذه الوحدة، وللدفع بوجهات النظر والتحليلات والأفكار نحو التمسك بالثوابت الفلسطينية، وعدم الخروج عنها، حتى لا تضيع المصالح العليا للشعب الفلسطيني. وفي هذا الإطار كنت أجري حوارات مع القادة الفلسطينيين، وأستمع إلى آرائهم، وأستوعب خلافاتهم الظرفية، وكان الرئيس ياسر عرفات يتابع بعض هذه الحوارات، من خلال ما كان يصله من أخبار عنها، بواسطة إخواني في السفارة الفلسطينية الذين كنت ولا زلت أتصل بهم باستمرار.

وهنا في بيتي استقبلت مراراً قادة فلسطينيين لهم السبق في الكفاح والجهاد، وأخصّ بالذكر منهم الأخ المناضل محمود عباس أبا مازن، والأخ المناضل خالد الحسن أبا الحسن يرحمه الله، والأخ المناضل هاني الحسن، والأخ المناضل الدكتور أحمد صدقي الدجاني زميلي في أكاديمية المملكة المغربية، يرحمه الله. وأذكر أن الأخ خالد الحسن يرحمه الله، كان غاضباً أثناء أزمة بيروت في عام 1982، وخلال احتلال العراق في عهد الديكتاتور الطاغية صدام لدولة الكويت في عام 1990، وكان الخلاف في الرأي والاجتهاد بينه وبين الرئيس ياسر عرفات معقداً جداً، وكنت أحاول قدر الاستطاعة، أن أذلل الصعاب وأزيل العقبات، وأفتح المجال أمام تقريب وجهات النظر. وكنت أؤكد دائماً في مناقشاتي مع الأخ خالد الحسن، على ضرورة حصر الخلاف في نقط محدودة والحرص على عدم إظهاره. وأشهد أني كنت أجد لدى الأخ خالد الحسن تجاوباً وتفهماً، وقد كان رحمه الله، من أرقى المفكرين الفلسطينيين.

كذلك كان شأني مع الأخ هاني الحسن الذي كان يقدر مساعيَ ويتجاوب معي أيضاً. وأذكر أن الأخ الدكتور أحمد صدقي الدجاني يرحمه الله، الذي كان أقرب إلى فتح منه إلى أي تنظيم آخر، كان يتجاوب معي أثناء المناقشات الكثيرة التي كنت أجريها معه. وكان يختلف مع ياسر عرفات في أمور كثيرة، ولكني كنت أؤكد على إخواني في القيادة الفلسطينية، أن يستفيدوا من الدجاني، وأن يكسبوه إلى جانبهم، لأنه كفاءة فكرة عالية المستوى. وأشهد أن الدكتور الدجاني قدر لأبي عمار موقفه الوطني الصلب أثناء مفاوضات كامب ديفيد الثانية، عندما حاصره الرئيس الأمريكي كلينتون، وضغط عليه للتنازل عن القدس، ولكن الرئيس عرفات رفض في قوة وشجاعة، وتمسك بالقدس عاصمة للدولة الفلسطينية.

كان هذا الموقف من ياسر عرفات موضع تقدير كبير من الدكتور الدجاني. بل إني أستطيع أن أقول إن ياسر عرفات ارتفعت قامتُه أكثر وتعززت زعامتُه أقوى، بهذا الموقف الشجاع الذي اتخذه في كامب ديفيد الثانية. وقد عبرت عن هذا الرأي لأبي عمار في أحد لقاءاتي به، وكان سعيداً به.

○ أما وقد عرفتم الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات بهذا القدر، فما الخصال النضالية التي تجذبكم إليه وتعجبكم فيه ؟.

● قوة الشخصية والصمود والعفة والنزاهة التي لا تشوبها شائبة، والحرص على الوحدة النضالية، وخُلُق التضحية بكل شيء من أجل القضية الوطنية الفلسطينية، والشجاعة والاستمرارية. فلقد كان جبلاً لا تهزّه الريح، وكان طوداً شامخاً، تعرّض لمحن وأزمات واختبارات شديدة، ولكنه صمد وثبت، وكان مثالاً رفيعاً للصمود والثبات.

○ قبل أن تلتقوا بياسر عرفات، ماذا كنتم تعرفون عنه ؟.

● بعد انطلاق الرصاصة الأولى للثورة الفلسطينية في فاتح يناير من عام 1965، اجتمع المجلس الوطني لحزب الاستقلال، واقترح الزعيم علال الفاسي يرحمه الله، تأييد الثورة الفلسطينية ومباركة هذه الحركة الجديدة التي ستغير الوضع في المنطقة العربية. وقد كانت أول برقية تأييد ومساندة تصل حركة فتح بقيادة ياسر عرفات، هي تلك التي وصلتها من حزب الاستقلال. وظل الرئيس عرفات يذكر هذه المبادرة لحزب الاستقلال، ويشيد بها في كل مناسبة.

وكانت جريدة **(العلم)** أول جريدة عربية تنشر بلاغات فتح. وكانت **(العلم)** تتلقى هذه البلاغات بواسطة التليفون من القيادة الفلسطينية[2]، إذ لم تكن ثمة وسيلة أخرى. في تلك الفترة عرفت ياسر عرفات من بعيد، وتابعت أخباره، وقرأت الاستطلاعات الصحافية التي كانت تنشر عن العمليات العسكرية التي كانت تقوم بها فتح، فلما كان اللقاء الأول الذي جمعنا في القاهرة في عام 1969، كنت أعرف الشيء الكثير عن أبي عمار يرحمه الله، وفي كلمة التأبين التي ألقاها الأخ هاني الحسن في الذكرى الأربعينية للزعيم علال الفاسي، قال إن ياسر عرفات كان ينادي علال الفاسي بالوالد، وأن كلمة السر لانطلاق الثورة المسلحة الفلسطينية، كانت (الوالد). رحم الله علالاً وأبا عمار، وأسكنهما الجنة مع النبيئين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولائك رفيقاً.

(2) كنت خلال السنوات 68 و70 و71 و1972 أثناء عملي في جريدة «العلم»، أكلف بتلقي بلاغات المقاومة الفلسطينية بالهاتف من مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في الجزائر العاصمة. ففي ساعة محددة من مساء كل يوم، أتلقى هاتفاً من الجزائر ليملي عليَّ المتحدث أخبار المقاومة لنشرها في اليوم التالي في «العلم» التي كانت أول جريدة عربية تغطي أحداث المقاومة الفلسطينية تباعاً.

عن ركائز التضامن الإسلامي وأهدافه(*)

نعرف أنه ليس تقليدًا صحافيًا أن تجري جريدة حديثًا مع مديرها. ولكن عذرنا، والأمر الذي شجعني شخصيًا على الإقدام على هذه التجربة، أن الأستاذ أبا بكر القادري ليس مديرًا لهذه الجريدة فحسب، إنه من أساتذة الجيل، ومن رواد العمل الوطني العام في مجالاته المتعددة، ليست الصحافة منها إلا جانبًا واحدًا.

ولما كان الأمر يتعلق بالحديث عن مؤتمر القمة الإسلامي الرابع، وما يتشعب عنه من شؤون وشجون إسلامية تفرض نفسها، لم يكن أمامي من خيار سوى أن أجلس إلى أستاذنا الكبير لأسجل معه هذا الحديث.

○ **ما هي الأسس الفكرية والعقائدية لفكرة التضامن الإسلامي؟.**

● تعود فكرة التضامن الإسلامي إلى جوهر العقيدة الإسلامية والميراث الثقافي والحضاري العربي، فقبل البعثة المحمدية، ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم بعدُ في العشرين من عمره، شهدت مكة حلفًا دخل التاريخ باسم (حلف الفضول) الذي شارك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرأي والمشورة، وكانت الغاية منه حسبما تذكره لنا كتب السيرة، هي نصرة المظلوم وردّ المعتدي وإقرار السلم، وهو بهذا الاعتبار، وكما يبدو واضحًا، حلفٌ إنسانيٌّ. ونحن نذكر للنبي عليه الصلاة والسلام قوله بهذا الخصوص : «لقد شاهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا لو دعيت به في الإسلام لأجبت».

(*) نشر الحديث في جريدة (الرسالة) في 12 يناير 1984.

وهذا يؤكد لنا بجلاء تام، أن فكرة التضامن قديمة، وأن العرب قبل الإسلام كانوا يدينون بها. حتى إذا جاء الإسلام أعطى لها مضمونًا أشمل ومفهومًا أعمق وجعلها الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي والكيان الإسلامي ككل. يقول الله تبارك وتعالى في هذا : ﴿**وإن هذه أمتكم أمة واحدة**﴾، ويقول جل جلاله : ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾. فالأخوة والوحدة في إطار الأمة الواحدة التي تدين لله بالطاعة والامتثال وللإسلام بالولاء والارتباط الدائم في جميع الأحوال، كل ذلك من القواعد الراسخة للمجموعة الإسلامية، وهي قواعد تصلح اليوم وصالحة، بإذن الله تعالى، ما بقيت الإنسانية.

وبعد هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة، وهو في 53 من عمره، سعى لأول وهلة إلى إقرار التضامن في المجتمع الجديد كصيغة للتعايش وللتساكن بين جميع العناصر المكونة آنذاك لمجتمع المدينة، فبعد أن آخى عليه السلام بين المهاجرين والأنصار وربط بينهم برباط الإسلام والأخوة في الله، عمل على ربط الصلة بين باقي العناصر على أساس من الإخاء الإنساني، بغض النظر عن المعتقد الديني، فشمل ذلك اليهود : الأوس والخزرج. ولعل المقام يقتضي أن أشير هنا إلى معاهدة المدينة التي تضمنت الحقوق لجميع المتساكنين، والتي جاء فيها بعد باسم الله الرحمن الرحيم : «هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس». وفيها : «وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم». وفيها أيضًا : «وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم».

ففكرة التضامن، إذن، فكرة أصيلة وعميقة وراسخة في وجدان المسلم، وفي كيان المجتمع الإسلامي، وفي مفهوم الحضارة الإسلامية. وهذا ما يعطي

للتضامن الإسلامي اليوم بعدًا حضاريًا وخلفية تاريخية عريقة، ويضفي عليه الطابع الأصيل المستمد من الدين ومن تاريخ المسلمين.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم، في الحديث الصحيح : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». وهو وصف شامل جامع ينطبق على المجتمع الإسلامي، وينبغي أن يكون قدوة ومثالاً ونموذجاً. بل إني أعتقد أن هذا الحديث الشريف هو ميثاق التضامن الإسلامي بعد الآيات الكريمة الواردة في هذا المعنى.

هذا المفهوم الإسلامي للوحدة وللتضامن نسيج وحده، إذ لا مثيل له في جميع القوانين الوضعية، بما في ذلك ميثاق الأمم المتحدة، لأن هذا الميثاق، في حقيقته وجوهره، غير عادل. لماذا؟ لأن هناك ما يسمى بحق (الفيتو) الذي يمنحه هذا الميثاق للدول التي يصطلح عليها بالدول الكبرى، بينما الميثاق الإسلامي يضمن العدل للجميع والمساواة للجميع : «كلكم من آدم وآدم من تراب»، و«الناس سواسية كأسنان المشط»، ولا فرق بين عربي وعجمي ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى». فدولة إسلامية من مليون واحد لها نفس الحقوق التي للدولة الإسلامية من مائة مليون نسمة، وسكان مكة المكرمة هم من نفس الدرجة من المساواة مع سكان الكونغو المسلمين مثلاً. وهكذا فلا معنى أن تصوت مائة وخمسون دولة عضوًا في الأمم المتحدة على مشروع قرار بالقبول وتقوم دولة واحدة من الدول الكبرى تبطل هذا كله بحق الفيتو. هذا ليس عدلاً، وهذه ليست مساواة، إنما العدل والمساواة في الميثاق الإسلامي. ولك أن تقيس هذا على عشرات الأمثلة والوقائع والأحداث.

وأعود إلى السؤال، لأؤكد من جديد أن الأسس الفكرية والعقائدية لفكرة التضامن الإسلامي، هي عقيدة الإسلام التي هي الحق كله، والعدل كله، والمساواة كلها، والإخاء الإنساني الخالص من كل شائبة.

○ كيف تنظرون إلى تقبل قادة الدول الإسلامية لهذه الفكرة وتجاوبهم مع معانيها ودلالاتها على ضوء واقع العمل الإسلامي الدولي في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي؟.

● ربما كان الأنسب أن أبدأ الإجابة عن هذا السؤال بالإجابة عن سؤال ثان أرى أنه الأسبق، وهو : لماذا حوربت فكرة التضامن الإسلامي؟. لماذا لا تزال القوى الاستعمارية تمعن في محاربة فكرة التضامن الإسلامي؟. هذا هو المدخل، لأن تقييم التجربة الحالية والحكم عليها بالسلب أو بالإيجاب، يتوقفان على معرفة طبيعة العصر وإدراك أبعاد الموقف المعادي لفكرة التضامن الإسلامي.

أول ما نسجله أن كلا من المعسكرين الرأسمالي والشيوعي يتهم المسلمين بطرح شعار التضامن الإسلامي انحيازاً منهم لخدمة الأهداف الامبريالية الأمريكية، فإن الواقع يؤكد بصفة قاطعة، أن الضربات التي تلحق بالتضامن الإسلامي من طرف الإمبرياليين الغربيين، لا تقل عما يأتي من الإمبريالية الشرقية. الكل يتفق على معاداة فكرة التضامن الإسلامي، الروس والأمريكان متفقون على ضرب كل تحرك إسلامي ينشد السلام والأمن والتحرر من ربقة الاحتلال والقهر والتبعية الاقتصادية والتجارية والمالية والسياسية والفكرية. وطالما أن التضامن الإسلامي الحق هو دعوة صريحة إلى صيانة الذاتية الإسلامية وحماية الكيان الإسلامي، وطالما أن التضامن الإسلامي يقتضي في المقام الأول، تقوية الدول الإسلامية بالتعاون فيما بينها والتكامل بين الجهود لبناء اقتصادياتها والرفع من مستوى تقدمها العلمي والتكنولوجي والثقافي والتعليمي، انسجامًا مع المفهوم الشامل والعميق للفكرة وللعقيدة، طالما أن الأمر كذلك، فلا غرابة أن يلتقي الغرب والشرق في محاربة ومعاداة التضامن الإسلامي بشتى الطرق ومختلف الأساليب.

ومن هنا أنتقل إلى ما جاء في السؤال. إن قادة الدول الإسلامية إذا ما قبلوا وارتضوا فكرة التضامن الإسلامي، فإنهم مطالبون بالتجاوب والانسجام مع روح ميثاق منظمتهم، منظمة المؤتمر الإسلامي، فهناك مثلاً مبدأ هام من مبادئ المنظمة يقول باحترام حق تقرير المصير، وإذا تناولنا هذا المبدأ من الوجهة الفكرية والعقائدية، نجد أن من حق الشعوب الإسلامية أن تقرر مصيرها الإسلامي، أي حقها في أن تحيا في كنف المبادئ الإسلامية، بمعنى أن تحيا حياة إسلامية، وأن تطبق تعاليم الإسلام، وأن تكون على قدر من الاستجابة لروح هذا النداء. ولكننا للأسف نرى أن هذا المبدأ لا يعمل به في أغلب البلاد الإسلامية.

إننا نرى شعوبًا إسلامية تحكمها نظريات وقوانين غير إسلامية، نرى أقلية طائفية تسيطر على الأغلبية المسلمة، ونرى أيضًا، انحرافًا بيّنًا عن الخط الإسلامي الذي تسير فيه دول من المفترض أن تلتزم بما جاء في ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي من مبادئ وقواعد عامة.

ومن جهة أخرى، أقرَّ ميثاق المنظمة تأكيد مبدإ الحرية في المجتمع الإسلامي. فهل العالم الإسلامي يعيش في حرية ؟. هل الشعوب الإسلامية تتمتع بالحرية ؟. هل هناك احترام للحريات العامة الأساسية التي جاء بها الإسلام لصيانة كرامة الإنسان، والتي ينص عليها ميثاق المنظمة ؟.

ومن جانب آخر، إذا راجعنا الأهداف المنصوص عليها في ميثاق المنظمة، نجد فيها ما يلي :

- تعزيز التضامن بين الدول الأعضاء.
- دعم التعاون والتشاور بينها.
- العمل على محو التفرقة العنصرية وإنهاء الاستعمار في جميع أشكاله.
- دعم السلام والأمن الدوليين القائمين على العدل.

- تنسيق العمل من أجل الحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة وتحريرها.
- دعم الكفاح الفلسطيني.
- دعم كفاح الشعوب الإسلامية.
- التعاون والتفاهم بين الدول الأعضاء والدول الأخرى.

هذا ما يحضرني الآن من أهداف المنظمة، وهي أهداف مقدسة ما في ذلك شك. فهل تلتزم بها الدول الإسلامية ؟. إن معظم هذه الأهداف لا تلتقي في شيء مع اتجاهات وأعمال ومخططات بعض الدول الأعضاء في المؤتمر. فكيف يكون التجاوب مع معانٍ ودلالات فكرة التضامن الإسلامي والحالة هذه ؟.

وحتى أزيد في توضيح هذه الصورة، لابد أن أعطي بعض الأمثلة. إننا نجد في مقدمة مبادئ المنظمة، ما يلي :

- المساواة بين الأعضاء.
- احترام حق تقرير المصير وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء.
- احترام سيادة واستقلال ووحدة أراضي كل دولة عضو.
- عدم استعمال القوة ضد وحدة وسلامة الأراضي لأي عضو.

ولأكتفِ بهذا القدر، ففيه الغَناء، ولأتساءل : أليست الدولة التي تستعمل القوة ضد وحدة وسلامة الأراضي المغربية عضوًا في المنظمة ؟. أليس المغرب ضحية هذا الخرق السافر لمبادئ المنظمة ؟. وقس على هذا الوضع في الخليج، بين العراق وإيران، وفي أفغانستان، وفي إيرتيريا، وفي الصومال. أليس هناك خرق وتجاوز وعدوان وتطاول وظلم من طرف حكومات إسلامية تساند الجهات المعتدية على إخوانها المسلمين هناك، متحدية المبادئ الإسلامية ونصوص وروح ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي ؟.

ومن جهة أخرى، هل هناك عمل جدّي لمبدإ (دعم الكفاح الفلسطيني وتحرير القدس)، ولمبدإ (دعم كفاح الشعوب الإسلامية)، ولمبدإ (التعاون والتفاهم بين الدول الأعضاء...)... إلخ؟.

قادة الدول الإسلامية، إذن، مطالبون، باسم الميثاق الذي وقعوا عليه، أن يرتقوا إلى مستوى روح ومفهوم ومدلول فكرة التضامن الإسلامي، حتى يكونوا منسجمين مع أنفسهم، ومتجاوبين مع شعوبهم، وسائرين بحق في الطريق السليم الذي يضمن لشعوبهم ولأمتهم الرفعة والقوة والحرية والتقدم والسلام.

هؤلاء القادة مسؤولون أمام ربهم وأمام ضمائرهم وأمام شعوبهم، ومسؤوليتُهم هذه تدعوهم إلى أن يكونوا ممثلين حقيقيين لهذه الشعوب. فبهذا فقط تستقيم الأمور، ويقع التجاوب والانسجام مع مبادئ ميثاق منظمة المؤتمر الإسلامي، وبالتالي يحقق المسلمون المنعة والقوة لأنفسهم ولدولهم.

○ هل هناك من تناقض أو ما يشبه ذلك، بين جامعة الدول العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي؟. وهل يمكن أن تكون إحداهما بديلة عن الأخرى؟. ثم ما موقع هاتين المنظمتين من المنظمات العالمية المشابهة؟.

● لا، ليس هناك تناقض ولا شيء يشبهه. فالمنظمتان معًا تعملان لهدف شريف، أو قل لأهداف واحدة. فهناك دائمًا قضية تحرير أولى القبلتين وثالث الحرمين، وهناك العمل من أجل جمع الكلمة وتوحيد الصف وتقوية الوجود الاقتصادي والسياسي والثقافي بين المجموعة العربية، ثم بين المجموعة الإسلامية. والمجموعتان معًا إنما هما مجموعة واحدة. الفرق هنا، إن كان هناك فرق، هو في الشكل والمظهر وليس في المضمون والجوهر. ويلاحظ هنا بصفة أساسية، أن المنظمتين تعملان للهدف الواحد المشترك، وهو الدفاع عن القضية الفلسطينية ونصرة الشعب الفلسطيني والكفاح السياسي من أجل

عزة ورفعة الأمة العربية الإسلامية، فالعمل بينهما متكامل، أو فلنقل إنه يجب أن يكون متكاملاً.

وهذا لا يمنع من القول إن منظمة المؤتمر الإسلامي أشمل مجالاً، وربما كانت أبعد أثـرًا وأعمق نفوذًا بفضل لارتباطها العقدي بحكم ضخامة حجمها وكثافة الدول المنتمية إليها. وهذا شيء طبيعي نظرًا إلى أن رقعة العالم الإسلامي أوسع من الوطن العربي، وتعداد سكانه أكبر بما يقارب تسعة أضعاف من تعداد العالم العربي. وهذا كله يشكل قوة إضافية للعرب، ويمثل امتدادًا لنفوذهم ولثقلهم الدولي، بمثل ما يعدُّ العرب بموقعهم وخلفياتهم التاريخية وما تمتاز به أقطارهم من ثروات ضخمة ذات تأثير على الاقتصاد العالمي، وعاءًا للإسلام وذخرًا للمسلمين.

والحقيقة أن مسألة الفرق بين العرب والمسلمين، أو بين العروبة والإسلام، يحسمها الحديث الشريف الذي يقول ما معناه إن كل من تكلم العربية فهو عربي. وهو حديث ذو دلالة قوية تصلح معيارًا دقيقًا في مثل هذه الحالة.

واقعنا اليوم المثقل بما لا يحصى من التحديات والصعوبات والأخطار، يقتضي تنوّع أساليب وطرق العمل لما فيه خير أمتنا العربية الإسلامية. ولذلك فكل نجاح أو توفيق أو نصر تحققه إحدى المنظمتين، العربية أو الإسلامية، هو قطعًا كسبٌ للإسلام بقدر ما هو كسبٌ أيضًا للعروبة بصورة لا يرقى إليها الشك. وهذا هو التلازم والتكامل المطلوبان، ومن ثم، فلا تناقض بين الجهتين، والوضع صحيح وسليم.

أما عن موقع المنظمتين العربية والإسلامية من المنظمات الدولية المماثلة، فهنا يجدر بنا أن نقول إن الملاحظة الأساسية أن المنظمات الدولية الأخرى تقوم على أساس تبادل المصالح، أو تحقيق المصالح، أي أنها منظمات أسست أصلاً بين دول رأت أن مصالحها تقتضي هذا النوع من التنظيم الدولي. ولكن

الأمر يختلف بالنسبة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، لأنها تأسست بدافع ديني، وبحافز من الشعور بضرورة إقامة كيان وحدوي إسلامي في شكل يناسب العصر. فالحافز هنا مكمنُه العقيدة الدينية، فهو أقوى وأبقى، وهو أشمل وأعمق. صحيح أن هناك أهدافًا مشتركة بين الدول الإسلامية الأعضاء منها تبادلُ المنافع وتحقيق المصالح، ولكن هذا يأتي من خلال التشبث بمبدإ التضامن الإسلامي، أي عبر قنوات إسلامية، إن صح هذا التعبير، أي أن الوَسيلة هنا وسيلة من نوع خاص مغاير تمامًا لما هو سائد ومتداول في الساحة الدولية.

لقد أوضحت منذ قليل، أن التضامن الإسلامي الحق، يوفر المساواة الكاملة بين جميع الأعضاء المنضوين تحت لواء منظمة المؤتمر الإسلامي، بحيث لا يبقى هناك فرق بين دولة إسلامية كبرى وبين أخرى صغرى من حيث تعداد السكان والمساحة، أو بين دولة إسلامية وبين ثانية فقيرة. هذا هو الفرق بين منظمة المؤتمر الإسلامي وبين المنظمات الدولية الأخرى.

ولكن هذا كله لا يمنع أن تلتقي المنظمة الإسلامية مع المنظمات والهيئات الدولية في العمل لما فيه سعادة البشرية وأمن وسلام العالم، فهذا من باب تحصيل الحاصل.

○ من موقع المعايشة والمشاركة، أريد أن تحدثوا القراء عن فكرة التضامن الإسلامي في تراث الحركة الوطنية المغربية.

● حركة الوطنية المغربية قامت على أساس التشبث بالعقيدة الدينية. هذا أول ما ينبغي أن يسجل. الذين حملوا عبء الحركة كانوا شبابًا مشبعين بالفكرة الإسلامية، خرجوا من القرويين، ومن غير القرويين، من مدارس ومساجد المغرب. والمغاربة شعب شديد التمسك بإسلامه. مظاهر التغريب اليوم لا يمكن أن تنال من هذه الحقيقة. تاريخنا تاريخ إسلام وعروبة، والمغاربة

دعاة وحدة وتآلف وتضامن مع الأشقاء. في عهد يوسف بن تاشفين، كان للمسلمين خليفة في المشرق، كان يحمل لقب أمير المؤمنين، فلم يشأ هذا السلطان المغربي العظيم أن ينافسه في ذلك، فاختار له لقب أمير المسلمين، احترامًا منه وتقديرًا للخلافة الإسلامية بالمشرق التي التفّ حولها العالم الإسلامي. ويعقوب المنصور الموحدي كان أول من أنجد صلاح الدين الأيوبي بالمال والرجال والعتاد. وملوك المغرب منذ الفاتح الأكبر إدريس، هم من أنصار التضامن الإسلامي، ولولا المغاربة وبأسهم الشديد في الحق والعدل، لما كان وجه أفريقيا كما هو اليوم، ولما بقي الوجود الإسلامي بالأندلس ثمانية قرون. إذن فكرة الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، متغلغلة في بيئتنا، ضاربة في وجداننا، متمكنة من نفوسنا قمة وقاعدة.

وبهذا التراث الوحدوي التضامني الإسلامي تشبَّع رواد الحركة الوطنية. لقد نشأنا في هذا الجو المشبع بحب الوطن، وطننا هذا، والوطن العربي الإسلامي الكبير، ولم يداخلنا الشك قط في صدق وإخلاص انتمائنا إلى عالم العروبة والإسلام، فنحن أبناء هذا العالم الممتد من هذا المحيط إلى شرق أندونيسيا، أمة واحدة تعبد ربًا واحدًا. ولما داهمنا الاستعمار في عقر دارنا، كان استعمارًا واحدًا، اختلفت جنسياته واتحدت أهدافه، فكان أن خضنا معًا كفاحًا عربيًا إسلاميًا موحدًا، من حيث الأهداف والغايات، وأحيانًا من حيث الوسائل أيضًا، واعتبرنا أنفسنا جنودًا للمغرب، ولباكستان، ولأندونيسيا، ولتركيا، ولمصر. وتلك كانت هويتنا.

فالحركة الوطنية المغربية، تمتعت دائمًا بالبعد العربي الإسلامي، ولا غرابة في ذلك، فها هو المغرب اليوم يقود ويرود العمل الإسلامي لما فيه مصلحة الشعوب والدول الإسلامية. ثم هناك ظاهرة جديرة بالتأمل لا مثيل لها في العالم الإسلامي كله بلا استثناء، المغاربة فقط هم الذين يعتبرون رئيس الدولة الملك أميرًا للمؤمنين. هذه ظاهرة جديرة بالتسجيل وبالتأمل كما قلت. لماذا

ذلك؟. لأن المغاربة مرتبطون أوكد الارتباط بعقيدتهم وإيمانهم، مخلصون لما يدعو إليه دينهم من التشبث بهذه العقيدة وجعلها رمزًا لوجودهم وقيادتهم. أمير للمؤمنين؟. كيف؟. هذا يعني وحدة المؤمنين، تضامن المؤمنين، اجتماع المؤمنين على كلمة سواء، التفاهم حول رمز معين، حول فكرة مقدسة، حول قيادة موحدة، وكل ذلك يؤكد أن الكيان المغربي كيان موحد. بماذا؟. بالإيمان، بالإسلام، فالإيمان هو وحده الرباط الذي يجمع المغاربة. فإذن نحن شعب متضامن، ومصدر ذلك هو التضامن الإسلامي. أليس هذا تأكيدًا قويًا على أننا شعب متشبع بفكرة التضامن الإسلامي؟.

لقد وعت الحركة الوطنية المغربية هذه الحقائق، فكانت دائمًا وفية لها، وشاءت إرادة المولى عز وجل أن يتواصل عطاء المغرب ويستمر، وأن يقود جلالة الملك مسيرة التضامن الإسلامي باقتدار كبير، وأن تنعقد بالمغرب قمتان إسلاميتان من واقع أربع قمم إسلامية، وأن يكون جلالته الملتزم بالعمل على تحرير القدس ورئيس لجنة القدس.

○ كلما ذكر «التضامن الإسلامي» والكفاح الذي خاضه رواد الفكرة في العصر الحديث لإقراره في الواقع الدولي، تبادر إلى الذهن رجل أعطى للفكرة من نفسه الشيء الكثير. أود لو تحدثوننا عن نضال الرائد الإسلامي الكبير علال الفاسي من أجل التضامن الإسلامي.

● علال، رحمه الله، كان أمة وحده، اشتغل كثيرًا بالدعوة والعمل والنضال من أجل التضامن الإسلامي. لقد كان علال من السباقين إلى تبني فكرة عقد المؤتمر الإسلامي. وأذكر بالمناسبة، أن علال الفاسي اشترك في أول مؤتمر إسلامي دعت إليه رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة سنة 1965، وكنت حاضرًا هذا الاجتماع الذي ترأسه جلالة الملك فهد بن عبد العزيز الذي كان وزيرًا للداخلية إذذاك. لقد عهد جلالة الملك فهد لأخينا علال بتولي تسيير كثير من الجلسات، وكانت فكرة التضامن الإسلامي قد طرحت في هذا

الاجتماع في شكل الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي لقادة العالم الإسلامي. وكان الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله، من المتحمسين جدًا لهذا المؤتمر، وله الفضل، بعد الله سبحانه، في إنجاح المساعي التي توالت بعد ذلك التي لها علاقة بهذا الغرض. في هذا الظرف كانت السماء العربية ملبدة بسحب كثيفة، أبواق التقدميين واليساريين والقوميين والبعثيين لا تكل لحظة واحدة عن التشهير بفكرة المؤتمر الإسلامي وتأليب الرأي العام العربي والإسلامي ضدها. وفي هذا الاجتماع وقف علال، رحمه الله، يدعو ويلح في الدعوة إلى التضامن الإسلامي وإخراج فكرة التضامن إلى حيز التطبيق. حدث هذا سنة 1965 كما ذكرت، ومن يومها لم يتردد علال قط في اغتنام أية فرصة تسنح لشرح أبعاد فكرة التضامن الإسلامي ولتجديد الدعوة إلى المؤتمر الإسلامي وتجسيد فكرة التضامن الإسلامي في كيان دولي معترف به.

ذكرت هذا لأخلص إلى القول إن علال الفاسي كان من المفكرين الإسلاميين الرواد الذين وعوا حقيقة فكرة التضامن في إطارها الإسلامي. صحيح أن علال الفاسي كان وطنيًا مغربيًا شديد التعلق بوطنيته المغربية. ولكن الصحيح أيضًا، أن الوطنية عند علال لم تصرفه عن التطلع إلى الوحدة العربية والتضامن الإسلامي. كان رحمه الله يعتقد أن بناء المغرب العربي إن هو إلا اللبنة الأولى في صرح الوطن العربي الكبير الذي هو أيضاً جزء لا يتجزأ من هذا البنيان الشامخ المتمثل في العالم الإسلامي. ولذلك كان يعمل لوطنه الصغير والكبير، للمغرب وللمغرب العربي الكبير، وللوطن العربي الأكبر، وللعالم الإسلامي الأشمل والأجمع، فهي دوائر متواصلة كل دائرة منها تفضي إلى الأخرى.

○ **ماذا تؤملون بعد كل هذا من المؤتمر الرابع للقمة الإسلامية ؟.**

● إن أملي أن يوفق الله ملوكنا ورؤساءنا في اجتماعهم الرابع للعمل على تطبيق المقررات التي سيتخذونها، خصوصًا فيما يتعلق بتحرير فلسطين

والقدس والأقصى من قبضة الصهاينة، وأن يضعوا مخططًا عمليًا لمواجهة التحديات التي تتحدانا بها إسرائيل باعتداءاتها المتكررة على مقدساتنا واضطهادها لإخواننا وتقوية وجودها واستيطانها بالأراضي الفلسطينية.

إن التعنف الإسرائيلي والصلف اليهودي لا يمكن أن يقضي عليهما إلا بإقرار ميثاق إسلامي تلتزم به كل الدول الإسلامية، ويعمل على تطبيق محتوياته بمجرد انفضاض جلسات المؤتمر. وهذا الميثاق يجب أن ينص على أنه لا تعامل مع إسرائيل ولا تفاوض معها، وأنه من الواجب مكافحتها بجميع الوسائط التي تؤكد على التصدّي لتعنتها، حتى تستجيب طائعة أو مكرهة ، لتطبيق المقررات التي أقرها المنتظم الدولي والمؤتمر الإسلامي وتترك فلسطين للفلسطينيين ولبنان للبنانيين.

إن استعمال وسائل الضغط المختلفة مع إسرائيل هو الذي يحرر فلسطين، فهل سنكون هذه المرة في المستوى المطلوب منا ؟. ذلك ما نرجو.

حديث عن وضعية المسلمين في الفليبين(*)

يجب التأكيد ابتداءًا، أن الذي يجري في الفليبين ليس من قبيل الاعتداءات العنصرية التي كثيرًا ما نسمع عنها .. إن الذي يجري في الفليبين أمر جلل .. له أهميته وخطورته ونتائجه وانعكاساته وتأثيراته على الوجود الإسلامي ككل، في الفليبين ... والمناطق الإسلامية المجاورة لها .. إنها بحق مؤامرة صليبية ضد الوجود الإسلامي في تلك البلاد .. بل هي أكثر وأضخم من هذا التصور الأولي .. إنها أيضاً، حلقة في سلسلة مخططات استعمارية وصليبية وصهيونية ترمي إلى محو كاسح وشامل وعميق للفكرة الإسلامية وللإنسان المسلم في المناطق النائية عن قلب العالم الإسلامي .. ونقصد به المنطقة العربية.

ونحن في المغرب نكاد نجهل الحقيقة كاملة .. حقيقة ما يقع ويدبر ويحاك ضد الأشقاء الغرباء في الفليبين.

وهناك عوامل كثيرة تتضافر لتبقينا دائمًا في (دائرة الجهل) بواقع الشعب المسلم في الفليبين .. ومن أجل إسقاط جدار الصمت وإطلاع قرائنا في المغرب على الحقيقة، أو بعضها على الأقل، أجرت (**صفحة 700 مليون مسلم**) حديثًا سريعًا مع الأستاذ أبي بكر القادري تناول فيه جانبًا مهماً من محنة المسلمين في الفليبين.

(*) نشر الحديث في صفحة (700 مليون مسلم) بجريدة «العلم» في سنة 1971. وأعيد نشره في كتاب (في سبيل بعث إسلامي) للأستاذ أبي بكر القادري، صفحات : 286-290.

قلت للأستاذ أبي بكر القادري : إن اتصالاتكم مع زعماء العالم الإسلامي في عدة مناسبات ولقاءات في مؤتمرات إسلامية، تسمح لكم ولاشك، بتعريف قراء «**العلم**» بحقيقة محنة المسلمين في الفليبين. فما هو إذن تصوركم للواقع هناك ؟.

فأجاب قائلاً : «يقف المسلمون، أو الأقلية المسلمة في الفليبين، موقف الدفاع عن الوجود الإسلامي في منطقة البحر الهادي، ليس دفاعًا عن الوجود الإسلامي في الفليبين فحسب، ولكن عن المنطقة كلها. ومن هنا فعدم إعطاء العالم الإسلامي الأهمية لهذه المقاومة، من شأنه أن يؤدي إلى استئصال الوجود الإسلامي هناك، بما يعني ذلك من مضاعفات خطيرة واهتزاز لمركز الإسلام والمسلمين في العالم، وتقوية للنفوذ الصليبي والصهيوني المتعاون في المنطقة جميعها، وهو نفوذ مدعم وقوي ومنذر باكتساح ساحق لكل الأقليات المسلمة، بل وحتى للشعوب الإسلامية المستضعفة في آسيا».

«منذ أن جاء الإسبان إلى الفليبين بروح صليبية حاقدة، وسياستهم ترمي إلى محو الوجود الإسلامي محواً اتخذ عدة أشكال، كان آخرها (التصفية الجسدية) القائمة على قدم وساق، والمسلمون بصفة خاصة هناك يقاومون – بشجاعة وإيمان وإباء – هذا الزحف المسيحي منذ أربعة قرون كاملة. وهم إذا كانوا متماسكين تماسكًا كليًا ومستعدين للدفاع عن وجودهم ومقوماتهم الإسلامية حتى آخر رجل منهم، فإنهم يناشدون العالم الإسلامي قاطبة، وبالأخص المغرب، التدخل بوسيلة أو بأخرى، لمساندتهم وتعزيز جهادهم بما تتطلب المساندة والتعزيز من إمكانات مادية ومعنوية».

«ولسائل أن يسأل : لماذا المغرب بالذات ؟. لأن المسلمين في الفليبين، وهذه حقيقة يجب قولها، ينظرون إلى المغرب نظرة خاصة تنبثق من (وحدة التحدي)، بمعنى أن القوى المتحدية هناك للوجود الإسلامي، هي نفسها التي قاومها المغرب زمناً طويلاً على شتى الجبهات وعلى فترات مختلفة. ولازال

الشعب المغربي لم يتخلص بعد من مخلفاتها. ذلك أن الإسبانيين لما احتلوا الفليبين وجدوا هناك واجهة أخرى مثل الواجهة التي صادفوها في المغرب والأندلس، الشيء الذي جعل الإسبان يشبهون المسلمين في الفليبين بالمغاربة، وهم هناك يعتزون بهذا التشبيه».

«والحقيقة أن المسلمين في الفليبين يمرون بمحنة قاسية وشديدة الخطورة، فإن لم يتدارك العالم الإسلامي الأزمة هناك، حدث ما من شأنه أن يكون شبيهًا بما حدث للمسلمين في فلسطين».

«وليس هناك ما يحول بين الصليبية العالمية وإعادة قضية فلسطين في الفليبين، فنحن إذا نظرنا إلى الوراء قليلاً، نجد أن احتمال طرد شعب فلسطين المسلم لم يكن واردًا بالمرة، وكان بعيدًا أن يتصور المرء أنه في إمكان اليهود، أو بالأخص انجلترا، الإقدام على طرد الشعب الفلسطيني من أرضه واحتلالها بقوة الحديد والنار».

«ونحن نعتقد أن مخططات الاستعمار واحدة، وأهدافها متقاربة متشابهة، وسياستها تسير على خط واحد، وإن بدا أن ثمة خطوطًا مختلفة متباينة».

«باعتبار هذا كله، فليس بعيداً إطلاقاً، أن نصبح أو نمسي على خبر تشريد الأقلية المسلمة في الفليبين من الأرض التي فتحها المسلمون منذ أربعة قرون. لكن شيئًا واحدًا يمكن أن يحول دون تحقيق هذا الهدف الاستعماري، هو أن تتضافر جهود المسلمين في العالم على المستويين الشعبي والحكومي، لمساندة وتأييد المسلمين في الفليبين».

«حقيقةً، مصيرٌ أسود هذا الذي ينتظر الإخوة المسلمين في الفليبين، لو استمر تجاهل العالم الإسلامي لهم».

وسألته فيما تنحصر – على وجه التقريب – هذه المساندة المنتظرة في المال .. في السلاح .. في الدعم الإعلامي .. في أي نطاق بالضبط ؟.

فردّ قائلاً : «أتحدث عن مساندة المغرب لمسلمي الفليبين .. والمسألة تنحصر في مساندة عملية على مستوى الشعب من حيث الدعاية وشرح الحقائق الموجودة هناك. وعلى مستوى الحكومة، فإن الفلبينيين المسلمين كما أسلفت القول، ينظرون ويعلقون على بلادنا آمالاً عريضة .. وبالأخص على شعب المغرب باعتباره شعبًا مسلمًا».

وقال إن مساندة المغرب الرسمية ينبغي أن تشمل الجوانب التالية :

1- بناء المساجد التي حطمها المسيحيون.
2- اتصالات دولية من أجل كفّ العدوان عنهم.
3- إمدادهم بالمساعدة العملية التي من شأنها المحافظة على وجودهم كأقلية (5–4 مليون) باعتبار أن موقف المغرب الرسمي له وزن دولي من جهة، وله مردود عملي من جهة رفع معنوية المجاهدين هناك.

واستطرد قائلاً : «الواقع أن المغرب مهتم بالمسألة الفليبينية، ونحن نفكر في أن نكون دائمًا نردد صدى المظالم والمجازر التي يقاسيها المسلمون في الفليبين. ونحن من جهة أخرى، نناشد جميع المنظمات الوطنية والجمعيات الإسلامية وجميع طبقات الشعب المغربي، التعبيرَ عن تضامنهم مع إخوانهم في الفليبين».

وأضاف : «ومن جهة أخرى، فنحن نطالب من الصحافة المغربية والإسلامية بالتعريف بالقضية الفليبينية. وأحب أن أقول إننا لا نفهم لماذا يكون المسلمون مناصرين لقضية شعب الفيتنام، في حين يعرضون إعراضًا كليًا عن الالتفاف إلى المسلمين في الفليبين ؟».

«وأحب أن أختم بالإشارة إلى أنه من المطلوب السعي لإنشاء منظمة مغربية لمساندة الأقلية المسلمة في الفليبين. وسنعمل إن شاء الله تعالى، على إنشاء هذه المنظمة في القريب العاجل».

خاتمة

على تعدّد الصفات التي كان يتسم بها المجاهد الأستاذ أبو بكر القادري، وتنوّع الألقاب التي كان يحملها، فإن من الصفات الثابتة في شخصيته، أنه كان رجل مبادئ وقيم، لم يحد عنها قط، وعاش حياته متشبثًا بها، مدافعًا عنها، مبشرًا بها، داعيًا إليها، بالعمل قبل القول، وبالسلوك القويم وبالممارسة الراقية للنضال الوطني في مجالاته المتعددة، السياسية والتربوية والدينية والثقافية والاجتماعية، بحيث كانت حياته الحافلة بضروب النضال، معبرة أَوْفَى ما يكون التعبير، عن هذه المبادئ السامية التي آمن بها عن وعي رشيد، ومترجمة أدق ما تكون الترجمة، لتلك القيم المثلى التي اعتنقها واقتنع بها، وكان وفيًا لها أقوى ما يكون الوفاء.

لقد تجسدت في هذه الشخصية الوطنية الفذة منظومة القيم الروحية والثقافية والحضارية التي آمن بها شعبنا، على تنوع مصادر هويته ومنابع شخصيته ومشارب طبيعته. وبذلك كان المجاهد أبو بكر القادري، رجل مبادئ راسخة وقيم ثابتة، في جميع مراحل حياته، وتحت مختلف الظروف التي مرّ بها، شهمًا ثابتًا وشجاعًا جسورًا لا يتردد عن اقتحام أصعب الأزمات وخوضها برباطة جأش وشدة بأس، وبقوة روحية ضاربة كان يستمدها من إيمانه بالله ومن ثقته في نصره سبحانه لعباده المتقين المؤمنين بالحرية والكرامة والعدالة والمقاومين للظلم والعدوان والجبروت والرافضين لامتهان كرامة الإنسان، في نموذج عالي المستوى نادر المثال، للثبات على المبدإ، وللوفاء للعهد الذي جمعه مع إخوانه المناضلين، وللصمود في وجه الأعاصير التي هبت على

المغرب في عهد الحماية البغيض، وفي فترات عصيبة ومبكرة من عهد الاستقلال، وفي مراحل أخرى متعاقبة من تاريخ البلاد.

وإذا كانت المبادئ قيمًا في حد ذاتها، فإن الثبات على القيم هو من أجَلّ المبادئ، تشبثًا بها، ونضالاً من أجلها، ونشرًا وإشاعة لها. وإن الجمع بين المبادئ العليا والقيم المثلى، لهو خاصية من خصائص هذه الشخصية الفذة التي كانت مثالاً في التحلي بالأخلاق الوطنية التي هي عندها قوامُ النضال الوطني والنواة الصلبة للعمل السياسي، وللعمل التربوي والثقافي، وللعمل الإسلامي من منطلق التفتح الفكري، والانفتاح المعرفي، والتسامح الإنساني، والاعتراف بالحق في الاختلاف الذي لا يفسد للوطنية قضية.

لقد كان الأستاذ أبو بكر القادري مجاهدًا وطنيًا صلبًا في الدفاع عن سيادة المغرب وحفظ حقوقه الوطنية وصون مصالحه العليا. وبقدر ما كان مجاهدًا وطنيًا شجاعًا في ساحة العمل الوطني السياسي، فإن صفة الجهاد لازمته واقترنت به في العمل الوطني على مختلف الجبهات، من التربية والتعليم والثقافة، إلى الإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي، إلى الإصلاح السياسي والدستوري، على نحو من التلازم جعل منه رجل المهمات الكبرى في جميع مراحل حياته، وأحد الرواد الماهدين المؤثرين الفاعلين الذين صنعوا تاريخ المغرب المعاصر، بتضحياتهم وبنضالاتهم وبإسهاماتهم وبمواقفهم الوطنية وبمبادراتهم التربوية والدينية وبأدائهم المتميز في تحرير الوطن، وفي بناء الدولة المغربية المستقلة على قواعد راسخة من الملكية الدستورية، ومن القيم الإسلامية الخالدة، وفي إطار دولة الحق والقانون والمؤسسات النزيهة التي تعبر عن إرادة المواطنين الأحرار في وطن حر.

ويتجدد الحديث عن القيم الرفيعة التي تتجسم في شخصية المجاهد أبي بكر القادري، بتجدد مراحل النضال الوطني الذي تخوضه لبلادنا، بما يستدعي تجديد هذه القيم وتعزيزها، والعودة إليها واستلهامها، لإحياء دورها الفاعل

والمؤثر في حياتنا المعاصرة، لأنها بحق القيم الباقيات التي تجمعت في المجاهد أبي بكر القادري. وتتأكد أهمية الرجوع إلى الدروس التي نستخلصها من حياة هذا الوطنيّ الغيور المؤمن المخلص، في هذه المرحلة التي تمرّ بها بلادنا حيث تداخلت المفاهيم، وتضاءلت قوة المعاني المستمدة من الوطنية، واختلطت الأوراق في سوق السياسة الوطنية، مما أصبحت معه المكاسب التي تحققت خلال أكثر من ثمانية عقود من النضال الوطني، مهددة بمخاطر جمّة ليس من الحكمة ولا من الوطنية تجاهلُها، أو إنكارها، أو المكابرة بشأنها، أو التقليل من شأنها. فليس ثمة من منقذ لنا سوى الرجوع إلى القيم والمبادئ التي ناضل المجاهد أبو بكر القادري في سبيلها، فهي روح الوطنية، وجوهر المواطنة، والدعامة الراسخة التي يقوم عليها الكيان الوطني.

فالوطنية عند المجاهد أبي بكر القادري هي صدق الانتماء إلى الوطن وشدة الإخلاص له، في غير ما انغلاق على الذات أو انزواء عن العالم. والمواطنة هي التفاعل مع الوطن، واندماج المواطنين بعضهم في بعض، أي التشارك في الحقوق والواجبات، بحيث يكون المواطن هو السيد في وطنه، ويكون المواطنون أحرارًا في وطن حر. ولا قيمة لأي مفهوم آخر يتعارض مع هذا المفهوم الوطني.

ولعل هذا الكتاب أن يسلط الضوء على هذه المعاني والدلالات والمضامين التي تجسدت في شخصية الأستاذ المجاهد أبي بكر القادري، رحمه الله.

كتب للمؤلف

أ) المؤلفات المطبوعة :

1- مغرب مسلم أمس واليوم وغدًا ـ تطوان 1982.

2- المغرب في الخليج العربي ـ المحمدية 1982. (نشر الوزارة الأولى).

3- مواقف شاهدة ـ المحمدية 1984.

4- .. ودخل الحسن الثاني العيون ـ الرباط 1985.

5- العالم الإسلامي في المواجهة ـ المحمدية 1987.

6- للحياة .. لا للموت ـ تطوان 1987.

7- مواقف فاعلة ـ المحمدية 1992.

8- عبد الله كنون وموقعه في الفكر الإسلامي السياسي الحديث ـ القاهرة 1992.

9- الحسن الثاني .. عبقرية القيادة ـ الرباط 1997.

10- الإيسيسكو .. رهان على المستقبل ـ الرباط 1997.

11- المستقبل يبدأ الآن ـ الدار البيضاء 2003.

12- مواقف بانية ـ الدار البيضاء 2005.

13- مواقف مغربية ـ الدار البيضاء 2007.

14- أوراق البنفسج ـ الدار البيضاء 2011.

15- علال الفاسي قمة من المغرب ـ الطبعة الأولى : الدار البيضاء 2011، الطبعة الثانية : القاهرة 2013.

16- أبو بكر القادري : الجهاد بطعم الوطنية ـ الدار البيضاء 2013.

الفهرس

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

هذا الكتاب

بُني المغربُ على قواعد من العقيدة والتضحية والبذل والعطاء. وحينما نقول بني المغرب، فنحن نقصد قيام الدولة المغربية منذ العقد السابع من القرن الهجري الثاني وحتى اليوم. وهي سلسلة ذهبية ممتدة، تشكل التاريخ المغربيَّ الذي صنعه الرجال الأبطال الذين حافظوا على نصاعة الكيان الوطني، وصفاء معدن الشخصية المغربية، ووهج الفكر الوطني المغربي. فأولائك هم البناة الماهدون الرواد الذين تحملوا الأعباء، وأدوا الأمانة، ونهضوا بالمسؤولية، والذين لولا جهودهم وجهادهم واجتهادهم، لما كان المغرب الذي يسكننا قبل أن نسكنه. فتاريخ المغرب هو تاريخ هؤلاء القادة الكبار الذين حملوا على عاتقهم بناء الدولة المغربية وحمايتها والذود عن كيانها وصون استقلالها والنهوض بها، وهو إلى ذلك تاريخ الرواد العظام الذين ناضلوا وكافحوا وواجهوا أعداء الوطن لما وقعت الواقعة ونفذت المؤامرة الأوروبية، فاحتل المغرب تحت غطاء الحماية الفرنسية التي عقدت معاهدتها المزورة في 30 مايو سنة 1912، ثم الحماية الإسبانية التي عقدت اتفاقيتها المدبرة بين الدولتين المستعمرتين في 28 نوفمبر من السنة نفسها. وهي ملاحم مترابطة تختلف من مرحلة إلى أخرى شكلاً لا مضموناً، أبلى فيها المغاربة البلاء الحسن، فلم يقصروا في أداء الواجب الوطني، ولم يضعفوا أمام جبروت قوى الشر، ولكنهم صمدوا ورابطوا وثبتوا ثباتاً عظيماً، فكانوا رموزاً للدفاع عن الوطن في أن يحيا حراً، وعن حق المواطنين في أن يعيشوا أحراراً. وفي الط... من هذه الصفوة الطيبة والنخبة المباركة المجاهد الصادق الصدوق ال... المخلص الصبور الأستاذ أبو بكر القادري.

من المقد...



50 درهمًا